جامعة دمشق
كلية الآداب
قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية
علم الاجتماع





الصراع الاجتماعي في المجتمع العربي الاسلامي

دراسة سوسيولوجية للمجتمع العباسي
من ١٣٢ الى ٤٠٠ هـ

موضوع رسالة الماجستير في علم الاجتماع

إعداد
محمد نجيب بوطالب



بإشراف الأستاذ الدكتور
عبد الكريم اليافي

الاهـــــــــــداء :

الى والــــــدي الكريمـــــــــن

مدخل منهجي

(آ) أهمية الدراسات الاجتماعية التاريخيـــــة

يعرف ابن خلدون جوهر التاريخ بأنه ((خبر عن الاجتماع الانساني الذى هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال)) (١) لقـــد ربط مؤلف " المقدمة " علم التاريخ بالاجتماع الانساني ربطا وثيقا . وما دام علم التاريخ وعلم الاجتماع . يمثل تلك الدرجة من الترابط منذ النشأة ، فــــان ما اكتنفاه من تطور هائل شمل موضوعاتهما وطرائقهما * يؤكد اهمية النتائج التي يؤديان اليها في كشف اعماق الماضي وفهم ابعاد الحاضر وتشوف آفاق المستقبل .

هذا التطور الذى احدثه العلم واقتضته ضرورات الحياة الانسانية ، حـــوّل البحث التاريخي والبحث الاجتماعي من حال يكتنفها الغموض والخيال ، الى حال يسودها الوضوح والجدية . من مرحلة كان فيها الجهد المبذول تأريخا للنخبة (مزاجيا مسليا) ، لبعض الوقائع والافراد ، الى مرحلة اصبح فيها ذلك الجهد يستند الى العمل الجماعي والرؤى الشاملة ، آخذا بعين الاعتبار كل الوقائـــع والاحداث والظواهر التي اثرت في المجتمع على امتداد التاريخ ، مضافا اليهــــا المقارنة التحليلية والاختبارية لتلك الوقائع والظواهر .

---

(١) ابن خلدون (عبد الرحمان) -- المقدمة - ص ٣٥ .

* اننا لا ننطلق بذلك من اعتبار ابن خلدون مؤسسا لعلم الاجتماع كعلم حديث ، ولكننا نعتبره من الرواد الاوائل الذين ساهموا في بلورة موضوع هذا العلـــــم وتمييزه ، مثله في ذلك مثل اوغيست كونت وكارل ماركس . فالخلاف حول المؤسس لا يزال قائما . ولا نعتقد ان ذلك يمثل مشكلة ، طالما آمنا بقانون " التراكمات الكمية " الذى يتحول بتطور المعرفة الى علم نوعي مستقل ومعترف به .

ليس باستحضارها ، لان ذلك مستحيل ، ولكن باخضاعها لمقاييس علمية والتعمق من معتمها وادخال المفيد منها في تجربة الواقع . فتلك دروس يأخذها الحاضر من الصيرورة التاريخية التي انتهت اليه وجودا اجتماعيا ومعرفيا ، وتجربه السنن المستقبل الذى سيصبح حاضرا ، ويغدو الحاضر ماضيا والمستقبل حاضرا وهكذا .
يقول اليـــافي : " كما ان المرء يعمل في حاضره روح ماضيه وبذلك يستطيع ان يتبنى هذا الحاضر وان يدرك ماضيه من جوانب ايجابية واخرى سلبية وان يتلمح خطوط القوى - على حد تعبير الفيزيا - لمستقبله ، كذلك معرفة المجتمع لماضيه تدينه على تفهم حاضره وعلى تلمح سمات مستقبله ، وذلك كله في ضوء تطور الانسانية العام ولا سبيل اختيار الاتجاهات المثلى في هذا التطور ، لان الحياة الانسانيــة الى جانب بعض خطوطها الحتمية ذات مجال واسع للتجاوز والحرية والنزعة والاكتمال المسـتمر .
وليس التاريخ هو الماضي وحده . ولكنه الحاضر والمستقبل انه الانســان على مطية الزمن يستفيد من تجاربه التالدة ويبني طارف حياته الاجتماعية .)) (١)
عبر هذا التطور الذى شمل العلوم الاجتماعية عامة ، تبدو صفة الارتباط بين علمي التاريخ والاجتماع مميزة على الرغم من اختلاف المناهج والاهداف .
فاذا كان احدهما يخوض في بحث الماضي ويفسره ، والثاني يخـــوض في بحث الحاضر ويفسره ويقدم الحلول لمشكلاته ، فان تقسيم الادوار والمهمـــات بين العلوم الانسانية هو الذى فرض شيئا من التباعد ، رغم انه يعتبر في النهايـة تقاربا ، كثيرا ما يظهر في الموضوعات ، وفي الاستعارة المتبادلة للمفاهيـــم والحقائق وطرق البحث .
الا ان علم التاريخ ، بالنسبة لنا نحن العرب ، رغم تطوره وتحقيقه لبعـــض المنجزات الهامة ، من حيث ابراز تاريخنا القديم والحديث ، فانه لم يستـــوف مهامه كاملة . وربما كان ذلك نتيجة لمهامه الجسيمة المتعلقة بطبيعة البحـــث التاريخي وعدم توافر المادة الكافية لتفسير كل الاحداث والوقائع ، وغياب جزء هـام من تفاصـــيلها .

---

(١) اليافي (عبد الكريم) - معالم فكرية في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ص٨

هكذا فان علم الاجتماع عامة ، وعلم الاجتماع السياسي خاصة ، يجد نفسه بحاجة الى ان يدلي بدلوه - هو ايضا - في الماضي ولكنه لا يستغني عن النتائج التي يتوصل لها علم التاريخ . انه يشعر بالحاح تلك الحاجة ، رغم شعوره بالحاح مشكلات الواقع الاجتماعي الراهن التي تنتظر منه الدراسة وتقديم الحلول ، اكثر من غيره .

ولكنه يبقى ، في نظرنا ، غير قادر على ادراك حقيقة الاشكاليات البنيوية للمجتمع الا عبر فهمه للتاريخ الاجتماعي ، اى فهم الماضي لفهم الحاضر . انها مهمة تبدو شاقة ولكنها ضرورية ، خاصة بالنسبة لعلم الاجتماع السياسي في الوطن العربي ، يدل عليها ذلك التخطيط الذى يشهده الفكر السياسي - الاجتماعي الذى يحتل مكانة مرموقة في العملية الاجتماعية من حيث دوره ، ولا مجال الحيلولة دونه . لانه يفقد ركيزته قريبا من حالة التأثير والفعل ، بحدود خطورتها اذا لم يكن مبنيا على اسس صحيحة في فهمه لابعاد الواقع الذى يهدف الى تغييره .

ان دراستنا تنطلق من ضرورة معاصرة ، الا وهي محاولة المشاركة في الجهد المبذول من قبل بعض الباحثين العرب في تحديد بنية المجتمع العربي الحديث وتفسير الظواهر والاحداث التي يشهدها ، بهدف تغييره وتطويره لتجاوز مشكلات التخلف والتجزئة .

وذلك لا يتم الا بالاستناد الى فهم وتحديد بناه التاريخية . بمعنى آخر فان تلك الضرورة تنبع من الحاجة الى تكوين لوحة متكاملة للتاريخ الاجتماعي الصحيح للامة العربية ، تساهم في بناء الثقافة العربية المعاصرة التي تشكل المستند الاساسي للثورة الاجتماعية .

ومن الواضح ان تلك المهمة لا يمكن ان تتحقق الا بالاستناد الى دراسة التراث العربي ، المكتوب بالاخص ، لانه يعتبر الشاهد على الغائب من تلك المرحلة الهامة من تاريخنا .

ولا بد للدراسة العلمية التي تنصب على التراث من خلال التركيز على امتداد الماضي في الحاضر ، ان تأخذ بعين الاعتبار اهمية التكامل بين الجوانب

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وخلفيتها الفكرية والايديولوجية . فالنظـــرة الشمولية لتلك الجوانب ، من حيث كونها مترابطة ، هي الضمانة لعدم الوقـــوع في المزالق الخطيرة . هذه النظرة تلح علينا منذ البداية بالاشارة الى وحــــدة التراث الفكرى العربي الاسلامي وحضور المسألة الاجتماعية منذ بداياته الاولى وحتى سقوط الدولة العباسية .

ولابد لنا من الاشارة الى ان الدراسات التراثية اصبحت سمة واضحة في النتاج الفكرى والثقافي العربي بشكل عام .

الا ان اختلاف المناهج لدى الباحثين واختلاف اختصاصاتهم اثر في نتائـــج تلك الدراسات مما ادى الى عدم تكاملها احيانا وتناقضها احيانا اخرى . كما ان اتساع التراث وتشعبه وصعوبة الحصول عليه ، اثر في تأخير الدراسات العلميــــة بهذا الشأن ، وندرتها . هكذا فان العودة الى دراسة التراث من الجانـــب الاجتماعي دراسة مختصة ، هي ايضا ضرورة تقتضيها المعطيات التاريخية الراهنة في المجتمع العربي .

وقد اشارت الدراسات الحديثة الى بعض تلك الجوانب الاجتماعية ، كما اختص بعضها الآخر بدراسة حركة اجتماعية معينة او مذهب فكرى او فرقة دينية او سياسية .. الخ . تلك الدراسات تقدم نتائج مهمة وتفسيرا دقيقا لجانب من جوانب الحياة الاجتماعية ، أو لجماعة من الجماعات المكونة للتركيب الاجتماعي . وبقدر اهميـــة تلك الدراسات المنصبة على الفعاليات الفردية او الجماعاتية ، بقدر مانرى انــــه من المهم ايضا بروز تلك الدراسات السوسيولوجية المختصة بجانب من جوانـــب الفعاليات الاجتماعية الكبرى في تطورها وسكونها ، واتصالها وانقطاعها ، ومدى تبلورها في البناء الاجتماعي العربي الاسلامي . من هنا فان دراسة الصراع - الاجتماعي - موضوع دراستنا هنا - كمفهوم سوسيولوجي حديث يربط بين الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والفكرية ، تكتسب اهمية كبيرة في تحديد ملامح البنية الاجتماعية للمجتمع العباسي كنموذج بارز ، وبالتالي توضيح العلاقـــة بين الدولة واجهزتها من ناحية وبين المعارضة المتمثلة في الحركات السياسيــــة والاجتماعية والاتجاهات الفكرية من ناحية اخرى .

نعود مرة اخرى للقول ان الدراسات التراثية المعاصرة (العربية) اهتمت بدراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع العربي الاسلامي ، واشارت الى الصراع الاجتماعي اشارات متفاوتة ، *

ان البحوث التراثية ، وبالتحديد تلك التي استندت الى الخلفية الاجتماعية الاقتصادية ، سعت الى ان تكون شاملة ومركزة ، فجاء بعضها في شكل مشاريع رائدة من حيث ظهورها وجرأتها العلمية ومنهجيتها وشموليتها .

ولكننا نرى ان التركيز على الجانب الفكري من التراث ، لدى البعض ، او الرؤى الاقليمية لدى البعض الآخر ، جعل دراسة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية محدودة فجاء تناول الصراع الاجتماعي عارضا اوجزئيا .

وقد تحول المنهج في بعض الدراسات التراثية الى نظرية مطلقة يبحث الباحث من خلاله عما يوافق القالب العام وليس بحثا في الواقع او النص كما هو ، (وهكذا تحولت مهمة الباحث من دراسة جدليات الواقع دراسة شمولية الى البحث عن النظرية في الواقع) (١) . تلك مسألة خطيرة في دراسة التراث ، اما المسألة الثانية ، وهي تعبير آخر عما سبق ، فتتمثل في الاستخدام الايديولوجي ، (حين يصبح تمثل التراث أقرب الى ان يكون اسقاطا لمطامحنا واهدافنا الحاضرة على الماضي) (٢) .

ولكن تلك الاخطاء كثيرا ما تشيع في الكتيبات والدراسات الكثيرة التي بدأت تحتل واجهات المكتبات ، فهي في غالبيتها سطحية ، لانها ليست موثقة ولا منتقصة ، فضلا عن كونها ليست منهجية . ورغم ذلك فهي على الاقل تمثل باعتقادنا ، ظاهرة ثقافية جديدة تنم على القناعة باهمية دراسة التاريخ الاجتماعي وضرورة استلهام الجوانب الايجابية من التراث .

---

* في هذا الاطار نذكر على سبيل المثال دراسات : التيزيني (طيب) ، الجابري (محمد عابد) ، مروة (حسين) ، عمارة (محمد) ، صادق سعد (أحمد) ، خليل (خليل أحمد) ، ...

(١) خوطبيل (سامي) - مجلة دراسات عربية - ص ١٧ - العدد ١٠ ، ١٩٨٠ .

(٢) حرب (علي) - مقال في كتاب : الماركسية والتراث العربي الاسلامي ص ١٣١

ان بحثنا يستند الى الدراسات التراثية الجادة التي كان لها الفضل في توجيه نظرنا الى العديد من المسائل المنهجية ، مضافا اليها بعض التصانيف التاريخية لمؤرخين عرب وأجانب ، اذ ابرزت الاحداث التاريخية والحركات الاجتماعية التي تبعثرت اخبارها بين دفات الكتب القديمة واختفت في دهاليز المكتبات الغربية والشرقية .

(ب) الدراسة الاجتماعية التاريخية ومسألة الموضوعية

نعتقد ان من المسائل المنهجية التي تلح علينا في البحث العلمي ، مسألة الموضوعية . خاصة حينما يكون مجال بحثنا متعلقا بأفكار ومواقف انسانية متبدلة متداورة ، واحداث ووقائع حدثت في الماضي ، فليس من السهل الامساك بها وتتبعها من جديد .

هكذا تبدو تلك المسألة ملحة منذ البداية ، في أي عمل يطمح الى كشف الحقيقة (حقيقة الواقع) فينهج نهجا علميا .

الموضوعية مقولة من المقولات المنهجية في العلوم الانسانية ، ورغم اختلاف المواقف في تحديد خطواتها ، فان الاجماع يتم حول اعتبارها احدى الضمانات الاساسية للوصول الى الحقائق . فهي بالتالي تحصين يلزم به الباحث نفسه منذ البداية بالتخلي قدر الامكان عن المصلحة الذاتية (فردا او جماعة) ، والنظر الى موضوع بحثه ومادته كما هو .

لكننا نعتقد ان الحديث عن (الموضوعية) كمفهوم مجرد اصبح دون معنى ، لان وراء كل عمل موقفا . كما ان التأكيد على الموضوعية باعتبارها مجرد ضمانة للعلوم الانسانية من المزالق ، اصبح يشكل عقدة يتصور ان سببها كمال العلوم الطبيعية . والحال ان البحوث الحديثة المتعلقة بمجال العلوم الطبيعية اثبتت من خلال الفيزياء الصغرية (الميكروفيزياء) ونظرية النسبية في العلوم ، ان تلك الدقة وذلك الكمال الذين نصف بهما قوانين العلوم الطبيعية ليسا سوى شيء نسبي لان مادتها وموضوعاتها خاضعة للتبدل والتغير بحثل حال موضوع

العلوم الانسانية (الانسان في شتى ابعاده) .

ويقول بلانشــي : " ان ما نظر اليه الفلاسفة على انه قوانين للعقل هو الآن مشروط بالقوانين الفيزيائية للعالم المحيط بنا ، اننا مجبرون لان نقبل بأننـا لو وجدنا في شروط غير التي تحيط بنا ، فان فكرنا سيتكيف بصورة اخرى)) (١) .

وقد تكون موضوعيين اكثر حينما نحدد اهدافنا ورغباتنا منذ البداية ، ولا حرج على الحقيقة حينما نجعل من التحيز لها هدفنا الاول في سلم اهدافنا :

١ـ التحيز للحقيقة العلمية :

وهو الشرط الاول لتحقق الموضوعية . فلا بد ان تكون دراستنا للاحداث والوقائع والظواهر كما هي وليس كما نفضل ان تكون او كما تخيلناها . لان الوقائع والظواهر تمتلك استقلاليتها ، فهي خارجة عن ارادة الباحث الا في حال كونـه يدخل في تكوينها . فلا بد ان يكون خارجا عن تأثيراتها المباشرة في حالـة دراستها وتحديدها ورصدها والارشاد الى أحكام حدوثها ، باستخدام المناهج التي اثبتت جدارتها العلمية .

٢ـ التحيز للمنفعة الانسانية :

وذلك في اختيار الموضوع وتحديد الاهداف وتوظيف النتائج . وطالما كانت المصالح الاجتماعية تتناقض بين طبقات المجتمع ، وتتحول تلك الحال الى صراع، فان الباحث يكون ملزما بالتحيز الى طرف من اطراف الصراع . ونحن هنا نتحيز الى مصلحة الاكثرية بما تمثله من جماهير العامة الفقيرة من الامة . وهكذا يكـون تحيزنا الى جانب الجماهير العربية امرا مبررا ، لانها بحاجة الى استعـادة ما تفتقده من حرية وكرامة ، بشكل يرد اعتبارها ويحقق فعالياتها الكامنة والمجمدة من جراء عوامل السيطرة الخارجية والتحكم الداخلي ، في حقوقها وممتلكاتها .

والتحيز هنا يتجســد في اختيار الموضوعات وتوظيف النتائج فحسب . ويمكن ان نلخص الصعوبات التي تعترض البحث الاجتماعي التاريخي في النقاط التالية :

١ـ ان كتابة التاريخ الاجتماعي مسؤولية جسيمة وخطيرة ، لانها مليئة بالمزالق ، ان كثيرا ما تأثرت كتابة التاريخ العربي بالتيارات السياسية والمؤثرات الدينية ودور القصاص ، مما جعلها عرضة للوضع والارتجال (٢) . فدخلت المادة الموضـوعة

---

(١) الدوري (عبد العزيز) ـ بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ـ ص٩
(٢) وقيدي (محمد) ـ ماهي الابستمولوجيا ـ ص١٦

من المادة الصحيحة وكثرت الشوائب . والباحث يكون مضطرا للرجوع الى تلك الاخبار التاريخية بما فيها من غث وسمين ، فيصبح ملزما بالحذر والانتباه الى اختلافات المؤرخين وكتاب السير .

٢- ان الدراسة الاجتماعية التاريخية تفترض من الباحث الرجوع ايضا الى البحث في النتاج الادبي والسياسي والفلسفي للمجتمع العربي . حيث تدل تلك الجوانب الى كثير من التفصيلات في الحياة الاجتماعية من حيث العادات والتقاليد والنظم والحالة المعاشية والعلاقات الاجتماعية ومستويات التقدم في العلم والاتصال ... الخ .

٣- ويجد الباحث صعوبة في استخدام المفاهيم السوسيولوجية الحديثة في بحث يختص بمجتمع قديم . حيث ان المفاهيم وليدة عصرها ، وهي خاضعة للتغيير حسب مقتضيات العلم في الشكل (المصطلح) وفي المحتوى (التعريف الاجرائي ومدلولاته) .

كما ان هناك اختلافا في دلالة تلك المفاهيم في العلوم الانسانية ، فمن المسائل الدقيقة التي ترهق الباحثين ، عدم قدرتهم على تعيين الحدود الفاصلة بين هذه العلوم ، وبين المفاهيم التي يستخدمها كل منها ، ولكننا لا نعتقد ان ذلك يمثل اشكالا كبيرا مالم يؤد بالباحث الى الخروج عن موضوع بحثه ومنهجه ، وطالما كان متنبها لمدلولات المفاهيم اثناء استخدامه لها .

٤- ان هناك امكانية دائمة لظهور حقائق جديدة حول المجتمع المدروس ، مما يستدعي بذل الجهد بالتحقق والتأكد والمقارنة .

٥- اكتفاء اكثر كتب التاريخ القديمة بالسرد والوصف ، وخلوها من الصفة التحليلية والنقدية (فان الباحث في طبيعة الثورة العباسية بين طيات كتب القدماء لا يرى تفسيرا للثورة ولا نقدا لواجهاتها وانما يجد جمعا لروايات عن شخصيات اشتركت فيها لحوادثها البارزة وتطوراتها سنة بعد اخرى وشهرا فشهرا .. فعلى الباحث في تاريخ الطبري ان يكون حذرا ودقيقا في قبول الروايات حيث ان بعض الاخباريين ومن تبعهم حاولوا نظرا لميولهم السياسية او الدينية او الاقليمية او القبلية ان يذكروا بعض الروايات او يضعوا بعض الاخبار عن حوادث الثورة لخدمة غرض من الاغراض الآنفة الذكر) (١) .

---

(١) عمر (فاروق) - العباسيون الاوائل - ص٥٢

وقد نبه ابن خلدون الى تلك المخاطر حينما حدد التاريخ بقوله :

« ان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الامم والاجيال وتشد اليه الركائب والرحال ... اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول والسوابق في القرون الاول ، تنمو فيها الاقوال ، وتضرب فيها الامثال ، وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال ... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ..)) (١) .

٦- ان مايعرقل البحث العلمي في التراث العربي ، وجود النظرة الاعتيادية الى انه في بعض الدراسات التي تجعل من احد العوامل المؤثرة أساسا ليس بحده مؤثر . وكذلك تلك النظرة الوثائقية التي تتعامل مع التراث على انه مجرد ثروة ثمينة توضع في المتاحف لاثبات عراقة التاريخ . يقول التيزيني :

((.. نجد انفسنا مدعوين الى ان نرفض ، بوعي مبدئي ، تلك المحاولات التي تنظر الى التراث والتاريخ الفكري العربي من حيث هما ركام من الوقائع الوثائقية غير الموحدة (وغير المتماسكة ضمن موقف انساني حضاري معين ، او من حيث هما مجموعة من الجزئيات المفردة التي لا يوجد بينها بنيان كلي مشترك)) (٢) .

على ان انتقادنا "للنزعة الوثائقية" لا يمس تلك المجهودات المبذولة من اجل تحقيق النصوص وتصنيفها حسب عصورها او حسب موضوعاتها ، فتلك مهمة علمية تسهم في تقريب المادة التراثية والتاريخية المبعثرة الى الباحث المختص * .

٧- وجود تصور يرى ان (التراث عبارة عن تراكم كمي لاشكال من الوعي منبعها الذات ، ومؤدى هذا التصور ان يكون التراث مجموعة من الظاهرات ليس بينها وحدة بنوية . فهي منفصمة .

ويعني ذلك نفي العلاقة بين الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي ، وبالتالي نفي التطور الموضوعي) (٣) .

---

(١) ابن خلدون - المقدمة - ص ٣ ، ٤

(٢) تيزيني (طيب) - من التراث الى الثورة - ص ٥٠٠ ، ط ٣ (وما بين القوسين مأخوذ من الطبعة الثانية ص ١٧٧) .

* في هذا المجال نشير على سبيل المثال الى المجهود الذي قام به محمد ماهر حمادة في سلسلة وثائق الاسلام (الوثائق السياسية والادارية للعصور الاموية والعباسية والايوبية) - مرجع معتمد في بحثنا هذا .

(٣) مروة (حسين) - دراسات في الاسلام - ص ٣٣ .

٨- تكمن الصعوبة الاخرى في منهج تناول بعض الاتجاهات السوسيولوجية حينما تحدد وحدات التحليل الاجتماعي او التاريخي . وذلك حينما تنطلق من دراسة الجزء ، سواء كان نظاما او بنية او واقعة اوظاهرة ، وتعميم النتائج على المجتمع المحلي او الانساني ، او تعميمها على التاريخ البشري .

تلك هي الاتجاهات الوظيفية التي تركز على الحقائق منفصلة ، وتقف عند المهمات الجزئية الموكولة لها ، فلا تهتم بالنظرة الكلية للمجتمع والتاريخ ، وهي كثيرا ماتجعل من الوقائع الهامشية والحالات الفردية قاعدة تنطلق منها لا سيما على انها مقولات وبديهيات .

ولكننا نعتقد ان عالم الاجتماع وعالم التاريخ يتعاملان في اعمالهما الكبيرة والصغيرة مع الحالات العامة .

يقول لينين في "الاحصاء والسوسيولوجيا" : "تعتبر الحقائق عندما تؤخذ بكليتها ، بعلاقاتها ، بأمورها المستعصية وقوة اثباتها المطلقة . وعندما تؤخذ الحقائق افراديا ، منفصلة عن كليتها ، منفصلة عن علاقاتها ، والوقائع طبيعية بالثغرات ، ومتناولة عشوائيا ، فان ذلك ليس الا لعبا بهلوانيا بالوقائع او شيئا أردأ من ذلك ... ويعتمد ذلك على عدم تناول الحقائق منفصلة ، بل على رؤيتها كجملة متكاملة للوقائع المتعلقة بالمسألة المطروحة ، دونما اى استثناء ، والا فالفرق بالشك لا محالة ، وبالشك المبرر تماما ، من ان الحقائق اختيرت وركبت اراديا ، بحيث انها تمثل الترابط الموضوعي ، والعلاقة المتبادلة الموضوعية للظواهر التاريخية في كليتها وحسب ، وانما تقوم على تبرير ذاتي مصطنع لشيء ، وربما كان قبيحا ايضا ، يحدث ذلك اكثر مما نفكر)) (١)

---

(١) دروبيشفا (ل . م) - السوسيولوجيا والتاريخ - ص ١١٤ .
ترجمة علي نصر دياب .

(ب) تحديد المجال والمفاهيم الاساسية للبحث :

لابد لنا من الاشارة ،في البدء ، الى ان دراستنا للصراع الاجتماعي بمظاهره الصدامية والسلمية ، قد تذهب بالبعض الى تصور اننا آثرنا بحث الصراع عن التآلف والتعاون فسجلنا بذلك ادانتنا لهذا العصر وانجازاته العلمية العظيمة .

كذلك ان البحث العلمي الهادف يستلزم التخصص ، فدراسة الصراع والتعاون مقترنين موضوع ينوء بأعبائه ويتسع بآفاقه ويطول بمنعرجاته بقدر اتساع آفاق المجتمع العباسي وبنيانه الحضاري .

ونحن نعتقد ان مظاهر التعاون والامن والتآلف الاجتماعي ،التي عرفت في المجتمع العباسي اشكالا وصورا متنوعة ،جديرة بأن تكون موضوع بحث خاص يبين الملامح الانسانية في الحضارة العربية . لذلك سوف نقتصر على دراسة اشكال الصراع الاجتماعي وتمثلاته في البناء الاجتماعي العباسي ، كما ذكرناه في الاسباب سابقا . ولابد لنا من تحديد مفهوم " الصراع الاجتماعي " كي يتماشى واشكالات المجتمع المدروس ويتطابق من حيث الدلالة مع ماكان يجري في البنية الاجتماعية والاقتصادية .

ان عبارة (الصراع الاجتماعي) تدل على وجود اطراف متقابلة ، تعيش حالة صراع . ولكن طبيعة ذلك الصراع تتعدد ومتفاوتة الدرجات فتتعدد الصيغ والاشكال . فهناك الصراع الهادئ السلمي ، وهناك الصراع الثائر الدموي . .

ولابد ان يكون للصراع اسبابه ،فبالنسبة للصراع الاجتماعي بشكل عام ، يكون سببه التناقض في المصالح الاجتماعية . بمعنى موجز يكون التناقض في الصراع على التملك والصراع على التسلط . وعندما يشتد التناقض بين مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية فان ذلك كثيرا مايظهر في العلاقات الاجتماعية ، كما يظهر بشكل جلي في منظومة الافكار ، وتتلو ذلك اشكال اخرى اكثر وضوحا تتجسد في مظاهر الصدام كالانتفاضات والثورات والحروب الاهلية والاغتيالات .

لكن ذلك التتالي ليس حتميا بالضرورة لان الجانب الفكري من تلك الفعاليات مرتبط اساسا بالفعاليات الاجتماعية الميدانية ، ولان الصراعات في مستوى البنية

الاجتماعية وفي مستوى منظومة الافكار ، ذات طابع جدلي .

اننا لا نستطيع الحديث عن الصراع الاجتماعي ، كمفهوم حديث - يرتبط اساسا بالصراعات الطبقية في المجتمع العباسي ، بمعزل عن الصراعات السياسية والفكرية والمذهبية و لا قوامية .

فالصراع الاجتماعي في المجتمع العباسي يتصف بالشمول والتعددية ، حينما يضم الصراعات (الطبقية والسياسية والفكرية والمذهبية والا قوامية والقبليـــــة والعشائرية ..) .

وقد اعتمدنا هذا المفهوم الواسع المرن للاسباب التالية :

١- ان الصراع الطبقي في المجتمع العباسي لم يأخذ قصب السبق في الصراعات الاجتماعية متنوعة . فلم يكن متجليا بشكل كاف الا في بعض الحركات الاجتماعية التي ظهرت في اواسط هذا العصر وأواخره . ولا نستطيع الحكم هنا بأن كل الحركات المناوئة للسلطة العباسية كانت تخوض صراعا طبقيا بالمعنى العلمـــي .

٢- ان الفرز الطبقي لم يكن جليا في تلك المرحلة التاريخية حيث يصعب الحديث عن طبقات اجتماعية واضحة المعالم والحدود ، خاصة في عصر تكثر فيه التقسيمات الفئوية الاخرى . غير اننا نستطيع تحديد الطبقات الكبرى بشكل عام حسب موقعها من عملية الانتاج ودورها التاريخي في المجتمع ، وذلك ماسيساعدنا عليه مفهــوم " الصراع الاجتماعي " الذى سيمكننا من خلال مرونته من الاطلاع على اشكال الصراع الدائرة في البنى الاجتماعية كافة .

٣- ان البنى الاقتصادية والاجتماعية لم تدرس حتى الآن دراسة علمية وافيـــة . ولم يصل الفكر الاجتماعي والاقتصادي العربي الى تحديد لتلك البنى يحظى بالاجماع . على ان هناك بعض المحاولات الفردية الجادة التي تجتهد لتحقيـق ذلك المطلب الملح ، وهي بحاجة الى المزيد من البحث والتخصص . ونحــــن نعتبر ان أحد مهماتنا في هذه الدراسة تدخل ضمن ذلك الاطار .

رغم كل ذلك فان المجتمع العباسي عرف على امتداده حالة التمايز والتفاوت الاجتماعي ، وكان ذلك التمايز واضحا بين طبقة الحكام الواسعة ومايحيط بها من فئات اجتماعية مختلفة الادوار ، وبين الطبقة الفقيرة بفئاتها المتنوعة . وكان هناك تمايز بين تلك الفئات المكونة للطبقة الواحدة .

ان دراسة الصراع الاجتماعي بوجه عام ، من خلال تلك المنطلقات المنهجية التي طارلنا تحديدها ، تؤدي الى فهم صحيح للتاريخ الاجتماعي والسياسي العربي ، فهم لا ينظر فيه الى الدولة بوصفها اجهزة تعمل بحرية ضمن كتلة سلبية من رعاياها . ولا تعتبر بعده كل اشكال المعارضة التي واجهت الدولة العباسية خروجا عن الواقع الموضوعي واستهتارا بمبادئ الامن وحقوق الخليفة . ودراسة الصراع على هذا الوجه تمكننا من التعرف على اشكال ردود فعل الفئات الاجتماعية المختلفة اثناء سعي الدولة المتواصل للتحكم فيها . كما تؤدي الى الكشف عن الوسائل التي تستخدمها الدولة لتحقيق رغباتها كالضغط والمناورة او الترغيب والترهيب .

كما تستطيع الدراسة السوسيولوجية للصراع كشف الطرق التي تستخدمها الفئات المعارضة اثناء مواجهة اجراءات الدولة في حالات الخطر حيث تحاول ان تضمن لنفسها قدرا معينا من حرية العمل والحركة ، وفي الحالات العادية في كيفية العمل في صفوف الجماهير وتنظيم صفوفها والدعاية لاهدافها ومبادئها .

تلك المسائل سنحاول تحديد معالمها من خلال دراستنا للحركات الاجتماعية في المجتمع العباسي ، وذلك بالاستناد الى تجليها العملي في الفعل الاجتماعي وردوده ، وفي تجليها النظري في الافكار والمعتقدات الدينية والمذهبية والسياسية والاجتماعية يضاف الى ذلك دراسة اشكال الصراع على السلطة والصراع الاقوامي الذى عبرت عنه الحركة الشعوبية بشكل صريح في فترة معينة .

ونريد ان تلاحظ هنا ، اننا فضلنا استعمال كلمة " الاقوامي " بدلا عن " القومي " ، حتى لا يقع الالتباس في مدلول " القومية " الحديث الذى اخذ بعدا اجتماعيا سياسيا لا يعتبر مفهومه عن نفس المفهوم الذى ساد في العصر العباسي ، " فالاقوامي " نسبة للانتماء الى " القوم " او الى ما يمكن ان يطلق عليه " العنصر " باعتباره كان يمثل انتماءات الشعوب .

وانطلاقا من تلك المعالم الاولى التي سوف توضح لنا اشكال الصراع التي عرفها المجتمع العباسي وابعادها ، فان ما يزيد الامر اهمية اننا سنكون بحاجة الى البحث في التركيب الاجتماعي والاقتصادي .

حتى ان نحدد المجالين الزماني والمكاني اللذين يحددان موضوع بحثنا .
فقد تحددنا دراسة الصراع الاجتماعي في المجتمع العباسي منذ تأسيس الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، اى حتى عام ٤٠٠ هـ .
تحددنا ذلك رغم ان معظم المؤرخين يتفقون على تقسيم المرحلة العباسية الى عصرين : الاول من ١٣٢ هـ الى ٢٣٢ هـ . والثاني من ٢٣٢ هـ الى ٦٥٦ هـ .
ان هذين العصرين يمثلان مرحلة تاريخية متكاملة . لكننا رأينا اختصار تلك الفترة الزمنية الطويلة دون ان يؤثر ذلك في طبيعة دراستنا الاجتماعية ، حيث سنقتصر على الفترة الممتدة منذ تأسيس الدولة وحتى اواخر القرن الرابع الهجري للاسباب التاليـة :

١- قد يكون من الضروري ان يشمل البحث بدايات الحركة العباسية وقيام ثورتها ضد الامويين . لكن الانطلاق من فترة تأسيس الدولة العباسية يغني عن دراسة الفترة السابقة .

٢- ان شمول الدراسة للعصرين - حسب التقسيم المتفق عليه لدى المؤرخين ، والذى هو معقول حسب التقسيم التاريخي - يستهلك جهدا كبيرا قد يدخلنا في اشكالات مويهة ، دون ان نستفيد كثيرا من المرحلة التي تلت القرن الرابع . لان تلك المرحلة شهدت حركة استقلالية كبيرة شملت انحاء الامبراطورية العباسية ، وعرفت تقهقرا واضحا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .
بمعنى آخر فان الدولة العباسية بدأت منذ القرن الرابع تشهد جيلها الاخير من عمرها : جيل ثورة العصبيات الصاعدة على العصبية العباسية التي اصابها الوهن والضعف نتيجة ركونها الى حياة الترف والبذخ . (وذلك حسب التعبير الخلدوني) .

٣- كما ان الاكتفاء بدراسة العصر العباسي الاول لا يفي بدراسة الصراع الاجتماعي في المجتمع العباسي عموما ، على امتداده التاريخي . فرغم ان المرحلة الاولى كانت غنية بالصراعات حيث شهدت تحولات عميقة في كل المجالات ، لكن تلك الاشكال من الصراع ، ارتبطت بالمرحلة اللاحقة التي شهدت نموا زاخرا في مجالات التقدم الحضاري ، وعرفت احداثا اجتماعية هامة وحركات عتيدة .

تلك الاحداث والظواهر في المرحلة الاولى من بواكير نشوء الدولة العباسية ، وفي المرحلة ماقبل الاخيرة ، يترابط بعضها البعض ترابطا جدليا تاريخيا . اى ان وقائعها متعاقبة ومتصلة في عملية اجتماعية واحدة وفي مرحلة تاريخية معينة رغم بعض الثغرات التي تبدو على السطح .

ولا نعتقد انه باستطاعتنا الاحاطة بالصراع الاجتماعي الذى شهدته كل انحاء الدولة العباسية ، وان كان متشابه الملامح ، فاتساع سلطانها وكثرة شعوبها وانقسام ثغورها ، جعلتنا نقتصر على دراسة الصراع في مركز الخلافة ومايحيط به من الاقطار . الا في الحالات التي تستدعي التركيز على الاطراف البعيدة لاهمية بعض الحركات او خطورتها .

الفصل الأول

البنى الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العباسي

مقدمـــة :

ان الحديث عن تلك البنى الاقتصادية والاجتماعية باعتبارها متكاملـــة ومتناظرة يبقى امرا نسبيا ، خاصة اذا كان الامر يتعلق بمجتمع كالمجتمع العباسي . فقد عرف هذا المجتمع تمازجا بشريا وحضاريا كبيرا اتضح من خلال اتساع رقعـــة الدولة ودخول عدة شعوب في هذه الرقعة عن طريق الفتوح .

ورغم ذلك الاتساع فان حركة المد والجزر ظلت تؤثر في احداث تغيرات في تلك البنى . كما ان التقلبات السياسية والتطورات الاقتصادية ساهمت في جعـــل تلك البنى متراوحة ومتغيرة .

تلك العوامل ، كونت في مجملها الاسباب المؤدية الى فقدان الوحدة المتينة بين البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية خلال تطورها التاريخي . ورغم ذلك فان المنهج العلمي يرشدنا الى طريقة دراسة الاحداث والعلاقات الاجتماعيـــة في علاقاتها بما يسود المجتمع من نظم اقتصادية واجتماعية وسياسية . تلك العلاقة الجدلية هي التي تقودنا الى ادراك عام لطبيعة تشكل البنى وتطوراتها وفعالياتها الاساسية في مرحلة تاريخية معينة .

لقد عرف المجتمع العباسي تطورا كبيرا في جميع المجالات ، فكان للاستقرار الذي شهدته الدولة في العقود الاولى من تأسيسها على ايدي العباســـيين وخلفائهم ، الاثر الكبير في توطيد دعائمها واتساع نفوذها . وقد انعكس ذلـــك الحزم في السياسة التي اتبعها الخلفاء الأوائل (ابو العباس ، ابو جعفر ، المهدي) في مواقفهم الصارمة لقاء ما كان يهدد الدولة الفتية .

ورغم ان تلك الفترة التي تنصب عليها ، دراستنا تبدو طويلة ومعقدة ، الا اننا نعتقد انه بالامكان ، في مجال البحث في الصراع الاجتماعي ، رصد تلك - الاحداث والتطورات ووضعها في انساق رئيسية لا تحد الاحداث الهامشـــية والظواهر المنفعلة من اهميتها .

ولكن تلك المهمة تغدو مهمة شاقة وطيئة بالمصاعب ، خاصة اذا عرفنا ان تسجيل تلك الاحداث والظواهر لم يخضع من قبل المؤرخين القدامى لتنميـــط

او تنصير او تعفص (بالمعنى العلمي) . فتكون الطريق كثيرة المزالق ، في حال انعدام جزء كبير من الحقائق حول بعض الاحداث والمواقف المناهضة للدولة ، وغيرها .

وللحديث عن بنية المجتمع العباسي من حيث انظمته المعيشية وتركيبه الاجتماعي ، لابد لنا من تقسيم البحث الى العناصر التالية :

١- البنية الاقتصادية :

آ- قوى الانتاج في المجتمع .

ب- علاقات الانتاج .

جـ - اشكال ملكية الارض .

٢- البنية الاجتماعية :

آ- مفهوم البنية الاجتماعية (أسس التركيب الاجتماعي)

ب - التقسيم الطبقي .

جـ - التقسيم القائم على النسب .

المبحث الاول :

البنية الاقتصـــادية

أ- قوى الانتاج في المجتمـــع :

اعتمدت الدولة العباسية منذ نشأتها على وضع نظام للجباية تشرف عن طريقه على كل الاراضي والرعايا التابعين لها . كما اعتمدت على زيادة مواردها المالية فاهتمت بالزراعة والتجارة والصناعة والحرف .

وكان هذا الاعتناء مرتبطا بازدياد مهامها وتضخم اجهزتها في الادارة والقضاء والشرطة والحسبة والجيـــــش . فقد تطلب ذلك تطوير وســـائل الانتاج وادواته ، وتوسيع مصادر بيت المال (الخزينة العامة) .

ونتيجة لطبيعة النظام الزراعي السائد قبل قيام الدولة العباسية تم توسيع وسائل الري ، وتنشيط نظم المسنّاة وانشاء الاسواق لتبادل المنتوجات الزراعية . كما تخصصت بعض الاسواق ببيع منتوجات الحرف فكان منها سوق العطارين ، وسوق القصابين ، وسوق الخرازين ، وسوق الرياحين ، وسوق الحدادين ، وسوق النجارين .. (١) . وكم يبدو لنا ذلك معبرا عن مستوى التطور الاقتصادى وتنظيم المدن وتقسيم العمل . وهذا ماسنراه في دراستنا للتركيب الاجتماعـــي ، لان ذلك يدل على ازدياد في اهمية الدور الذى احتلته بعض الفئات الجديدة .

وقد ظل شأن مدينة بغداد في الفترة الاولى حينما نشطت فيها صناعات متنوعة فكان فيها (عدد كبير من دور الصناعة ، وقيل انه كان بها أربعمائـــــة رحـــى مائية ، واربعة آلاف معمل لصنع الزجاج ، وثلاثون الف معمل لصنع الخزف(٢) .

ورغم اهمية تلك المعلومات التي تشير الى مستوى تطور الصناعة في الحاضـــرة العباسية ، فاننا نعتقد ان ذلك العدد الهائل من " المصانع " و" المعامـــل " لم يكن سوى نوعا من الورشات الصغيرة التي تدخل في اطار الحرفة .

---

(١) الخربوطلي (علي حسني) - العهد العباسي - ص٧٧

(٢) حسن (حسن ابراهيم) - تاريخ الاسلام (العصر العباسي الاول) - ج ٢ - ص ٣٠٩ ، ط ٧

ومما يدل على نشاط الحركة الاقتصادية بفضل تطور وسائل الانتاج ، ظهور دور المحتسب الذي تتلخص مهامه في (مراقبة المعاملات في البيع والشراء والاوزان والمكاييل ، ومنع التطفيف في الكيل والوزن او الغش في الصناعة .) (١) .

وشهدت الصناعة تطورا لا يقل عن تطور الحرف . فقد شمل تطورها مجالات الالبسة والمفروشات وانتشرت صناعة الورق والفخار والمعادن والصابون والعطور .

اما بالنسبة للتجارة فقد شهدت نموا كبيرا نظرا لاهمية الموقع الجغرافي الذي تمتاز به العراق ، وتشجيع الدولة لها ، فقد سيطرت تجارة الدولة العباسية على معظم الطرق والبحار ، وتعاملت مع البلاد القاصية في التبادل ،" وأخذت تجارة المسلمين المكان الاول في التجارة العالمية ، وكانت الاسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الاسعار للعالم في ذلك العصر (القرن الرابع الهجري) . في البضائع الغالية على الاقل " (٢) . ويذكر الدوري (٣) بعض الواردات التي كانت تصل الى مدن الخلافة في فترة القرنين الثالث والرابع للهجرة قائلا : (فالذهب والرقيق تجلب من شرق افريقيا ، والرقيق والفرو والدروع والسيوف من اوربا الشرقية ومن الترك ، وغراء السمك من الخزر ، والمسك من التبت ، والرصاص القلعي من ملقا ، والثياب الحريرية والكاغد من الصين ، والبسط والسجاد من أرمينية ، والتوابل والاحجار الكريمة والعقاقير والرماح والكافور من الهند ، والقطن والمنسوجات الحريرية والكاغد والفرو والرقيق من وراء النهر ، والسجاد والقلانس والفواكه والاشربة من ايران ، والديباج الرومي والثياب الكتانية والارز والبسط من الروم .) .

وقد تكونت طبقة من التجار بالبصرة ، تحكمت في تداول السلع وفي الاسعار . وكان نشاط الصيرفيين والبصريين مضرب المثل ، وكان التعامل بالمقايضة .

---

(١) الدوري (عبد العزيز) - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي - ص٦٩
(٢) ميتز (آدم) - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع - جـ ٢ ص ٣٧١
(٣) الدوري (عبد العزيز) - نفس المرجع - ص٦٩ ، وانظر كذلك : زيدان (جرجي) في : تاريخ التمدن الاسلامي ، جـ٥ ، ص٣٨ .

او النقد مباشرة ، وللتجار وكلاء ومراكز تجارية في مختلف جهات البلاد .

ويصنف الدوري (في كتابيه : " مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي " و تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري) اختصاص التجار والسماسرة فيقسمه الـــى :

المجهز : وهو الذي يستعين بالوكلاء ويجمع البضائع من الجهات المختلفة دون ان يغادر مركزه .

الركاض : وهو الكثير الاسفار المتعامل مع بلدان مختلفة بعد ان يدرس اوضاعها .

الخزان : وهو الذي يركز على نوع من التجارة يشبه الاحتكار . (١)

ويذكر (ميتز) اهمية التجارة في الحياة الاجتماعية السياسية فيقول :" ولما كان كل تاجر رجلا رحالا ، فان المعرفة بأثمان البضائع واسعار انواع النقود التي يعبل عددها عن الحصر كانت على ايدى المغامرين من المتعاطين المهرة في جميـــع البلاد ، تمتزج بالخبرة الواسعة بالدنيا والمعرفة بأخلاق الناس". (٢)

وقد ادى نشاط التجارة الى تنامي دور المؤسسات المالية والصيرفية ، حيث كـــان للصرافين دور هام في تسليف التجار والدولة في نفس الوقت . وبدأت الصــكوك وأوراق الدفع تحل محل التعامل النقدى والتبادل العيني المباشر . وقد توسع التعامل بـ" السفاتج" والصكوك فشمل البلاد الاخرى . كما كان لفئة الجهابذة اليهود دور هام في تدعيم اقتصاد الدولة من حيث تسليفها في الحالات العصيبة (٣) وهكذا ارتبطت فئات التجار بفئات رجال الاعمال فظهر المرابون الذين اثروا علـــى حساب الطبقات الفقيرة " وكانت المعاملات الضخمة تستدعي وسائل للدفع مأمونـة من الضياع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص . . . وكان للجهبذ مع وجود هذه الصكوك شأن كبير ، ويذكر لنا حتى القرن الثالث الهجرى ان احد العمـال كان يكتب الصكوك لجهبذه " (٤) . واصبحت البصرة عاصمة التجارة ، حيث ان ابن الفقيه الذى زارها حوالي سنة ٢٩٠ هـ يذكر لنا ان " ابعد الناس نجعة في الكسب بصرى وحميرى ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الاقصى ، فلابد ان يرى فيها

---

(١) الدوري (عبد العزيز) - نفس المرجع السابق - ص ٧٠
(٢) ميتز (آدم) - نفس المرجع - ج ٢ ص ٣٧
(٣) الدوري (عبد العزيز) تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص ١٦٤
(٤) ميتز (آدم) - نفس المرجع ج٢ ص ٣٧٩ / ٣٨٠

بحريا او حميريا " (١) .

وهكذا شكلت التجارة المورد الرئيسي للدولة ، الى جانب الضرائب المضروبة على الارض والسكان مقابل الاشراف والحماية. وقد ظهرت اهمية التجارة في الاقتصاد منذ بداية حركة الانفصال التي لحقت بعض الولايات التابعة للدولة . فقد لحق الضرر بالخلافة حينما استقلت اجزاء من تلك الامبراطورية الواسعة لتكون منها امارات ذات كيانات اقطاعية وراثية لا ترتبط بالمركز الا بالاعتراف الشكلي والدعوة للخليفة العباسي في المنابر ، ومن بين الدول المستقلة : المرابطون في المغرب الاقصى ، والاغالبة فالفاطميون في تونس ومصر وفي بلاد فارس ظهرت الدولة الطاهرية والدولة السامانية وغيرها . وقد حاول الخلفاء المتأخرون تشجيع التجارة حتى يزداد دخل الدولة فالقوا عن كاهل التجار بعض الضرائب التي كانت توضع عليهم ،مثال ذلك ان التجار الذين كانوا يتاجرون مع الصين ، رفع عنهم العشر الذى كان يؤخذ منهم كرسم دخول (٢) .

وكان الخلفاء العباسيون الاوائل ، كما يقول " هيد " قد "اعطوا للتجارة دفعا قويا ، سواء بصورة غير مباشرة عن طريق حياة الترف التي صبغوابها بلاطاتهم ، او بصورة مباشرة عن طريق شق الطرق ، وخاصة عندما اسسوا مدينة في مركز امبراطوريتهم بعد تفضيل دقيق واختيار ملائم لموقعها ، واصبحت تلك المدينة سوقا من الطراز الاول " (٣) .

وعند الحديث عن مصادر الثروة وقوى الانتاج لابد من التعرض للزراعة (الارض) باعتبارها تمثل مصدرا هاما في الحياة الاقتصادية ، لفترة طويلة ،فهي احدى القوى الهامة التي انبسطت عليها عملية النشاط الاجتماعي .

عملت الدولة العباسية على احياء الاراضي ومد الانهار والترع وشجعت الاعمال الزراعية (فقد رت الحكومة المركزية قناة تربط بغداد القائمة على دجلة والفرات ، وعنيت بالجزء السفلي من وادى مابين النهرين فكونت شبكة من قنوات الرى المتفرعة عن الفرات . وتحولت مناطق شاسعة من الارض البور الى أراضي زراعية ،

---

(١) ابن الفقيه _ البلدان ص١٥ ،(عن متيز : جـ٢ ص ٣٨١)
(٢) العش (يوسف) _ تاريخ عصر الخلافة العباسية _ ص ١١٤
(٣) W. HEYD : HisToir de Commerce du Levant au moyen age Tome I . p: 84

وازدهرت حدائق الفاكهة والكروم في الوديان السورية .) (١) .
وكانت طريقة المناوبة في الزراعة شائعة ، فكان الفلاح يزرع نصف الارض ويترك نصفها الثاني دون زرع لوقت آخر . او للرعي . اما ادوات الفلاح آنذاك فكانت المسحاة والكرك والمنجل والمحراث الذي تجره الثيران . يقول الدمشقي " فلا مندوحة للفلاح من البقـــــر " (٢) .
والى جانب الارض وجد الانسان الذي مثل جزءاً من قوى الانتاج ولكن ادوار الناس كانت تتفاوت بتفاوت مشاركتهم الفعلية في عملية الانتاج الاجتماعي . فقـــد تبوأ الفلاحون والعمال الاحرار منهم والعبيد هذا النشاط ، وظهر ذلك واضحا من خلال التفاوت في الدخل والملكية ، ومن خلال تقسيم العمل .

(ب) عـــــلاقات الانتاج :

بعد تحديدنا لقوى الانتاج ومسار الثروة بشكل عام ، لابد لنا من تحديد علاقات الانتاج التي سادت في المجتمع العباسي ، ويمكننا الاعتماد على تعريف لعلاقات الانتاج يتصف بالعمومية ويحظى بالقبول ، فهي " مجموعة العلاقات التي تتكون بين الناس خلال عملية انتاج الحياة المادية وذلك بواسطة المواد المادية التي تعمل على اشباع الحاجيات الاجتماعية (وسائل العمل والمواد الاستهلاكية). (٣)
لم تكن العلاقات المتنوعة متكافئة ، سواء منها علاقات التبادل والتوزيع والملكيـــة ، والسبب في ذلك كان يعود الى التفاوت في ملكية وسائل الانتاج الذي ازداد بانقضاء فترة الخلفاء الاوائل . ورغم تمتع بعض افراد " العامة " بنوع من الملكيـــة الخاصة للارض والماشية والحوانيت فانهم ظلوا تابعين للملاك الكبار واصحاب الاموال والوجهاء ممن تحكموا في انتاجهم الصغير .
وكان ذلك التناقض يؤدي في كثير من الاحيان الى صراع بين جماهيـــــر الفلاحين والعمال والحرفيين من ناحية وبين الاقطاعيين والتجار الكبار وممثلـــي السلطة من ناحية اخرى . كما كان الصراع بين الاقطاعيين والتجار ، او بيـــــن كليهما وبين الموظفين يعبر عن توطد الملكيات الكبيرة ، الخاضعة لاشراف الدولة ،

---

(١) سعد (احمد صادق) - تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي ص ١٥٥
(٢) الدوري (عبد العزيز) - تاريخ العراق الاقتصادي . ص ٤٩
(٣) الموسوعة الاقتصادية - تأليف مجموعة من الاقتصاديين - تعريب عادل عبد المهدي وحسن الهموندي - ص ٢٣٨

ونزوعها الى السيطرة الاقتصادية والسياسية . وظهر التذمر في صفوف العامة نتيجة لتصرفات الوزراء والولاة وعمال الخراج ، اذ ان هؤلاء تجاوزوا صلاحياتهم فراحوا يثقلون الفلاحين والرعيين بالضرائب الشيء الذي يتنافى مع المبادئ التي قامت الثورة العباسية من اجلها .

وكان الفلاحون يئنون تحت وطأة الضرائب وجور الحكام في العصر الاموي ، تدل على ذلك هذه الابيات التي ساغها الشاعر كعب الاشقرى :

كل يوم يحوى قتيبة* نهبا ويزيد الاموال مالا جديدا
باهلي قد البس التاج حتى شاب منه مفارق كن سودا
دوخ الصغد بالكتائب حتى ترك الصغد بالعراء قعودا **

فوليد يبكي لفقد ابيه وأب موجع يبكي الوليدا
كلما حل بلدة او أتاها تركت خيله بها أخدودا (١)

ولكن ذلك التذمر استمر في العصر العباسي ، وعبر عنه ابو العلاء المعرى بمعنى آخر في بيتين قالهما في القرن الرابع الهجرى :

مل المقام فكم اعاشر امة أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها (٢)

وكان ارتفاع الاسعار المستمر يزيد من حالة التشكي لدى العامة .
فكتب ابو العتاهية الى الخليفة يشكو له الغلاء ويستعطفه للفقراء والمحتاجين فقال :

من مبلغ عني الامام نصائحا متتالية
اني ارى الاسعار اسعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشيه (٣)

---

* قتيبة الباهلي : كان واليا امويا ، والباهلي : المضرى .

** وقد رواه البلاذرى في (فتوح البلدان ص٥٩٣) :
دوخ السغد بالقبائل حتى ترك السغد بالعراء قعودا
- والسغد او الصغد مكان ببلاد فارس .

(١) ابن الاثير - الكامل في التاريخ - ج٤ص١٢٨
(٢) المعرى (أبو العلاء) - اللزوميات - مجلد (١) ص٤٥
(٣) ضيف (شوقي) - العصر العباسي الاول - ص٢٥٢

(ونلاحظ في هذين البيتين اشارة واضحة الى فكرة التعاقد الاجتماعي) .

وبعد استعراضنا لردة فعل العامة تجاه اجراءات التعسف الاقتصادي والسياسي بشكل موجز ، لابد لنا من ابداء هاتين الملاحظتين حتى نستغني عليهما طوال دراستنا المتعلقة بالمجتمع العباسي .

١- ان تصرفات الخلفاء العباسيين كانت تتفاوت بين خليفة وآخر ، وبين وال وآخر، من حيث الالتزام بمصالح الشعب والدولة .

اذ كانت السيرة الذاتية المنطوية بالاجراءات العملية لبعضهم (المهدي مثلا) ، تدل على الاهتمام بزيادة الثروة وتحقيق العدل وحل المظالم (فهو منشأ ديوان المظالم). كما تميز الخليفة ، وخاصة في القرن الرابع ، بسياسة الاستهتار بالرعية ، وتبذير الاموال .

٢- ان طبيعة الاستغلال الاقتصادي والقمع السياسي لم تكن في العصر العباسي بنفس الوتيرة التي عرفتها العصر الاموي ، فقد ظهرت بعض الاجراءات التي حاولت التخفيف من حدة الاستغلال ، حيث لم يكن الاستغلال العبودي أو الاقطاعي بمثل ماكان عليه في ايران قبل تلك المرحلة ، كما كان لمبادئ "العدل" "والمساواة" "والامر بالمعروف والنهي عن المنكر" ، الاثر العميق في تخفيف حدة الاستغلال ونهوض الفئات المستغلة دفاعا عن مصالحها بفضل تلك المبادئ التي جاء بها الاسلام ، ورفعتها المعارضة ضد الامويين . فقد كانت بمثابة المستند الايديولوجي والسياسي لكثير من تحركات العامة . ونحن نرى ان العبد في المجتمع العربي - الاسلامي اصبح قادرا على التفكير في تغيير وضعه ووعي واقعه المتردي . وقد تجسد ذلك في الواقع حينما اصبح العبيد يطالبون بحقوقهم ويثورون في وجه السيف والظلم . ومهما تكن اشكال التعبير عن ذلك الوعي فان الباحث في الصراع الاجتماعي في المجتمع العربي - الاسلامي لابد له من ملاحظة ذلك التغيير في مسيرة التطور الاجتماعي .

وفي الحديث عن علاقات الانتاج في المجتمع العباسي يمكننا تمييز العلاقات التاليـة :

آ- علاقات الملكية :

عرفت الملكية اشكالا متعددة ، ولكن ملكية الدولة كانت تحتل المرتبة الاولى ، وقد تجسد ذلك في ملكية الارض والمصالح العامة ، ويقدم لنا "كتاب الخراج" لابي

يوسف و القاضي الحنفي ، فائدة جمة في التعرف على اشكال تلك الملكيات العقارية ، وهو بمثابة القانون التشريعي للدولة فيما يتعلق بالضرائب وماشابهها .

وعندما نقول بان ملكية الارض ورأس المال كانت مرتبطة بالتركيب الاجتماعي ومواقف الدولة فاننا سوف نوضح ذلك من خلال التفسيل في اشكال ملكية الارض .

ب ـ علاقات التبادل والتوزيع :

لم تكن تلك العلاقات متكافئة ، لان ذلك ارتبط بالعلاقات السابقة ، ولان التفاوت في امتلاك المال والعقار والاشياء كان كبيرا . ولم يكن تصريف الثروة عادلا لكثرة التصرفات الفردية وعدم الاشراف الكامل من قبل الدولة (في المرحلة المتأخرة خاصة) . ورغم تطور العلاقات التبادلية بين المدن العباسية والارياف بفضل ازدهار التجارة ونشاط عمال البريد واعوانهم في تأمين الطرق والاتصالات ، فان ذلك لم يكن بمستوى العلاقة المتكافئة في ظل الازدهار الحضارى الذى عرفه المجتمع، وهذا مايظهره تركز التجارة والصناعة في مدن البصرة وبغداد والكوفة ودمشق والمدينة . وقد ادت سيطرة التجار على السلع الى غلاء الاسعار ـ بداية بعصر المأمون ـ واحتكار الاسواق .

ومما يدل على سيطرة التجار ، لجوء الدولة ورجالاتها الى الجهابذة الذين كانوا يتعاملون بالربا مستفيدين من حاجة الآخرين الماسة الى المال .

ويروى ان احد الوزراء اقترض في القرن الرابع الهجرى عشرة آلاف دينار بربح ثلاثين دينارا عن كل مائة ، وذلك من يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران الجهبذين اليهوديين(١) .

ونعتقد ان ازدياد اهمية التجار في السيطرة على الاموال والسلع والاراضي ادى ، مع بدايات العصر الثاني ، الى ضعف اشراف الدولة على التبادل والتوزيع بين الولايات ، وبين الريف والمدن ، او بين المواطنين انفسهم ـ كما استفادت تلك الفئات التجارية ـ الرأسمالية الناشئة من حرية الحركة بفضل حصولها على اعفاء من بعض الضرائب . وادى اشراف الدولة على قطاعات الاقتصاد وضبط الدواوين ونهوض الحياة الثقافية والعلمية الى ازدياد مواردها المالية . فقد بلغ (دخل

---

(١) متيز (آدم) ـ نفس المرجع ـ جـ٢ ص ٣٩

المملكة في عهد الرشيد حسب تقدير ابن خلدون (٧٠١٥٠٠٠٠) دينارا (١)
واورد قدامة جعفر في " كتاب الخراج " إن قيمة ما حمل الى بيت المال في اواخر
القرن الثالث الهجري بلغت (٤٩٢٠٠٠٠) دينارا من الورق .
وكانت قيمة الدينار آنذاك تساوي خمسة عشر درهما ، فيكون المجموع :
(٧٣٨٠٠٠٠٠ درهـم) (٢) .
ويذكر الصابيء ان خزينة الدولة في عهد الرشيد زادت عن خزانة المنصور بعشرة
آلاف درهـم (٣) .
ولكن تلك الواردات لم تكن لتصرف في شؤون الدولة وخدماتها ، وفي مصالح
الناس ، وقد ظهر ذلك بشكل جلي في اواسط العصر العباسي حينما استفحل
الترف في طبقة الحكام وكثرت مصاريفهم ، اذ ارتفعت رسوم الخلافة في تلك الفترة ،
فبلغت في شهر واحد وفي مجال واحد من مجالات الصرف في مطابخ الاتراك الخاصة
والعامة ، قرابة اربعة واربعين الفا وسبعين دينارا . وبلغ انفاق الخليفة من
الجوائز والهبات في نفس الشهر واحدا وعشرين الف دينار (٤) .
والجداول التالية تبين مقادير السلع والاموال الواردة الى بيت المال بانواعها
ومصادرها . وذلك في فترات مختلفة من المرحلة المدروسة .

---

(١) أمين (احمد) - ضحى الاسلام - جـ ١ ص ١١١
(٢) حسن (حسن ابراهيم) - تاريخ الاسلام - جـ ٣ : ط ٦ - ص ٢٩٢
(٣) الصابيء (ابو الحسين هلال) - رسوم دار الخلافة - ص ٣
(٤) الصابيء - نفس المصدر - ص ٢٢ و ٢٥

بيان واردات بيت المال في فترة هارون الرشيد

اسم الاقليم	كمية الاموال الواردة بالدرهم	كمية الحلي الواردة
السوادا	اثمان الغلات ٨٠ر٧٨٠ر٠٠٠ ابواب المال ١٤ر٨٠٠ر٠٠٠	٢٠٠ حلة نجرانية، ٢٤٠ رطل طين للختم
كسكر	١١ر٦٠٠ر٠٠٠	
كور دجلة	٢٠ر٨٠٠ر٠٠٠	
حلوان	٤ر٨٠٠ر٠٠٠	
الاهواز	٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٠ر٠٠٠ رطل سكر
فارس	٢٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠ر٠٠٠ رطل ماء الزيت الاسود ٢٠٠ر٠٠٠ رطل رمان، ٥٠ر٠٠٠ رطل سفرجل ٣٠ر٠٠٠ قارورة ماء ورد، ١٥ر٠٠٠ رطل مانجو (مربي) ٥٠ر٠٠٠ رطل طين سيرافي، ٣، أكرار من الزبيب
كرمان	٤ر٢٠٠ر٠٠٠	٥٠٠ ثوب، ٢٠ر٠٠٠ رطل تمر، ١٠٠ رطل كمون
مكران	٤٠٠ر٠٠٠	
السند وما يليها	١١ر٥٠٠ر٠٠٠	مليون قفيز من الطعام، ٣ فيلة، ٢ر٠٠٠ ثوب، ٤ر٠٠٠ فوطة، ٣٠٠ منا من سائر اصناف العود الهندى، ٢ر٠٠٠ زوج نعال.
سجستان	٤ر٦٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ ثوب، ٢٠ر٠٠٠ رطل من الفانيد (الحلوى)
خراسان	٢٨ر٠٠٠ر٠٠٠	٢ر٠٠٠ نقرة فضة، ٤ر٠٠٠ برذون، ١ر٠٠٠ عبد ٢٧ر٠٠٠ ثوب، ٣٠٠ رطل اهليج.
جرجان	١٢ر٠٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ منا من الابريسم
قومس	١ر٥٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ نقرة فضة، ٧٠ كساء، ٤٠ر٠٠٠ رمانة
طبرستان الرويان دنباوند	٦ر٣٠٠ر٠٠٠	٦٠٠ قطعة فرش، ٢٠٠ كساء، ٥٠٠ ثوب ٣٠٠ منديل، ٦٠٠ جام (نوع من اللباس)
الري	١٢ر٠٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ رمانة، ١ر٠٠٠ رطل خوخ

* الجدول من تصميمنا ، والبيانات مأخوذة من كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ط١ ص ٢٨١ ، ٢٨٢

اسم الاقليم	كمية الاموال الواردة	كمية السلع الواردة
اصفهان	١١ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠ر٠٠٠ رطل عسل ، ٢٠ر٠٠٠ رطل شمع
همذان ودستبي	١١ر٨٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ من من الرب والرمانين ، ٢٠ر٠٠٠ رطل عسل
البصرة والكوفة	٢٠ر٧٠٠ر٠٠٠	-
شهرزور وما يليها	٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠	-
الموصل	٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠ر٠٠٠ رطل عسل ابيض
الجزيرة الديارات الفرات	٣٤ر٠٠٠ر٠٠٠	-
اذربيجان	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	
موقان وكرج	٣٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ عبد ، ١٢ زق عسل
جيلان	-	١ر٠٠٠ بزاة ، ٢٠ كساء
ارمينية	١٣ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠ بساط، ٥٨٠ قطعة من الرقم ، ١٠ر٠٠٠ رطل مالح منـ ١٠ر٠٠٠ رطل طريخ ، ٣٠ بازيا ، ٢٠٠ بغل .
قنسرين والعواصم	٤٩٠ر٠٠٠ دينار	-
حمص	٣٢٠ر٠٠٠ =	١ر٠٠٠ راحلة زبيب
دمشق	٤٢٠ر٠٠٠ =	-
الاردن	٩٦ر٠٠٠ =	-
فلسطين	٣٢٠ر٠٠٠ =	٣٠٠ رطل زبيب
مصر	١ر٩٢٠ر٠٠٠ =	-
برقة	١ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم	-
افريقية	١٣ر٠٠٠ر٠٠٠ =	١٢٠ بساطا
اليمن	٧٨٠ر٠٠٠ دينار	(سوى الثياب)
مكة والمدينة	٣٠٠ر٠٠٠ دينار	
المجموع بالدرهم	٤٧٩ر٧٨٢ر٠٠٠ درهم	

بيان مفصل لجباية الخراج في عهد المأمون *

اسم الاقليم	مقدار الجباية بالدرهم	كمية الغلال الواردة
السواد	٢٧ر٨٠٠ر٠٠٠	حلل نجرانية ٢٠٠ حلة، طين الختم ٢٤٠ رطلا
كسكر	١١ر٦٠٠ر٠٠٠	—
كور دجلة	٢٠ر١٠٠ر٠٠٠	—
حلوان	٤ر٨٠٠ر٠٠٠	—
الاهواز	٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٠ر٠٠٠ رطل سكر
فارس	٢٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٠ر٠٠٠ قارورة ماء ورد، ٢٠ر٠٠٠ قارورة زبيب اسـ
كرمان	٤ر٢٠٠ر٠٠٠	٥٠٠ ثوب يماني، ٢٠ر٠٠٠ رطل تمر
مكران	٤٠٠ر٠٠٠	—
السند	١١ر٥٠٠ر٠٠٠	١٥٠ رطل عود هندي
سجستان	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ ثوب، ٢٠ رطل فانيد
خراسان	٢٨ر٠٠٠ر٠٠٠	٢ر٠٠٠ نقرة فضة، ٤ر٠٠٠ برذون، ١ر٠٠٠ عبد، ٢٠ر٠٠٠ ثوب متاع، ٣٠ر٠٠٠ اهليلج
جرجان	١٢ر٠٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١ر٥٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ نقرة فضة
طبرستان، الرويان، دوماند	٦ر٣٠٠ر٠٠٠	٦٠٠ قطعة فراش، ٢٠٠ كساء، ٥٠٠ ثوب، ٣٠٠ منديل، ٣٠٠ جام
الري	١٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠ر٠٠٠ رطل عسل
همذان	١١ر٣٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ رطل رب الرمانين، ١٢ر٠٠٠ رطل عسل
البصرة والكوفة	١٠ر٧٠٠ر٠٠٠	—
ماسبذان والريان	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	—
شهرزور	٦ر٧٠٠ر٠٠٠	—
الموصل	٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠ر٠٠٠ رطل عسل
اذربيجان	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	—
الجزيرة واعمال الفرات	٣٤ر٠٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ عبد، ١٢ر٠٠٠ زق عسل، ١٠ بزاة، ٢٠ كساء.

* نقله جرجي زيدان في تاريخ التمدن ــ جـ٢ طـ٣ ١٩٠٣ – ص٥٢، ٥٤، ٥٥، عن مقدمة ابن خلدون – ونحن نعرضه بشيء من التصرف للتسهيل .

الاقليم	مقدار الجباية بالدرهم	كميات السلع
ارمينية	١٣ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠ درهم من القسط المحفور، ٥٣٠ رطلا من الرقم ١٠ر٠٠٠ رطل من المسايح، ١٠ر٠٠٠ رطل من الصولج ٢٠٠ بغل ، ٣٠ مهرا
برقة	١ر٠٠٠ر٠٠٠	-
افريقية	١٣ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٠ بساطا
المجموع الكلي	٣١٨ر٦٠٠ر٠٠٠ درهم	
	من الدنانير	
قنسرين	٤٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ حمل زيت
دمشق	٤٢٠ر٠٠٠	-
الاردن	٩٧ر٠٠٠	-
فلسطين	٣١٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠ رطل زبيب
مصر	٢ر٩٢٠ر٠٠٠	
اليمن	٣٧٠ر٠٠٠	
الحجاز	٣٠٠ر٠٠٠	
المجموع الكلي	٤ر٨١٧ر٠٠٠ دينارا	= ٧٢ر٢٥٥ر٠٠٠ درهما والدينار تقديره آنذاك (١٥) درهما
المجموع بالدرهم	٧٢ر٢٥٥ر٠٠٠	حاصل ضرب المجموع السابق في قيمة الدينار وهي (١٥)
يضاف اليه جباية الاقاليم الشرقية	٣١٨ر٦٠٠ر٠٠٠	
المبلغ الاجمالي بالدرهم	٣٩٠ر٨٥٥ر٠٠٠	

ملاحظات : - خراج اقاليم المشرق (شرقي الخلافة) كان يقدر بالدراهم

- خراج اقاليم المغرب كان يقدر بالدنانير (ماعدا برقة وافريقية)

- ورد الجزء الكبير من هذه البيانات في كتاب الجهشياري "الوزراء والكتاب" .

هكذا فقد بلغت واردات الدولة العباسية من الاموال في مختلف الفترات المتعلقة ببحثنا كما يلي :

في أيام الرشيد بلغت : ٤٧٩٫٧٨٢٫٠٠٠ درهـــم

في ايام المأمون (٢٠٤٫٠٠٩–٢١٠ هـ) بلغت = ٣٩٠٫٨٥٥٫٠٠٠ درهم .

في ايام المعتصم (سنة ٢٢٥ هـ) بلغت = ٣٨٨٫٢٩١٫٣٥٠ درهم .

في اواســط القرن الثالث (سنة ٢٥٠ هـ) بلغت = ٢٦٩٫٢٦٥٫٣٤٠ درهم

- وبالقاء نظرة مقارنة سريعة على هذه الارقام نلاحظ

١- ان معدل واردات الدولة العباسية من المال كبير جدا وان هـــذه الميزانيات ضخمة اذا ما أضيفت لها قيمة الواردات من المتاع والسلع .

٢- ان معدل ميزانية الدولة بدأ بالانخفاض بعد ان بلغ حده الاعلى في فترة حكم الرشيد . وان هذا الانخفاض بدأ يتضح مع بدايات النصف الثاني من القرن الثالث . ولا شك ان التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بنية الدولة والمجتمع اثرت في تحديد ذلك التدهـــور الاقتصـــادي .

مقادير الجباية في أواخر القرن الثالـــــــــث

(عينـــــا وورقـــــا)

اسم الاقليــــم	مقــــدار الجباية	اسم الاقليــــم	مقــــدار الجبايــة
الســــواد	۱۳۰ر۰۰۰ر۰۰۰ درهم	مـــاء البصـــرة	۴ر۸۰۰ر۰۰۰
الاســـواز	۲۳ر۰۰۰ر۰۰۰ =	همــــذان	۱ر۷۰۰ر۰۰۰
ـــار س	۲۴ر۰۰۰ر۰۰۰ =	أ ر ز ن	۴ر۲۰۰ر۰۰۰
كـــزمـــان	۶ر۰۰۰ر۰۰۰ =	مقاطعة طـــرون	۱۰۰ر۰۰۰
مكـــران	۱ر۰۰۰ر۰۰۰	ارمينيــــة	۴ر۰۰۰ر۰۰۰
اصـــبهان	۱۰ر۵۰۰ر۰۰۰	آمـــــد	۲ر۰۰۰ر۰۰۰
ماســـبذان	۱ر۲۰۰ر۰۰۰		
الــــرى	۲۰ر۰۸۰ر۰۰۰	ديـــار مضـــر	۶ر۰۰۰ر۰۰۰
قزوين وزنجـــان	۱ر۸۲۰ر۰۰۰	اعمال طريق الفرات	۲ر۹۰۰ر۰۰۰
قومـــــس	۱ر۱۵۰ر۰۰۰	قنســرين والعواصم	۳۶۰ر۰۰۰ دينار
جرجــــان	۴ر۰۰۰ر۰۰۰	جند حمـــــص	۲۱۸ر۰۰۰ =
طبرستـــان	۴ر۲۸۰ر۰۰۰	جند دمشـــــق	۱۱۰ر۰۰۰ =
تكريت والطيرهان			
والسن والبوازيج	۰ر۹۰۰ر۰۰۰	جند الاردن	۱۰۹ر۰۰۰ =
شــهر ز و ر	۲ر۷۵۰ر۰۰۰	جند فلسطين	۲۵۹ر۰۰۰ =
كور المـــوصل	۶ر۳۰۰ر۰۰۰	مصر والاسكندرية	۲ر۵۰۰ر۰۰۰ = *
قــردى وبزبــدى	۳ر۲۰۰ر۰۰۰	الحرميــــن	۱۰۰ر۰۰۰ =
ديار ربيعــــة	۹ر۶۳۵ر۰۰۰	اليمـــــن	۶۰۰ر۰۰۰ =
ســجســتــان	۱ر۰۰۰ر۰۰۰	اليمامة والبحرين	۵۱۰ر۰۰۰ =
خراســـــان	۳۷ر۰۰۰ر۰۰۰	عمـــــان	۳۰۰ر۰۰۰ =
حلــــوان	۹۰۰ر۰۰۰ر۰۰۰	مهرجان قـذف	۱ر۱۰۰ر۰۰۰ درهم
ماء الكوفــــة	۵ر۰۰۰ر۰۰۰	الايغاريــــن	۳ر۸۰۰ر۰۰۰ =
اذربيجـــــان	۴ر۵۰۰ر۰۰۰	قم وقاشـــان	۳ر۰۰۰ر۰۰۰ =

* الارجـــح ان الرقم يشمل مصر وبرقة وافريقية ، لان مصر هي بوابة المغرب ولان الرقم كبير جدا بالمقارنة مع الاقاليم الاخرى رغم اقرارنا بوفرة انتاج مصر.

خراج ضياع الخلافة العباسية في العراق في اوائل القرن الرابع (٣٠٦ هـ)

الضـــياع الســـــــــلطانية	الاسم المتعارف عليه	مقـــدار الخـــراج الســـنوي
- ضياع الخليفة نفســـــــــه	الخاصــــة	٥١٦ر٤٤٧ دينـــــارا
- الضياع الواقعة على ضفاف الفرات	الفراتيــــة	٦١٧ر١٢٦ =
- ضياع عائلة الخليفة واقربائـــــه	العباســـية	١٤٤ر٧٦٠ =
- ضياع اضيفت حديـــــــــثا .	المســـتحدثة	٢٨٩ر٠٣١ =
		المرجع المعتمد في جمع البيانات (١)

ويذكر المقدسي ان خراج العراق توزع في خزانة عضد الدولة (فترة السيطرة البويهية) ، كما يلي :

الســـواد	ضـــوال :	٠٠٠ر٠٧٨ر٨٦ درهـــم +
	ابواب مال اخرى :	٠٠٠ر٠٠٨ر٠٤٠ درهـــم +
خراج دجلـــة		٠٠٠ر٠٠٥ر٠٨ درهـــم
وبالجمع يكون خراج العراق في اواسط القرن الرابع قد بلـــــغ :		٠٠٠ر٢٨٨ر٩٩ درهـــم

(٢)

---

(١) الدوري (عبد العزيز) - تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري - ص ٢٦
(عن جريدة علي بن عيسى) .

(٢) نفس المرجع - ص - ١٩٥

(جـ) أشكال ملكيــــــــــــة الأرض :

اكتسبت الارض مكانة كبيرة في المجتمع العربي الاسلامي ، اذ كانت تمثل الوسيلة الرئيسية للعيش من خلال نشاط الناس المنصب على الزراعة والرعي بدرجة اساسية. وكان هنالك مشكلة في المجتمع العباسي ، تأتي من اتساع رقعة الدولة وما يتبعــه من استحالة تحقيق السيطرة على كل الاطراف وتكاثر حركات التمرد على الدولة مما تطلب جهازا اداريا كبيرا واستدعى تخطيطا دقيقا لضمان سيطرة الدولة وقيامهــا بشؤون رعاياها .

ولكن ذلك الاتساع كان ايجابيا من حيث مردود الخيرات الواسع الآتي مــن الاراضي الخراجية والعشرية الى مركز الخلافة . فكانت دواوين الخراج المتعاقبة تقوم بمسح واسع للاراضي التابعة ، وتزخر كتب التاريخ والادب المتعلقة بتلــك المرحلة بالاخبار والبيانات التي تصور ازدهار الحياة الاقتصادية بسبب وفرة الانتاج الوارد على خزينة الدولة ، وخاصة في اواسط العصر العباسي .

ولعل اكثر الناس يذكرون تلك العبارة الشهيرة التي كان هارون الرشيد يرددها حينما ينظر الى السحابة المارة قائلا : " اذهبي حيث شئت يأتني خراجك" (١)

ولدراسة اشكال ملكية الارض في الفترة المدروسة لابد لنا من الرجوع قليــلا الى الوراء لنبحث في تلك الاشكال التي تطورت فيما بعد .

لم يشجع الخليفة الراشدي العادل عمر بن الخطاب على توزيع الاراضي ، بــل فضل ابقاءها ملكية عامة بين المسلمين ، الا فيما ندر . يقول البلاذري : " لمــا افتتح عمر السواد قالوا له : اقسمه بيننا فاننا فتحناه عنوة بسيوفنا ، فأبى وقال : فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ، واخاف ان قسمته ان تتفاسدوا بينكم " (٢) .

ويقول ابو يوسف :" افتتح عمر السواد والاهواز ، فأشار عليه المسلمون ان يقســم السواد واهل الاهواز وماافتتح من المدن . فقال لهم : فما يكون لمن جاء مــن المسلمين ؟ فترك الارض واهلها ، وضرب عليهم الجزية ، واخذ الخراج من الارض" (٣)

---

(١) حسن (حسن ابراهيم) ـ تاريخ الاسلام ـ جـ٢ ص٣٠٢

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ، ص٣٧٤

(٣) ابو يوسف ـ كتاب الخراج . ص٣٣ ط(١٣٤٦ هـ)-

ولكن تلك الحال لم تبق ثابتة . فقد اطلق عثمان بن عفان الخليفة الثالث (الراشدى) العنان لتملك الاراضي ، وأقطع عددا عن " الصحابة " "والتابعين" والولاة .

اما في العصر الاموى الذى استمرت فيه الفتوحات ، فقد توسع بنو امية في توزيع الاراضي على مشاهير العرب ومؤيدى سياستهم . وقد وجد العرب ، خلال الفتوح ، اشكالا مختلفة للملكية ، (فهناك ارض التاج او الدولة ، واراضي يملكها اشرافها رقبة وانتفاعا ، واراضي المشتركات القروية ، واخرى موقوفة على الاديرة ..) (١) ولكن الامويين غيروا من جوهر العلاقة القائمة بين الفلاح والمالك ، اذ بدأت مرحلة جديدة من تحرير العبيد والفلاحين بعد ان كانوا - في بلاد فارس .. مرتبطين بالارض ، مجبرين على القيام بأعمال السخرة ، وتحولت اراضي الوقف الى (صوافي) يشرف عليها بيت المال ، ويتصرف الخليفة في تلك الاراضي كما يناسبه ، كما اصبح الفلاح في بلاد فارس مسؤولا بصورة مباشرة عن ضرائبه في الاراضي العائدة الى أشراف الدولة (٢) . وقد لقيت الاجراءات القاسية التي اتخذها الولاة الامويون - في بلاد فارس والعراق بحق الفلاحين واراضيهم تمدنتا شديدا من قبل هؤلاء نتيجة ارهاقهم بالضرائب والاستبداد بملكية الارض وتسليط الدهاقنة عليهم ، وما خروج الموالي ، مدعمين بالفقهاء ، مع احمد الخارجيين على الحجاج بن يوسف (٣) الا دليلا على المضض من ذلك الاستبداد . ويرى بعض المحدثين ان اجراءات الحجاج كانت ناتجة عن ازدحام البصرة بالسكان وخلو السواد من المزارعين الذين اجتذبتهم المدن ، ولكن بن عبد ربه يوضح تلك الاسباب قائلا ." وكان اكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه ، الفقهاء والمقاتلة والموالي من اهل البصرة . فلما علم انهم الجمهور الاكبر والسواد الاعظم ،أحب ان يسقط ديوانهم ، ويفرق جماعاتهم حتى لا يتألفوا ، ولا يتعاقدوا ، فأقبل على الموالي وقال : انتم علوج وعجم ، وقراكم اولى بكم ، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب" (٤)

---

(١) سعد (احمد صادق) - تاريخ مصر الاجتماعي - الاقتصادى) ص١٤٦

(٢) الدورى (عبد العزيز) - مقدمة في تاريخ العراق الاقتصادى - ص٢٣

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد - جـ ٣ ، ص٣١٦ (ويذكران الخارج هو ابن الاشعث)

(٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد - جـ٣ ص ٣١٦

ويوافقه المبرد في " الكامل " (١) على تلك الرواية .

اما العباسيون فانهم اعتنوا بشؤون الزراع فعملوا على تخفيض الضرائب عليهم في البداية ، فألغى ابو جعفر المنصور الضريبة النقدية على الحنطة والشوفان — واحل محلها نظام " المقاسمة " وهو دفع الضرائب نوعا (عينا) من نسبة المحصول ، ولكن ذلك النظام لم يتعمم الا في خلافة المهدي .

واذا كانت الارض ممتازة الخصب ولا تحتاج الى عمل كثير ، الزم المزارع بتقديم نصف غلة ارضه ، اما اذا صعب عليه اروائها وزراعتها دفع الثلث او الربع او الخمس تبعا لحالة الارض ، اما الكروم والنخيل فكانت غلتها تقوم بالمال (٢) ، وهكذا فان العباسيين نقلوا الخراج من المساحة الى المقاسمة ، وذلك عندما حصروه في الارض المزروعة خلافا لاسلافهم الذين كانوا يقتضون الخراج عن الارض المزروعة وغير المزروعة . (٣) .

وبلغ الاهتمام بالارض درجة متقدمة بدأوا يبحثون فيها عن قوانين تضبط واجبات الدولة والرعايا التابعين لها ، فكان " كتاب الخراج " لابي يوسف " ، يمثل استجابة لرغبة الخليفة (هارون الرشيد) ، وفيه يقول : " ان امير المؤمنين ايده الله سألني ان اضع له كتابا جامعا يعمل به في جباية الخراج ، والعشور ، والصدقات ، والجوالي * ... وانما اراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم . " (٤) .

وفي نفس الفترة تقريبا ظهر " كتاب الكسب " من تصنيف محمد بن الحسن الشيباني ، يبين فيه موقف الشريعة الاسلامية من الكسب وطرقه وقوانينه ، وفي هذا المصنف اشارات هامة تدل على اهتمام المجتمع العباسي بالتكسب والارتزاق ، كما يدل على ما كان يدور بين المثقفين بمختلف اتجاهاتهم من مناظرات تعبر على مستوى راق من التطور ، فلننظر الى العبارات التالية التي استشهد بها في كتابه :
" قال عمر : يامعشر القراء ارفعوا رؤوسكم واكتسبوا لانفسكم " وقوله ان ابا بكر كان بزازا وان عمر كان يعمل الادم وعثمان كان تاجرا وان عليا كان يؤجر نفسه ، (وهذا في عصر الخلفاء الراشدين) .

---

(١) المبرد — الكامل — جـ٢ ص ٩٦ ، ويذكر انه (عبد الرحمان)
(٢) حسن (حسن ابراهيم) — نفس المرجع — جـ٢ ص ٣٠
(٣) زيدان (جرجي) — تاريخ التمدن الاسلامي — جـ٥ ص ٦٩ — ط ١٩٣١
* الجوالي : جمع جالية واصلها الجماعة — ثم اصبحت تطلق على الجزية كناية .
(٤) ابو يوسف — كتاب الخراج — ص ٣

ويقول :" فكذا امر الرزق ليعلم من يزعم ان حقيقة التوكل في ترك الكسب، فهو مخالف للشريعة." ، وحول اختلاف الفقهاء في ان صفة الفقر اعلى أم صفة الغنى يقول :

" فالمذهب عندنا (الحنفي) ان صفة الفقر اعلى .. ومازاد على ما لابد منه يحاسب المرء عليه ، ولا يحاسب احد على الفقر." (١) . يمثل ظهور تلك الكتب الاقتصادية تحسسا عميقا لاهمية التشريع الاقتصادى بفعل ازدهار الاقتصاد العباسي وتعقد معاملاته . ومايهمنا في هذا المجال الذى نحن بصدده ، الصورة التي يقدمها لنا " كتاب الخراج" حول وضعية الارض وكيفية دفع الضرائب . ويمكننا بالاستناد الى هذه المصادر الهامة تصنيف الاراضي حسب الضرائب المجبية عليها كمايلي :

(١) الاراضي الخراجية : وهي مافتتح عنوة مثل السواد وغيره (الخراج ص ٧١)

آ- اراضي الاعاجم التي ظهرعليها الاسلام وتركت في ايدى اهلها (ص ٨٢)
ب- اراضي افتتحت بالصلح وبقي اهلها على ديانتهم .
جـ- الصوافي - وهي الاراضي التي كانت لكسرى (في بلاد فارس)اولاهله اولرجل قتل في الحرب اولحق بارض الحرب او مغيض ماء او دير بريد (ص ٦٨) .

(٢) الاراضي العشرية : وهي كل ارض اسلم عليها اهلها وكذلك ارض الحج وارض العرب (ص ٧١) .

آ- كل ارض اسلم اهلها ، وارض العرب ،فهي لهم . (ص ٧٠) .
ب - الاراضي المستولى عليها والمقسمة بين الذين غنموها . (ص ٨٢) .
جـ - الاراضي الموات التي استصلحت . (ص ٧٧) .
د - الصوافي المقسمة بين بعض القادة .
هـ - القطائع التي (يتصدق) بها الخلفاء . (ص ٦٩) .

ورغم ان العباسيين ساروا حسب بعض تلك القواعد في تصنيف الاراضي وضرائبها ، الا ان تجاوزات الخلفاء وموظفيهم خرجت عن تطبيقها . حيث يقترح ابو يوسف في آخر كتابه (على الرشيد) ان يراقب العمال في طرق الجباية ويبين له

---

(١) الشيباني - كتاب الكسب - ص ٤١ ، ٤٣ ، ٤٨

فوائد ذلك في رفع المظالم واستتباب الامن (١).

اما الاشكال الرئيسية لملكية الارض فيمكننا تلخيصها فيما يلي :

(١) اراضي الاقطاع : وتشمل الاراضي الممنوحة للاشخاص والاسر ، وغالبا ماتكون من ملكية الدولة كالصوافي . كما تشمل الاراضي التي استولت عليها الدولة قديما ولم توزعها على " الفاتحين" وقد ظل النوع الاول موجودا حتى اواخر العصر العباسي . وهذه القطائع تدخل في نظام الخراج العشري.

(٢) الاراضي المستصلحة : وتشمل الاراضي المهملة التي تم احياؤها بعد ان كانت مواتا ، ويحق للذي احياها ان يصبح مالكها ،فمن احياها او احيى منها شيئا فهي له ، وله ان يقطع ذلك من اراد وله ان يؤاجرها او يزارعها او يزرعها . واذا كانت تلك الاراضي المستصلحة في ارض عشرية دفع عليها العشر وان كانت في ارض خراجية ادى عليها الخراج . (٢) .

(٣) اراضي الشراء : كان لنشاط التجارة ونمو اموال التجار الاثر في تغير طبيعة ملكية الارض ،اذا كان بامكان اولئك المتنفذين من رجال الدولة ، واشباههم من التجار ، الحق في اشتراء الارض ،لان اراضيهم لا تخضع لنفس الضرائب التي تخضع لها اراضي الفلاحين الصغار . ولم تكن تلك الحالة مستقرة بفعل حركة التجار الدائمة وتنقل اموالهم ورغبتهم في الربح السريع .

(٤) اقطاع الايجار : وهو نوع من كراء الارض او تأجيرها لمدة معينة ، وقد ظهر هذا النوع ، حسب اطلاعنا ،بفعل تنامي دور التجارة ، وتغلب على النوع السابق ، لان التاجر او الوزير غير قادرين على الاستقرار في اراضيهما الواسعة ولا على الاشراف على العمل فيها بفعل مهامهما الاخرى .

ولعل انتشار هذا النظام في ملكية الارض ، ادى الى الابتعاد عن الزراعة والاكتفاء بالبحث عن الارباح السريعة ،في شتى المجالات . وهكذا تركت الزراعة الدور الاول للتجارة وخاصة مع بداية القرن الثالث .

---

(١) ابو يوسف ـ نفس المصدر ـ ص ١٣٢

(٢) ابو يوسف ـ نفس المصدر ـ ص ٧٧ .

(٥) نظام الإلجاء : وهو التجاء الاهالي بضياعهم ومغارسهم الى بعض امراء او الخلفاء او العمال للتهرب من جباية الخراج . فكان صاحب الارض يلتجئ الى احد (الامراء) فيستأذنه في ان يكتب ضيعته او ضياعه باسمه ، فلا يتجرأ الجباة على العنف او الظلم في اقتضاء خراجها . وقد يكتفون منهم بنصف الخراج اوربعه مراعاة لذلك الكبير ومكانته . ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعا له ، ويدون ذلك في دفاتر حكومية معترف بها رسميا . ويبقى صاحب الارض (الاصلي) شريكا في غلتها . (١). ويقول ابو يوسف: " وان جباء اهل طسوج (منطقة زراعية) او مصر من الامصار ومعهم رجل من البلد المعروف موسر فقال انا اتضمن من اهل هذا الطسوج او اهل هذا البلد خراجهم ورضوا بذلك فقالوا هذا اخف علينا ، نظرفي ذلك" (٢)

(٦) اراضي الوقف : والمقصود بها هنا الاراضي التي تملكها الدولة دون ان يكون للخليفة حق في اقطاعها او الجائها . وتشمل بعضا من الصوافي واراضي العرب الموروثة من عهد الخلفاء الراشدين . ويخرج من هذه الملكية العامة نوع خاص من ملكية بيت المال يقطعه الخلفاء وهو الجزء الثاني من الصوافي التي ادخلناها في النوع الاول (اقطاع التمليك). ويدخل في أراضي الوقف الاراضي التي تقام عليها المنشآت العامة كالمساجد والاسواق ودور البريد وغيرها .

(٧) ملكية المشاع : وتشمل اراضي الرعي ، والصيد ، والاراضي الزراعية المشتركة التي تستغل بشكل جماعي من قبل اهل القرى ، وتتركز هذه الاراضي المشتركة في الاماكن التي يصعب زراعتها بشكل فردي ،وباستمرار ، مثل الاراضي التي تزرع فيها الحبوب فيكون حرثها جماعيا او دوريا . وهي لا تعتمد على الملكية الخاصة لان زراعتها تخضع للظروف الطبيعية .

وتدخل في ذلك الاطار ملكية الانهار والآبار ، حيث يقول ابو يوسف" والمسلمون جميعا شركاء في دجلة والفرات وكل نهر عظيم نحوهما او واد يستقون منه

---

(١) زيدان (جرجي)- نفس المصدر - ج٢ص١٣٠ -ط١٩٠٣
(٢) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي = ص ٣٦ .

ويسقون الشفة والحافر والخف ، وليس لاحد ان يمنع ، ولكل قوم شرب ارضهم ونخلهم وشجرهم ،لا يحبسن الماء عن احد دون احد ."(١).

- هكذا فان الاقطاع الذي عرفه المجتمع العباسي لم يكن يتفق تمام الاتفاق مع الاقطاع الذي عرفته شعوب اخرى وخاصة في اوربا في العصر الوسيط .

فقد كانت الدولة تتمتع بإشراف قوي وصلاحية كبيرة فيما يتعلق بالارض ، ولم يكن ملاك الاقطاعات الكبيرة قادرين على التأثير في سياسة الدولة (الاقتصادية) الا في المرحلة الاخيرة حينما ظهر الاقطاع العسكري المرتبط بالجهاز " البيروقراطي ".

ولم يكن التملك الخاص للاراضي مستقلا بفضل توزيع الدولة المستمر للارض ، واعادة التوزيع ، وانتشار ظاهرة المصادرة . وقد تجلى ذلك في حالات الامتناع عن دفع الضرائب من قبل بعض الملاك ،او عند استفحال تشكي الفلاحين من ظلم الجباة والاقطاعيين ، او ثبوت تهمة سياسية عليهم .

ويروى ان الخليفة المقتدر ، في اوائل القرن الرابع الهجري ،صادر املاك آل الجصاص فوصلت جملتها حوالي ستة عشر مليون دينار ، (٢)

ان ملكية الاراضي الكبيرة ارتبطت بالارستقراطية العربية ممثلة بوجهاء القبائل وافراد الاسرة الحاكمة ، كما ارتبطت في الجزء الشرقي من الخلافة بطبقة الدهاقين الذين مثلوا الارستقراطية العقارية الفارسية . والقادة والامراء الاتراك والبويهيون بداية بخلافة المعتصم .

الاقطاع الاداري (البيروقراطي) :

بمجيء العباسيين للسلطة عرف المجتمع العربي الاسلامي نشوء وظائف جديدة كالوزير والحاجب ، واقيمت الدواوين المختلفة مقتسمة تلك الوظائف المتزايدة .

وقد سبق الاقطاع الاداري الاقطاع العسكري ثم تلازم وجودهما . وكان هذا الاقطاع يشمل الوزراء وكبار الكتاب والاداريين الذين ازدادت اهميتهم بفضل تعدد الولاءات للخليفة. كما ان ازدياد ثروتهم المكتسبة والموروثة جعلهم يرتقون مراتب متصاعدة. وقد اتسعت املاك هذه الطبقة عن طريق نظام الالجاء . وكان نفوذ

---

(١) ابو يوسف - نفس المصدر - ص١١٦

(٢) زيدان - نفس المرجع - جـ ٢ ص١٤١ ط ٣

الجباة يزداد شيئا فشيئا لحصولهم على اموال طائلة نظير الحماية . اما احوال صغار المزارعين فكانت في تدهور مستمر .

الاقطاع العسكري :

بدأ باعطاء الجند ، وقادتهم بالاخص ، الحق في التصرف في منتوجات الارض وما عليها . وكان ذلك في منتصف القرن الثالث حينما عمل الخلفاء على توزيع الارض على العسكريين عند افلاس خزينة الدولة وسيطرة قادة الجند من غير العرب على اجهزتها . ويسمي الدوري هذا النوع من الاقطاع بـ" اقطاع البويهيين " (١) . ولكنه شمل البويهيين وغيرهم . ان تلك الاجراءات التي اتبعها الخلفاء بفعل الخوف من خطر الجند عليهم ، ادت الى خراب الارض وضعف مردودها ، وبالتالي ضعف الاهتمام بشؤونها . لان قادة الجند لم يقيموا في تلك الاراضي . كما ادى ذلك الى هروب الفلاحين من اراضيهم ، بعد اقتطاعها ، تحت تأثير عبث الجند واستبداد قادتهم في فرض الضرائب .
كما ان طبيعة اولئك الغرباء لا تنسجم والاهتمام بالزراعة والحرص على زيادة انتاجية الارض ، ولا حتى المحافظة على مستوى انتاجيتها الذى وجدوها عليه . ويصف مسكويه عملية توطد الاقطاع العسكري وما ادى اليه من خراب الارض ومردود ذلك على ضعف الخزينة ، فيقول :
" في هذه السنة (٣٣٤هـ وهو تاريخ دخول البويهيين لبغداد) شغب الديلم على معز الدولة شغبا قبيحا فضمن اطلاق اموالهم (اى رواتبهم) في مدة ضربها لهم ، فأضطر الى ضبط الناس واستخراج الاموال من غير وجوهها ، فأقطع قواده وخواصه واتراكه ضياع السلطان وضياع المستترين وضياع ابن شيرزاد . ." (٢) ، ثم يقول" في الوقت الذى اقطع فيه الجند الاقطاعات " كان مفرط الغلاء للقحط الذى ذكرنا ، فتمسك الرابحون بما حصل في ايديهم من اقطاعاتهم ولم يمكن الاستقصاء عليهم في العبرة . ورد الخاسرون اقطاعاتهم ، فعوضوا عنها وتمت لهم نقائصها ، واتسع الخرق حتى صار الرسم ساريا بأن يخرق الجند اقطاعاتهم ثم يردوها . . وفسدت المشارب ، وبطلت المصالح ، واتت الجوائح على التناء (المزارعـــون) ،

---

(١) الدوري — مقدمة في تاريخ الاقتصاد العربي —ص٨٩
(٢) مسكويه — تجارب الامم —ج ٢ ص ٩٧

ورقت احوالهم ، فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف ، وبين مستريح الى تسليم صيعته الى المقطع ليأمن شره ويوافقه .. واقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم فلا يضبطون ما يجري على ايديهم ولا يهتدون الى وجه تثمير ومصلحة ، ويقطعون اموالهم بضروب الافساد ، واغتاض اصحابهم عما يذهب من اموالهم بمصادراتهم وبالحيف على معامليهم .." (١)

هذا النص الاقتصادي الهام يصور لنا كيف تحولت تلك الزراعة المتطورة والاراضي الخصبة الى حالة من الخراب والفساد ، في المرحلة التي بدأت فيها سيطرة العناصر الاجنبية على السلطة ، واضحة المعالم .

هكذا فقد تميزت المرحلة المدروسة بوجود حالتين رئيسيتين للارض ، مرحلة تمتد من تأسيس الدولة العباسية ١٣٢ هـ ، وبالتحديد منذ تولى المنصور الخلافة ، وحتى نهاية فترة الرشيد ، وتميزت بالاشراف المباشر على الارض من قبل الدولة ، وعرفت ازدهارا ملحوظا في الزراعة انعكس في وفرة الانتاج ، (فقد كانت الاراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات من اخصب بقاع الدولة العباسية ، وكانت الحكومة تشرف على ادارتها اشرافا مباشرا ، وتعمل على النهوض بمحصولاتها وتنمية مواردهـا ، وامدها المنصور ثم المهدي بشبكة من الترع والمصارف زادت من خصوبتها ، واتسعت المزارع والبساتين) . (٢)

وفضلا عن اتصاف تلك المرحلة بخصوبة الارض واشراف الدولة على عملية الانتاج ، فانها تميزت ايضا بوضع نظام ثابت لانواع الخراج حسب نوعية المحصول وطبيعة المناخ ، كما عرفت اهتماما من قبل الدولة بتخفيض الضرائب على الفلاحين .

اما المرحلة الثانية فبدأت بغياب الرشيد ، وصراع الامين والمأمون . وهي المرحلة التي سيطر فيها الوزراء وقادة الجيش من غير العرب .

وكانت تلك البداية تمثل منعرجا حاسما في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، حيث بدأ الصراع بين العرب والموالي (فرس - ترك) . يمتد ليظهر في اشكال متعددة تتراوح بين الظهور والكمون .

تلك المستبدات ساهمت في تحويل اهتمام الدولة بالارض الى موارد اخرى احتلت فيها

---

(١) مسكويه - نفس المصدر - جـ ٢ ص ٩٧ / ٩٨

(٢) الخربوطلي (علي حسين) - المهدي العباسي - ص ٧١

التجارة المرتبة الاولى . فظهر الاقطاع العسكري والاقطاع الاداري ، وسيطرت الطبقات الجديدة على موارد المال وسياسة الدولة فتضررت الميزانية واهملت الارض .

وقد عرفت المرحلة الاخيرة (مرحلة الخلفاء الضعاف) كثرة في المكوس والضرائب ، وتلاعبا بالعملة ، وزاد الاهتمام بالتوفير ، فتوطد النظام المصرفي وظهرت طبقة رأسمالية مهمة ، ونشأت حركة منظمة في صفوف العمال (١) والفلاحين وصغار الكسبة بفضل تطور الوعي الاجتماعي اثر ازدياد الشعور باستغلال التجار والاقطاعيين الجدد ، وقهر الحكام ، وترفهم ، واتلافهم لاموال الشعب في بناء القصور والمدن . ولكن تلك المرحلة عرفت ازدهارا في مجال الثقافة كما اشتد فيها عود المعارضة صلابة .

-

- وبعد ان حددنا الاشكال الرئيسية لملكية الارض في المجتمع العباسي ، لابد لنا من ان نحاول تحديد السمات الاساسية للنظام الاجتماعي - الاقتصادي السائد آنذاك ، مستفيدين من بعض الافكار النظرية التي تمتلك قدرة تحليلية هائلة لا تزال الدراسات الاقتصادية والاجتماعية في معظم بلدان افريقيا وآسيا الجنوبية بحاجة اليها ، كدليل لفهم اشكالات تطورها التاريخي .
ولكن معظم الدراسات الاوروبية اعتادت على تصنيف كل المجتمعات او معظمها في الاطر النظرية الجاهزة دون ان تمتلك الفهم الصحيح لتطورها التاريخي .
ورغم حصول الفائدة المستوحاة من تلك الدراسات احيانا ، فيما يتعلق بالمجتمع العربي ، الا ان بعض الخصوصيات التي اتسم بها هذا المجتمع وغيره ، تتطلب التدقيق والمراجعة قبل تعميم تلك الافكار والنتائج (بعلمها وطميمها) .
فالاقطاع الذي عرفه المجتمع العربي في العصر العباسي ، مثلا ، كان يختلف عن الاقطاع الذي عرفته المجتمعات الاوربية (الغربية) ، ويتميز ببعض الخصائص التي سنذكرها فيما يلي ، ضاربين الصفح عن عملية المقارنة التي لا تدخل في مجال بحثنا .

---

(١) محمود (اسماعيل) - الحركات السرية في الاسلام - ص ٥١

ماهي خصائص الاقطاع العربي ؟

١- غياب الملكية الخاصة للارض بمعنى حرية التصرف المطلقة ، كتوريث الارض مثلا ، وتميز الطبقة المالكة بانتمائها الى الفئات الارستقراطية العربية والفارسية والتركية والبربرية . ولكنها لم تكن خبيرة بمجال الزراعة والانتاج الا في الحالات التي اشرفت عليها الدولة . يقول احد الدارسين " الملكية الخاصة ضعيفة ، مع ضعف المناطق الزراعية ، نسبيا ، وثمة نفور عام من الاستثمار الزراعي ، وامكانية دائمة وسريعة لعزل المقطعين ." (١)

٢- ابتعاد الملاك الكبار عن املاكهم العقارية (الارض) وعدم مشاركتهم في العمل الزراعي .

٣- اشراف الدولة المباشر ، فالضرائب كانت تدفع مباشرة للدولة او الى ممثليها في القرى الزراعية . كما شمل الاشراف المنشآت الاقتصادية العامة في المجتمع من مصادر المياه وقنوات الري والانهار والدواوين .

٤- ظهرت طريقة شبه تعاونية في قرى السواد وفي مصر ، فكان اهل القرية يتوزعون الاراضي فيما بينهم حسب امكانياتهم المادية وكانوا يتعاونون على دفع الضرائب وتخصيص جزء من المحصول لاغراضهم الزراعية المشتركة . وكانت القرى تسعى الى ان يمثلها احد ابنائها في جباية الضريبة . وفي ذلك يقول حسن ابراهيم حسن : " ولم تكن الحكومة العباسية تتدخل في شؤون الجماعات الا بمقدار ، بل كانت كل بلدة او قرية تدبر شئونها الخاصة بنفسها ، ولا تتدخل الحكومة الا في حالة نشوب الفتن او الامتناع عن دفع الضرائب . غير انها - مع ذلك - كانت تقوم بالرقابة الفعالة على جميع الشئون التي تتصل بالزراعة من بناء القنوات وترميمها (٢) .

ولكن ذلك الاشراف بدأ يضمحل بتوطد الاقطاع العسكري وتقلص دور الحكم المركزي .

٥- ان الفلاحين لم يكونوا يقطعون مع الارض بل كانوا يتمتعون بحرية الحركة ، كما كانوا يحصلون على جزء من المحصول .

---

(١) ديب (فرج الله) - مقال في مجلة : دراسات عربية ص٧٥ ، عدد ٥ ، ١٩٨٠
(٢) حسن (حسن ابراهيم) - تاريخ الاسلام . ج ٢ ص ٢٦٩

- الارواء الاصطناعي : نتيجة ضعف الطرق الطبيعية في ارواء الاراضي . وقد
ظهر ذلك بشكل واضح في العراق حول دجلة والفرات حيث اعتمدت الزراعة على مد
القنوات وحفر الترع ، " ففي العراق كان من واجبات الدولة ان تسهر على صيانة
السدود والمسنيات والبثوق . وكان ثمة لهذا الغرض طائفة قائمة بذاتها من العمال
يسمون (المهندسين) . . وكانت القوانين المتعلقة بتنظيم الماء في شرق فارس
متشعبة كل التشعب ، فكان في مرو ديوان يسمى " ديوان الماء " وكان صاحبه يرأس
عشرة آلاف عامل ، وكان منصبه ارقى من منصب صاحب المعونة في تلك المدينة . أما
في اليمن حيث لابد من جمع الماء الجاري للاستعمال فكانوا يبنون المصانع وهي
عبارة عن غدر مرصوفة من جوانبها بالصفا . اما في المناطق الجبلية مثل صنعاء ،
فكانوا يبنون سدودا لها فتحات في اسفلها ، يجري منها الماء ويوزع في قنوات صغيرة .
وفي بلاد ماوراء النهر (حيث الاراضي جبلية) انشأت القنوات على ارتفاعات متفاوتة
كبيرة ، ويقطع بعضها بعضا في كثير من الاحيان ، وفي هذه الحالة يسير الاعلى
منها فوق الاسفل في قنوات خشبية محمولة ، وكان على نهر النيل في جزئه الادنى
سدان ، في القرن الرابع ، احدهما (بعين شمس) ، وهو مبني بالحلفاء والتراب ،
يقام قبل زيادة النيل ، فاذا اقبل الماء رد السد ، وعلا الماء ، فسقى ماوراء السد
من الضياع . . اما السد الآخر فهو اعظم بناء . . . وبشمالي افريقية كان شرب مدينة
توزر (باحدى واحات الصحراء الكبرى الافريقية (جنوب تونس) من ثلاثة انهار تنقسم
بعد اجتماع مياه تلك الرمال بموضع يسمى وادي الجمال . . ثم ينقسم كل نهر منها الى
ستة جداول ، وتتشعب في تلك الجداول سواق لا تحصى كثرة ، تجري في قنوات
مبنية بالحجر على قسمة عدل . . "(١) .

ان تلمس تلك الخصائص في نظام ملكية الارض وطرق الاقطاع يدعونا الى الابتعاد عن
التعميم في اسقاط النماذج ، فذلك الاسقاط الحرفي ، كثيرا ما يؤدي الى انعدام
الفهم الصحيح للنظام الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع العربي الاسلامي .
ان عوامل هيمنة الدولة وقوتها العسكرية . واشرافها على المهام الاقتصادية ، وولاء
الاقطاعات المستقلة لها ، منعت من استتباب الملكية الاقطاعية الخاصة ، وظهور الاقطاع

---

(١) ميتز - نفس المرجع - ص ١٣٥ - ١٣٦ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤٢

الاوروبي . وبالتالي يمكننا ان نطلق على ذلك النمط :" الاقطاع الشرقي" أو النمط الخراجي " .

ولابد من الاشارة الى أن طبقة العبيد استمر وجودها في هذا النظام ، ولكنها كانت في حالة انحلال وتلون دائمين ، والاهم من ذلك كله ، ان هذه الطبقة لم تكن في طبيعة خضوعها بمثل حال طبقات العبيد في المجتمعات الاخرى . فقد كان لموقف " الاسلام" من العبودية ودعوته الى تحديدها والغائها ، باعتناقه بعض الحقوق المتدرجة للعبيد ، والحاحه على تحريرهم ، الاثر الكبير في خلق وضع اجتماعي جديد .

كما ان الحديث عن تداخل في التشكيلات الاقتصادية - الاجتماعية يصبح امرا مستبعدا . اذ ان تلك النظم والاشكال المتعددة ليست سوى حركة طبيعية في عملية التغير الاجتماعي .

وذلك يؤدى بنا الى حالة من الانسجام في طرح الافكار والوصول الى النتائج عن طريق ملاحقة الاحداث ورصد انعكاساتها ، في اطار النظام الاجتماعي الكلي . وهذا الانسجام يدفعنا للقول بأن هناك نمطا رئيسيا للانتاج في المجتمع العربي الاسلامي ، وهو النمط الذى استعرضنا ملامحه المميزة . ولعل ذلك النظام يندرج ،حسب رأينا ، في " النمط الآسيوى للانتاج " ، الذى تنصب عليه الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية التي تحاول التوفيق بين الافكار النظرية المتعلقة بهذا النمط وبين تجسده الفعلي في تاريخ المجتمعات الشرقية عموما . ولكننا نقول ذلك بحذر كبير ، مشيرين الى ان هذه المسألة لا تزال بحاجة الي مجهودات اخرى .

البحث الثاني :

مفهوم البنية الاجتماعية (اسس المركز الاجتماعـــــــي)

(آ)

كان دور الرابطة القبلية في المجتمع الاموى لا يزال قويا امام الرابطة الاسلامية الناشئة ، كما كانت الحياة الاجتماعية تمر بمرحلة جديدة عرفت اتساع الملكية الاقطاعية ونشوء المدن الكبيرة وتوطد الدولة كأداة قوية مهيمنة . كانت جديدة لانها تمثل انتقالا للمجتمع من حالة الملكية الجماعية والمساواة بين افراد القبائل وضعف جهاز الدولة الى حالة جديدة .

اما في بدايات المجتمع العباسي فان جور الخلفاء الامويين وممثليهم كان قد وسع في القاعدة الاجتماعية المؤيدة للدعوة العباسية . كما ان اتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية لم يكن لينسجم مع جوهر السياسة الاموية القائمة على الرابطـــة القبلية ، فقد شملت الدولة شعوبا جديدة مما ادى الى ضعف تلك الرابطة التـــي تركت مكانها للرابطة الاسلامية وروابط اخرى . اما دور الرابطة القبلية فاصبح في تلك المرحلة ضعيفا ، لكنه لم يتلاشى نهائيا في الساحة السياسية على الاقل .

استنادا الى ذلك التحول في جوهر الروابط الاجتماعية والعلاقات السياسية وما أدى اليه من تغير واسع شمل جميع المجالات ، تطرح عدة تساؤلات امام الباحثين ، حول كيفية حدوث ذلك التغير والقوى الفاعلة والمنفعلة ومدى التغير الحاصل في البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي الاسلامي .

ولعل من اهم التساؤلات - حول تاريخنا الاجتماعي الغني - التي تطرح على الباحثين السؤال التالي : هل ان الثورة العباسية كانت ثورة طبقية بالمعنى الصحيح ؟ انها بالتأكيد طبقية طالما اطلقنا عليها كلمة (ثورة) التي تعني تغيير الواقع القائم بواقع جديد في كل المستويات المادية والفكرية . وليس من المهم ، حسب رأينــا ، التدقيق في البحث عن اسبقية الذات او الموضوع ، او الفاعل والمنفعل فـــي عملية التغير الاجتماعي ، لان المرحلة المدروسة كان تطورها شائكا ، كما ان الامكانيات العلمية المتوفرة لدينا في دراسة اشكاليات المجتمع المعاصر لا يمكـــن ان تتوفرلنا - بنفس الدقة - في دراسة المجتمعات القديمة ، وللاجابة على هـــذا

السؤال تكفي النظرة المتمعنة في الاسباب الحقيقية التي كانت وراء قيام الثورة العباسية وفي الانجازات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي نشأت في ظل قيام الدولة العباسية .

والحقيقة ان الباحث يستطيع ان يلحظ بسهولة تلك العلاقات الاجتماعية الجديدة التي نشأت منذ اواخر العهد الاموي واستمرت خلال ثورة الشعب المتسلح باسلام الخلفاء الاوائل تحت رايات العباسيين ، وبعد توطيد الدولة الجديدة واستفراد العباسيين بالسلطة وحصول الانحراف عن الدعوة التي روّج لها الدعاة العباسيون ، عندئذ بدأ الفرز الطبقي في المجتمع العباسي يتضح ، فتشكلت المعارضة الاجتماعية حاملة اشكالاً مذهبية وسياسية ، لكن ذلك لا يعني ان الفرز العام القائم بين الفقراء والاغنياء كان غائبا خلال المرحلة السابقة ، ولكن حركة خفية كانت تدب بين الفئات والجماعات ، وفي احشاء الطبقات مكونة فئات اجتماعية جديدة ، ومؤدية الى ضمور او انتفاخ في تلك الفئات الاجتماعية .

يرى المستشرق الفرنسي (رودنسون) ان هناك اختلافا حتى الان بين الباحثين حول تسمية الجماعات ذات الاهمية التاريخية ، فمنهم من يسميها " الطبقات الاجتماعية " ومنهم من يطلق عليها " الفئات الاجتماعية " . ثم يقول صادقا " ولست استطيع هنا بالطبع ان اسعى في تحليل بنية المجتمع الاسلامي تبعا للفئات الاجتماعية التي تؤلفه ، فالامر ينبغي ان يكون موضوع دراسات متضافرة"(١) ويقدم هذا الباحث في محاضرته الهامة تلك تحليلا عاما للكيفية التي طرحت بها مسألة الطبقات الاجتماعية في الفكر العربي خاصة والاسلامي عامة ، في العصر الوسيط ، وليس بالامكان انكار ان الفكر الاسلامي التقليدي كان على وعي بنوع من التصنيف في المجتمع الى فئات اجتماعية متراتبة جزئيا "(٢) . ونعتقد ان ذلك البحث رغم اختصاره فيه افكار رائدة - حسب علمنا - حول اسس التركيب الاجتماعي للمجتمع المدروس كما يقربانها ستفيدنا في دراسة البنية الاجتماعية للمجتمع العربي الاسلامي ، التي لم تحظ بالدراسة الكافية .

---

(١) رودنسون (مكسيم) - التاريخ الاقتصادي وتاريخ الطبقات الاجتماعية في العالم الاسلامي ص ٨ - ط ٢ (العربية) .

• وهي محاضرة منشورة في كتاب " دراسات في التاريخ الاقتصادية للشرق الاوسط"

(٢) نفس المرجع (ص ١١)

اما المسألة الثانية التي تطرح نفسها فهي : هل نستطيع ان نميز في المجتمع العباسي بين الطبقات الاجتماعية تمييزا يوضح العلاقة المتينة بين امكانياتها الايديولوجية والنظرية من ناحية وبين ممارساتها وفعلها الاجتماعيين من ناحية اخرى ؟

اننا نعتقد بناء على الحقيقة القائلة بان الثورة العباسية رفعت في البداية لواء الاسلام الداعي الى المساواة بين المسلمين (عربا وموالي ، عبيدا واحرارا) في السياسة والاقتصاد ، والتي ادت الى تجنيد الجماهير العربية والفارسية وغيرها ، فشاركت في الثورة ضد الامويين وبايعت العباسيين . استنادا الى تلك الحقائق فاننا نعتقد انه بالامكان لتمييز تلك العلاقة المنسجمة بين مشاركة الجماهير الواسعة وبين الافكار الثورية التي تحملها (المساواة والعدالة) .

لكن مايضفي على المسألة تعقيدا ، العلاقة بين الايديولوجيا الثورية بالنسبة لذلك العصر وبين القائمين على الامر من جهة والقاعدة الاجتماعية العريضة من جهة أخرى .

وعند الحديث عن البنية الاجتماعية لتحديد مفاصلها الاساسية وارتباط الجماعات بنظام متين قائم على المصالح المشتركة الواعية وغير الواعية ، لابد لنا من الاشارة الى مسألة نرى انها جديرة بالانتباه : كنا قد ذكرنا سابقا ،ان من المسائل المنهجية التي تعرقل عمل الباحث الاجتماعي في دراسته التاريخية ، صعوبة استخدام عدد من المفاهيم الحديثة في تلك الدراسة .

ومن بين تلك المفاهيم مفهوما " التركيب الاجتماعي " ، ويشكل اكثر خطورة "التراتب الاجتماعي " (— STRATIFICATION —) واذا كان الاول يدل على الحدود التي تقسم المجتمع الى طبقات اجتماعية متصارعة ، والثاني يقوم على ترتيب الافراد والجماعات وفق سلم متوازن يقوم على المكانة والوظيفة الاجتماعية ، فان تلك المفاهيم التي ظهرت بعد بدايات القرن التاسع عشر تهدد وعسيرة التطبيق على مجتمع قديم بكل مدلولاتها المرتبطة بنشأة المجتمع الصناعي .

ورغم ان المفهوم الاول يبدو لنا اكثر قدرة على استيعاب تاريخ المجتمعات القديمة لشموله فكرة الصراع التي ينفيها المفهوم الثاني نفيا يبرر سياسة ومواقف طبقية معينة . الا ان مفهوم " التركيب الاجتماعي " يجب ان نستخدمه بحذر في فهم بنية المجتمع العربي الاسلامي الذى لعبت فيه عوامل العصبية والدين وقوة الدولة والثروة ادوارا اساسية في التقسيم الاجتماعي .

ولعل النظرة الاستقرائية للتعابير المتعلقة بهذا المفهوم ، العائدة الى العصر العباسي ، تبين لنا حضور هذا المفهوم - بالمعنى العام - في الثقافة العربية المعبرة عن ذلك الواقع . فهو لم يكن بالضرورة يعني التركيب بمعناه الحديث ، كما لم يكن خاصا لمعنى واحد . فقد ظهرت مصطلحات "الطبقات" لتعني الجماعات الحرفية ، ولعل ذلك المصطلح يشير الى الفئات الاجتماعية ، اكثر من اشارته الى الطبقات بالمعنى المتعارف عليه الآن . وكذلك لم يكن المرجع في تقسيم المجتمع الى نوع العمل ، أو مستوى الدخل او المركز والدور ، هو الاساس بل كانت ايضا التقسيمات ، القائمة على اساس المذهب والدين والقبيلة والنسب والثروة متداخلة .

وقد عرفت بعض المصطلحات المعبرة عن فكرة الانقسام الاجتماعي ، فكانت شائعة التعبير متحدة الدلالة ولكنها كانت مرنة . فقد راج مفهوما : (الخاصة) و (العامة) تعبيرا عن الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع . كما عرفت كتابات مثقفي العصر تسميات اخرى ذات دلالة هامة مثل (العلية ، الصفوة . .) و (السواد ، السفله ، الدهماء ، الغوغاء) .

وتغدو مهمة رصد كيفية حدوث ذلك الفرز ، وبالاخص تحديد زمن تشكل الطبقات امرا مستعصيا ، لان التشكل الطبقي عبارة عن عملية معقدة تستغرق وقتا طويلا خلال سيرورتها التاريخية المتواصلة . وبالتالي فاننا حينما نتحدث عن بدايات او نهايات او حدود ، خلال دراسة الطبقات والفئات الاجتماعية ، فليس ذلك سوى نوعا من التعميم الذى يستند الى النظرة التاريخية والنظرة الجدلية ، وهو جهد كبير رغم عموميته فهو لا يفقد طابع العلم .

ويمكن ان نحدد تكون الطبقة الفاعل في التاريخ بظهور ايديولوجية الطبقة ، او بمعنى اوضح بظهور وعيها وانتقالها من طبقة في ذاتها الى طبقة من أجل

ذاتها ، ثم نستطيع ان نلمس ذلك بوضوح من خلال دراسة التغيرات الاجتماعية وانعكاسها على الجماعات في مجال حياتها الاقتصادية والاجتماعية وفي مجال افكارها ومعتقداتها . كما يمكن من جهة ثالثة تحديد الطبقة من خلال علاقاتها بنظائرها في المجتمع . (ان التحول في وعي الطبقة من وضع الكمون (الامكان) الى وضع الظهور (التحقق) يتم عبر تحولها في موقعها الاجتماعي الانتاجي والحضاري العام . هذا يعني ان الوعي الطبقي ، اوما نسميه بالايديولوجيا ، هو حصيلة مكثفة لتكون وتبلور تاريخي وتراثي ضمن الطبقة المعنية وهذا بدوره وبطبيعة الحال مشروط بعلائقها الذاتية ، وعلائقها الاخرى الخارجية القائمة بينها من طرف وبين الطبقات الاجتماعية الاخرى في مجتمع واحد عن طرف آخر ، ثم بينها من طرف وبين تلك الموجودة في مجتمعات اخرى متاخمة أو بعيدة من طرف آخر) (١) .

وعند بحث البنية الاجتماعية للمجتمع العباسي ، يلمس الباحث اساسين اثنين لتقسيم تلك البنية في كتابات المؤرخين والادباء والفلاسفة والفقهاء .

- (ب) التقسيم الطبقي :

يمكننا الحديث عن طبقات رئيسية في المجتمع العباسي ، ويحظى التقسيم الثنائي (عامة - خاصة) باتفاق بين الجميع تقريبا . ولكن هذا الاتفاق سرعان ما ينحل عند الحديث عن تفاصيل كل جزء من ذلك التقسيم ، وخاصة عندما يدخل الجدال في انتماءات الفئات كالتجار والكتاب وقواد الجيش وغيرهم .

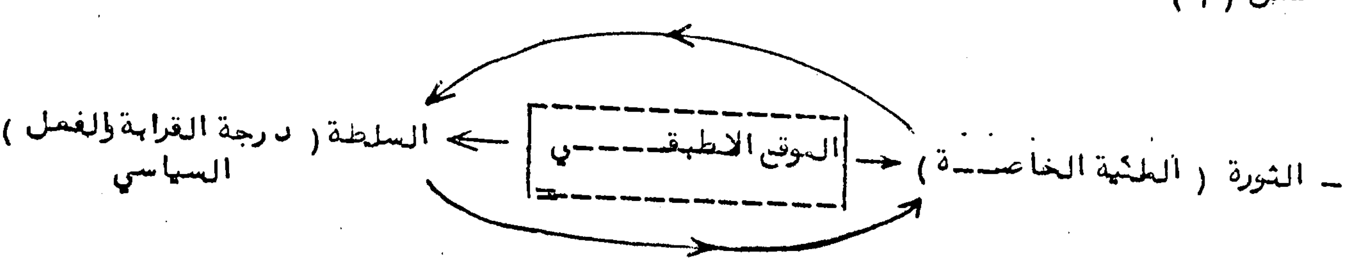
ويقوم هذا التقسيم على اسس محددة تتلخص في مستوى الدخل (الثروة) والمكانة الاجتماعية (درجة القرابة من السلطة) ، شكل (١) . والحقيقة ان هذين المؤشرين مترابطان اشد الارتباط ، حيث ان ازدياد الثروة يؤدي بالضرورة الى الاقتراب من السلطة وبلوغ الجاه ، كما ان قوة القرابة (بفعل النسب او الخدمة السياسية) تؤدي الى زيادة الثروة بفعل الاعطيات والاقطاعات الممنوحة لأولئك المقربين . علما ان فئة المقربين للاسرة الحاكمة في الجيش والادارة ، لم يمكن دخلها قويا بالضرورة ،

---

(١) التيزيني (طيب) من التراث الى الثورة - ص ٦٤٧ - ط٣

وذلك قبل احتلالها الموقع الطبقي الجديد . ويمثل تلك الدرجة ينطبق هـذا المؤشر على الطبقات الفقيرة بشكل معكوس .

شكل (١)



وقد عبر العلامة ابن خلدون عن انقسام المجتمع العربي الاسلامي الى طبقات ، ويستند ذلك المفهوم الى مستوى الكسب ودرجة العمل من ناحية ونسبة الخضوع من ناحية اخرى .وتجمع كلمة طبقة عنده بـ" طبقات" و (طبـاق) . وتلـك المستويات التي يقسم المجتمع على اساسها الى طبقات جمعها ابن خلدون فـي كلمة " الجاه" الذى هو متوزع بين الجماعات بشكل متدرج ينتهي اعلاه بطبقة الحكام وينتهي اسفله بطبقة الخدام الفقراء ، وبين تينك النهايتين طبقات شتي تتوزع حسب الاسس السابقة .

" ثم ان الجاه متوزع في الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة وينتهي في العلو الـى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية ، وفي السفل الى من لا يملك ضرا ولا نفعا بيـن ابناء جنسه ،وبين ذلك طبقات متعددة. ." (١)

كما اشار ببراعة الى فكرة تسلط الطبقات العليا في المجتمـع مبينا ان الطبقة العليا تستمد وجودها من ضعف الطبقة السفلى ،وبمعنى آخر فان الطبقـات

---

(١) - ابن خلدون - المقدمة - ص ٣٩٠ -ط٤

المالكة للثروة تزداد ثروتها بقدر ازدياد استغلالها للضعفاء من الناس خلال عملية الانتاج . كما لمح الى معنى حركية الطبقات التاريخية وخضوعها للتطور اذ يقول : " ثم ان كل طبقة من طبقات اهل العمران من مدينة او اقليم لها قدرة على من دونها من الطبقات ، وكل واحدة من الطبقة السفلى يستمد بذى الجاه من اهل الطبقة التي فوقه ويزداد كسبه تصرفا فيمن تحت يده على قدر مايستفيد منه والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع ابواب المعاش ، ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذى فيه صاحبه . ." (١) .

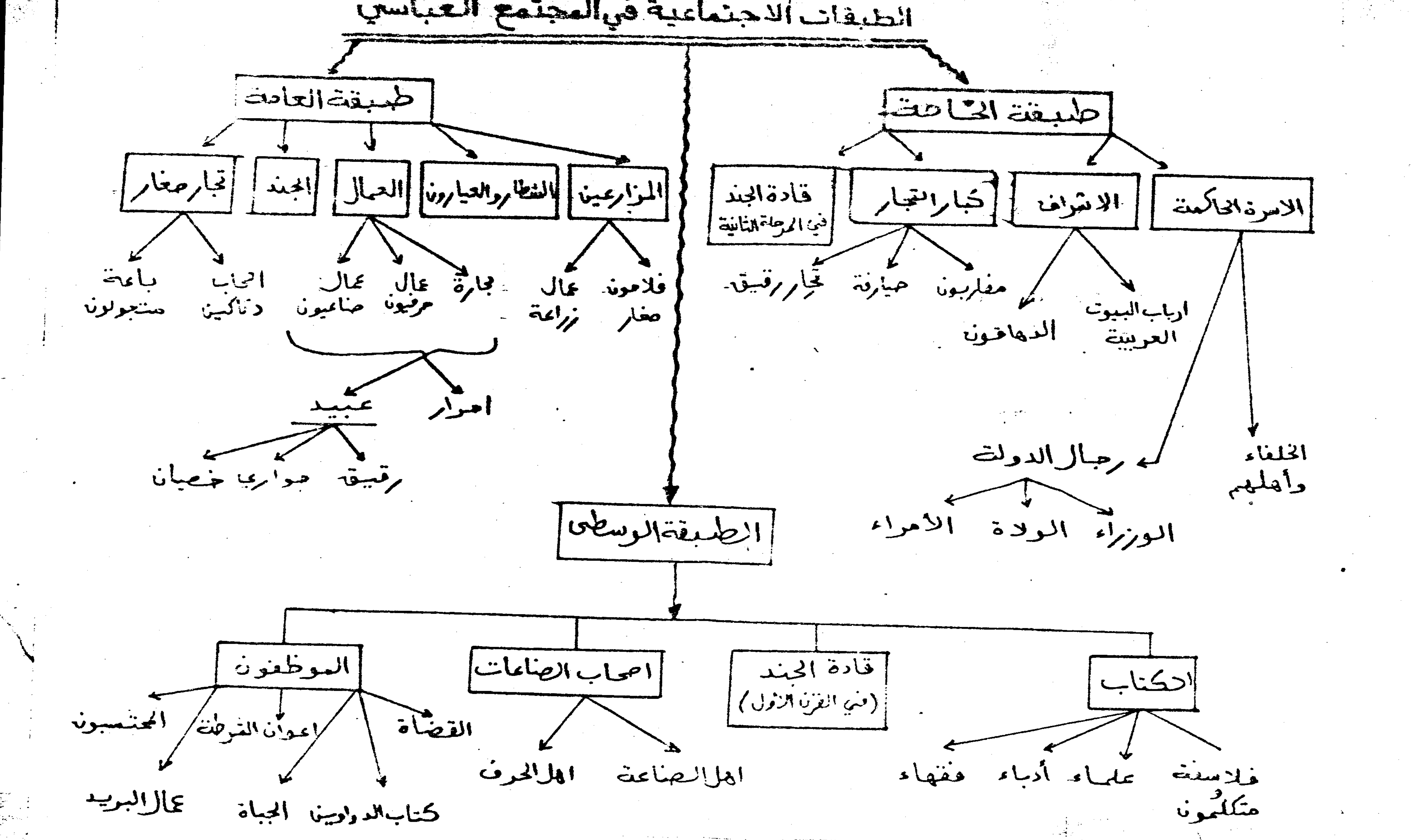
واستنادا الى تلك الفكرة ، القائمة على مؤشري الموقع من الثروة والموقع من السلطة يمكننا تقسيم المجتمع العباسي منذ قيام الدولة في بغداد وحتى أواخر القرن الرابع الهجري الى ثلاثة انواع من الطبقات اساسيه هي :

طبقة الخاصة . الطبقة الوسطى ـ طبقة العامة . شكل (٢)

وقبل ان نخوض غمار تلك المحاور لابد لنا من العودة للأشارة الى فترة عمومية ذلك التقسيم وخضوعه لاجتهاد الباحث .

---

(١) ابن خلدون المقدمة ـ ص٣٩١



الطبقات الاجتماعية في المجتمع العباسي
طبقة الخاصة
طبقة العامة
الطبقة الوسطى
الاسرة الحاكمة
الاشراف
كبار التجار
قادة الجند
في المرحلة الثانية
الخلفاء
وأهلهم
رجال الدولة
الوزراء
الولاة
الأمراء
ارباب البيوت
العربية
الدهاقون
مضاربون
صيارفة
تجار رقيق
المزارعين
الشطار والعيارون
العمال
الجند
تجار صغار
فلاحون
صغار
عمال
زراعة
تجارة
عمال
حرفيون
عمال
صناعيون
اصحاب
دكاكين
باعة
متجولون
احرار
عبيد
رقيق
جواري
خصيان
الكتاب
قادة الجند
(في القرن الأول)
اصحاب الصناعات
الموظفون
فلاسفة
متكلمون
علماء
أدباء
فقهاء
اهل الصناعة
اهل الحرف
القضاة
اعوان الشرطة
المحتسبون
كتاب الدواوين
الجباة
عمال البريد

(١) طبقـــة الخاصـــة

تتكون "الخاصة" من عدة فئات اجتماعية ، الا ان ما يجمع بينها وحدة مصالحها الاقتصادية والسياسية ، وحجمها الصغير بالنسبة لطبقة العامة التـــي تمثل الجزء الاكبر من السكان . لذلك سميت " العامة " لانها أعم وأكثر . وتتصف تلك التسمية بصفة النخبوية (نسبة الى النخبة) . وهو تقسيم شائع حتى عصـــرنا الحاضر ، تعبر عنه كلمتا : ELITE و MASSE ، وهـــذا التقسيم تعتمد عليه احدى المدارس الاجتماعية في الغرب ، وهي مدرسة فلفريـــد و باريتو (VILFREDO - PARETO) . وجدير بالذكر انه في الوقـــــت الذى رأينا فيه ابن خلدون ، في القرن الثامـــن الهجرى ، وهو يتحدث عن خضوع الطبقات للتطور واستنادها على الملكية والسلطة من حيث تكونها وتحدد موقعهــا ، نرى هذا الكاتب المحدث (باريتو) يدعي ان انقسام المجتمع الى طبقة الناس (المهرة) وطبقة النخبة (اللبوة) امر ثابت ، اما التغير فيموزه الى القيادة " التي تصنـــع التاريخ " (١) وهو معروف بموقفه الذى يهاجم المساواة والديمقراطية (لانهـــــا لا يمكن ان تتحقق في الواقع) . فالتفاوت الاجتماعي ينشأ طبقات متباينة ، (٢) وفـــي ذلك يقول " ان عدم المساواة في توزيع الدخل ناجم عن طبيعة الانسان اكثر ممـــا تكون متأتية عن تنظيم المجتمع " (٣) .

ان صفة الانغلاق في طبقة الخاصة شهدت في اواسط المرحلة المدروسة انحـــلالا بفعل ظهور تغيرات في طبيعة الحكم وفي العلاقات الاجتماعية والاقتصادية . فقد اثر الاختلاط بين الاقوام في احداث ثغرات في بنية تلك الجماعات ، اذ حصـــــل التزاوج بين العرب والموالي ، وشمل ذلك معظم الطبقات . كما ان التحالفا ت الجديدة التي كانت تطرأ داخل الاسر الحاكمة وخارجها ، خوفا من التآمر وخشـــية من الانقلابات والمحاور ، اضعفت من المفاهيم الارستقراطية . وقد تجسد ذلـــك في اتساع مفهوم " الشرف " الذى كان يقترن ببعض الانساب والاقوام دون غيـــرها ،

---

(١) هنا (غانم) - بناء المجتمع . ص ٤٣
(٢) الباقي (عبد الكريم) - تمهيد في علم الاجتماع - ص ٤٤٦
(٣) باريتو - (MANUAL DI ECONOMIA POLITICA - FIRENZE 1921) parge: 1012

- الفقرة من ترجمة غانم هنا +

حين اصبحت القاب الشرف والرتب الاسمية تمنح لاسترضاء الناس ، وقد عبر ابو بكر الخوارزمي عن ذلك بقوله :

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا … من الكنى ومن الالقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم … ماكان يرضى به للحش بوابا
قل الدراهم في كفي خليفتنا … هذا فأنفق في الاقوام ألقابا (١)

ونأتي الآن على ذكر فروع طبقة الخاصة :

آ- الاسرة الحاكمة :

١- الخلفاء وأهلهم : ان هناك فرقا في المستوى العملي بين من يسمون ببني هاشم ، حيث ان استفراد بني العباس بالسلطة دون بني عمومتهم يبعد عن اذهاننا اعتبار بني هاشم جميعهم ينتمون الى الاسرة الحاكمة ، وسوف نرى في الفصل الثاني كيف ان عددا من افراد تلك الاسر تحول الى صف المعارضة ، ولم يشارك في السلطة السياسية ، ويصنف الخلفاء العباسيون واسرهم في قمة ذلك السلم الاجتماعي ، اذ ان الخليفة في العصر العباسي الاول هو صاحب السلطتين الدينية والدنيوية ، يقول ابو جعفر "انما انا سلطان الله في أرضه" (٢).

وكان مفهوم الشرف يرتبط بفئة الخلفاء وابنائهم ، حيث كانوا يسمون بالاشراف وابناء الطوى (٣). اما ارتزاقهم فكان في الغالب من الرواتب والعطايا التي يقتضونها من بيت المال .

٢- رجال الدولة : وهم الوزراء والولاة ومن لف لفهم من ارباب المناصب العالية :

ومعظم هؤلاء كانوا من الموالي وخصوصا الفرس كالبرامكة وآل الربيع وآل سهل وآل وهب وآل خاقان وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم .

وارتفع شأن الوزير في الدولة العباسية حينما ازدادت مهمات الدولة ، فقد اصبح الساعد الايمن للخليفة ومستشاره في جميع شؤون الدولة ، فكان له الحق في تنصيب العمال والجباة ، وكان يجمع الى ذلك مهمة الاشراف على الجيش وشؤون الحرب.

---

(١) زيدان (جرجي) - تاريخ التمدن الاسلامي -ج٥ص١١٧
(٢) حسن (حسن ابراهيم)- تاريخ الاسلام -ج٢ص٢٥٣
(٣) المسعودي- التنبيه والاشراف - المقدمة -

ويذكر لنا ابن طباطبا ان يعقوب بن داود عرض مواهبه على المهدي فاعجب به وولاه الوزارة وقربه اليه " فقربه وادناه . فسار يعرض عليه من المصالح والمهمات والنصائح الجليلة مالم يكن يعرض عليه من قبل " فاستحقه وكتب بانه اخوه في الله تعالى ، ، واستوزره ، وفوض اليه الامور كلها ، وسلم اليه الدواوين وقدمه على جميع الناس ، حتى قال بشار يهجوه :

بني امية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خلافة الله بين الناى والعود (١)

(يقصد ان المهدي بالغ في لهوه)

وعن المهام الجديدة التي اضطلع بها الوزير ، يقول ابن خلدون :
" فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت وعظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد ، تعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند . فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه ، واضيف اليه النظر فيه ، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون اسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور . وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع اليه ، فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان ايام الرشيد . . " (٢) ولكن استبداد الوزراء لم يظهر الا في بدايات القرن الثالث حينما تدهورت الحالة الاقتصادية والسياسية وكثرت المؤامرات من قبل الموالي في بلاطات الخلفاء ، فأصبح الصراع في قمة السلطة بين الخلفاء من ناحية والوزراء من ناحية ثانية ، " ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان اخرى وصار الوزير اذا استبد محتاجا الى استنابة الخليفة اياه لذلك ، لتصح الاحكام الشرعية " (٣) واصبحت الوزارة وزارة تفويض او وزارة تنفيذ ، الاولى يستبد فيها الوزير بالسلطة ولا يكون دور الخليفة الا شكليا والثانية هي الحال التي يكون فيها السلطان قائما على الامور بنفسه ، وقد ادى

---

(١) ابن طباطبا (المعروف بابن الطقطقا) - الفخري - ص ١٨٤ - بيروت ١٩٦٦ م
(٢) ابن خلدون (عبد الرحمان) - المقدمة - ص ٢٣٨ - ط ٤
(٣) ابن خلدون (عبد الرحمان) - المقدمة - ص ٢٣٩

استئثار الوزراء بالاموال الى حصول تنافس بينهم وبين قواد الجيش ، مما ادى الى تضعضع الاحوال الاقتصادية والاجتماعية ، فالتنافس كثيرا ماكان يؤدي الى سوء حال الطبقات الفقيرة . وينعكس ذلك على حالتها المعاشية عندما تبطل شؤون الدولة وتحتكر الاموال وتقطع الرواتب فتغلو الاسعار . وهذا ماحصل بالفعل في حالات ضعف الخلفاء وخاصة في اوائل القرن الرابع (حينما سيطر الوزراء والقواد على المقتدر (ابن المكتفي) ووقع الخلاف بين الوزراء والكتاب من جهة وبين رجال الجيش من جهة اخرى ، وفي هذا الخضم تبرز سلطة جديدة وهي سلطة الحريم وسلطة النساء اي ام الخليفة ومن يتبعها) (١) .

اما الولاة فهم الذين يديرون الامصار ، وقد عرفت بعض تلك الامصار تسمية الامير او العامل ولكنهم كانوا خاضعين للسلطة المركزية ، وهم على الغالب امراء حرب يقوم بمساعدتهم اصحاب الخراج ، تتلخص مهمتهم في تمثيل الخليفة رسميا بقيادة الجند والصلاة بالناس .

ب — الاشراف — وهم يحتلون مرتبة اخرى غير مرتبة الاسرة الحاكمة وغالبا ماتكون سلطة المشاركين منهم في السياسة غير مباشرة . يتكونون بشكل اساسي من ارباب البيوتات العربية والفارسية .

فبالنسبة للبيوتات العربية مثلت الاسر العربية ذات النسب العريق ، وخاصة التي تنتسب الى البيت الهاشمي ، مرتبة اجتماعية متقدمة ، وقد ظهر ذلك بازدياد ثروتها واتساع ملكيتها للارض ، وحضوتها من قبل الخلفاء ، ولكن تلك الحضوة كانت تتفاوت بتفاوت المرتبة في النسب وهكذا كانت حال العلويين مثلا تختلف عن حال العباسيين . وقد ظهرت فئة اخرى قريبة وان اختلفت مرتبتها وحالها المعاشية عن الفئات الاولى ، وهي فئة رؤساء القبائل العربية التي تمتعت باحترام الدولة بفضل قرابتهم من النسب النبوي او بقريش ، فشارك بعضهم في تقديم المشورة والنصيحة للخلفاء ، وشارك آخرون في جمع الجند المقاتلة للمشاركة في الحروب ، وكثيرا ماأشترك رؤساء القبائل في تسوية بعض الخلافات بفضل سلطتهم المعنوية لدى افراد قبائلهم الذين كانوا يدينون بالولاء لرؤسائهم في القبيلة والعشيرة اكثر من ولائهم لممثلي الخلافة . وقد عبر قيام رئيس القبيلة بجمع الضرائب من الفلاحين وارباب المواشي واهل القرى عامة عوضا عن الجباة الرسميين ، عن اهمية هذه الفئة التي لعبت دور الوسيط بين اجهزة الدولة ورعاياها من ابناء القبائل في الريف

---

(١) العش (يوسف) تاريخ عصر الخلافة العباسية ص ١٧١

اما بالنسبة للبيوتات الفارسية فقد حضيت هي ايضا بمكانة بارزة ، فقد تشيع ابناء الاكاسرة للعباسيين وتقربوا منهم فقربوهم اليهم ، والحقيقة ان تلك المشايعة كانت تخفي خطرا كبيرا على المجتمع اذ ان كثيرا من ابناء تلك البيوتات كانوا يتربصون بالعرب - بمختلف مواقعهم - ففضلوا التستر خوفا على انفسهم وحاولوا الدخول من اوسع الابواب للسيطرة على الخلافة ، حتى تحافظ الدولة على ثرواتهم الموروثة عن اجدادهم ، فقد ظهرت طبقة الدهاقين منذ عهد الامويين ، حيث كان دورهم يتمثل في الاشراف على الارض وجمع الضرائب في خراسان وبلاد فارس عموما . ويبدو ان الدولة فضلت ذلك الاجراء خشية خروج زعامات اولئك الاشراف عليها وضمانا لولائهم لها ومن جهة ثانية ، لخبرة الدهاقين بطبيعة الارض واوضاع الفلاحين في بلادهم ، وفضلا عن مهمة الدهاقين في جباية الاموال فقد نيطت بهم بعض المناصب الادارية الهامة .

جـ - التجار الكبار - وهم تجار السلع الثمينة كالمجوهرات والثياب الفاخرة وتجار الرقيق ، كانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرها ، وقد ظهر منهم الصيارفة والضاربون الذين كونوا فئة رأسمالية ، وكان منهم اليهود ، وازدادت اهميتهم حينما بدأوا يقرضون رجال الدولة بالمال . وقد تضخمت الثروة في ايدي التجار والصيارفة كابن الجصاص فأقبلوا على شراء الارض وهم الذين (فكروا في شراء تلك المستنقعات الواقعة بين البصرة وواسط ، وهي اراضي فيها مياه يستخرج منها الملح ، وهي مغطاة بالاعشاب والآجام فاشتروا العبيد من الصومال وزنجبار بأسعار رخيصة ، ووضعوهم في تلك الاراضي يجففونها ويستخرجون منها الاملاح ، ويزرعونها . .) (١) .

وكانت طبقة التجار معرضة للضرائب الكثيرة نتيجة تجزئة ارض الخلافة وصرف رؤوس اموالهم في شراء الاراضي ، كما كانوا معرضين لاجراءات المصادرة . وكنا قد تعرضنا في دراستنا للبنية الاقتصادية الى نماذج عن تلك المصادرات التي كان يلجأ اليها الخلفاء والوزراء في بدايات تسلط العنصر التركي على الخلافة وازدياد اهمية التجار وخطورتهم على الدولة .

ويذكر لنا مسكويه الدمار الذى اصاب الارض في تلك الفترة بسبب فوضى الجند

---

(١) العش (يوسف) تاريخ عصر الخلافة العباسية - ص ١٢١

التركي حينما كثرت البثوق في القنوات وخربت مساحات غير قليلة من الاراضي وبطلت العمارة عليها (١) وهذا مانعتقد انه سبب خسارة للتجار الذين اشتروا الاراضي فلم يكن لرؤوس اموالهم مردود هام لضعف مردود الارض .

وعرف التجار بتواطئهم ضد العامة ، اذ اعلنوا الطاعة للمأمون بعد انسحاب الامين فتواطأوا على العيارين لصالح طاهر (قائد المأمون) ، رغم ان هؤلاء الاخيرين هم الذين دافعوا عن بغداد ، الى جانب الامين ، ويقول الطبرى على لسان التجار في رسالتهم الموجهة الى المأمون :

" ومالنا بهم يدان ولا طاقة ولا نملك لانفسنا معهم شيئا ، وان بعضنا يرفع الحجر عن الطريق لما جاء فيه من الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف لو اقتدرنا على من في اقامته عن الطريق ، وتخليده السجن ، وتنفيته عن البلاد ، وحسم الشر والشغب ونفي الذعارة والطر والسرق ، وصلاح الدين والدنيا ، وحاشا الله ان يحاربك منا احد " (٢) . تلك الطبقات الموسرة التي يصح ان يطلق عليها - طبقة الارستقراطية والرأسمالية (تجار ، صيارفة ، جهابذة) ، تتصف بقيم اخلاقية ، ذات بعد طبقي واضح ، يصوره لنا الجاحظ ببراعة الاديب الساخر ، في حديثه عن سهل بن هارون الذى يدافع عن مذهبه ومذهب البخلاء ومحتكرى المال ، قائلا : " وعبتموني حين ختمت على سد عظيم * ، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رطبة غريبة ، على عبد نهم ، وصبي جشع ، وامة لكعاء وزوجة خرقاء ، وليس من أصل الادب ولا في ترتيب الحكم ، ولا في عادات القادة ولا في المركوب والناعم في كل فن ، واللباب من كل شكل ، التابع والمتبوع والسيد والمسود ، كما لا تستوى مواضعهم في المجلس ومواقع اسمائهم في القنوات ، وما يستقبلون به من التحيات . . " (٣) .

٢ـ الطبقة الوسطى :

وتتكون من الكتاب والموظفين واهل الصناعات والحرف الى جانب قادة الجند (في الفترة الاولى) والشيء الذى تلتقي حوله هذه الفئات هو اقترابها

---

(١) مسكويه - تجارب الامم - ص ٩٧ ـ ٢
(٢) الطبرى (ابو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك - ٨ ص ٤٦٧ / ٤٦٨
* الختم على السد : بأن يوضع على فمه قطعة من الطين ، ثم يختم عليها ،
(٣) الجاحظ (ابو عثمان عمرو بن بحر) - كتاب البخلاء - ج ١ ص ٣٦

من السلطة وترفعها عن العامة ، كما ان امكانياتها الاقتصادية متشابهة ، وتخضع هذه الطبقات اكثر من غيرها الى الحركية الاجتماعية ، فتصنيف افرادها يرتبط بتغيرات كبيرة في اوضاعهم كالترقي والانحدار تبعا لحالة المشاركة في السلطة وامكانياتهم في التمتع بالثروة .

ويعبر الغزالي - الذى ينتمي الى ذلك العصر ، عن تلك الطبقات الوسطى او " الوسيطة " بعبارة " المترددين بين الطائفتين " قاصدا المرتبة التي تحتلها فئات الموظفين " العمال والجباة وامثالهم " جامعوا الثروة وموزعوها ، بين فئات المنتجين (في الغذاء والملبس والمسكن) وبين فئات المسكريين الذين يدافعون (ضد العدو الخارجي وضد السارقين) (١) . ولعله لم يستطع ان يوضح دور فئة التجار في تلك المرتبة الوسيطة .

بالنسبة للدور الذى اكتسبته فئات المسكريين ، في اطار تلك الحركية الاجتماعية ، فلم يبرز الا في المرحلة الاخيرة حينما تنامى دور القادة المسكريين في السلطة وانتقالهم الى طبقات الخاصة .

وعند الحديث عن الطبقة الوسطى لابد لنا من بعض التفصيل . فالكتاب (المثقفون) لم يكونوا بنفس المرتبة الاجتماعية ، فهناك الكتاب الموالون للسلطة ، وهناك الكتاب المعارضون واغلبهم من اصول فقيرة . فقد ظهرت فئة واسعة من الشعراء والادباء والفقهاء والمتكلمين والعلماء . ارتبطت حياتها برجال الدولة ، وكان ترددهم على البلاطات وخدمتهم المستمرة للخليفة او الوزير ، واعوانهما ، يمثل مصدرا اساسيا لرزقهم . اما جماعات الشعراء فكانت اكثر ارتيادا لتلك الابواب . وتقدم لنا كتب التاريخ والادب شواهد لا تحصى حول تفشي تلك الظاهرة التي أدت الى تنازع الوزراء والولاة في اكتساب الادباء والعلماء " الدنيويين " ، وقد انعكس ذلك ايجابيا على ازدهار الحياة الثقافية واتساع الانتاج الادبي والعلمي فكثرت المناظرات وتشكلت بعض الاتجاهات المتعارضة في الثقافة . وأدت تلك الحركة ، حسب رأينا ، الى مدنا بمصادر مختلفة تعبر عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وبالرغم من تضارب بعض الاخبار والبيانات فيها ، فانها استطاعت ان

---

(١) الغزالي (ابو حامد) - احياء علوم الدين - ج ٣ ص ١٩٦

تفيدنا في التعرف على اهم الوقائع والظواهر والمعارف ، التي شهدها العصر.
وفي ذلك الارتباط الذى ظهر بين الكتاب والعلماء وبين الحكام ، يقول احمد امين :
" وقل ان تجد عالما في ذلك العصر في علم من هذه العلوم الا كان له امير او غني يمده بمعونته ، ولذلك كانوا نسبيا في سعة من العيش ، اما العلم الديني فقد نما وازدهر خارج القصور كعلم التفسير والحديث ." (١)
ولم يكن مصطلح الكتاب مقتصرا على ماذهبنا اليه في الفقرة السابقة فقط ، لان ادبيات العصر تضمن ذلك المصطلح معنى آخر ، هو معنى الكتابة في اجهـزة الدولة . اى انه يعني فئة الموظفين المختصين في اعمال الدواوين ، انهم الكتاب المسئولون ، الذين يقومون على رأس اجهزة ادارات الدولة ، ويمكننا ان نطلـق عليهم تجاوزا ، بالمعنى الحديث ، (أمناء السر) او (رؤساء الدوائر في الوزارات) وقد ربطنا بين تينك الفئتين لالتقائهما في مستوى الدخل من ناحية ، ولكون كتاب الدواوين ينحدرون ، في الغالب ، من فئة المثقفين الذين يتقنون الكتابـــة والتسجيل (القلم) من ناحية اخرى .
اضافة الى ماسبق فان فئات الكتاب العاملين مع الدولة تميزوا في الفترة الوسيطة بملكياتهم العقارية المتأتية عن الاقطاع او الهبة او المكافأة .
وكان ازدياد مهمات الدولة في العصر العباسي ، وتطور اجهزتها واتساعها ، يؤدى الى ازدياد عدد الموظفين ، مما كون طبقة بيروقراطية واسعة عبر عنها تعدد الدواوين ، وقد حصر لنا الخربوطلي (٢) تلك الدواوين فيما يلي :

١- ديوان الخراج	٩- ديوان الزمام (المحاسبة)
٢- ديوان الزمام	١٠- ديوان الديـــة
٣- ديوان الموالي	١١- ديوان الجنـــد
٤- ديوان البريد	١٢- ديوان زمام النفقات
٥- ديوان الرسائل	١٣- ديوان النظر في المظالم
٦- ديوان الاحداث والشرطة	١٤- ديوان العطـــاء

---

(١) امين (احمد) - ضحى الاسلام - جد١ ص١٣٦
(٢) الخربوطلي (علي حسين) - المهدى العباسي - ص١٢٠-

٧- ديـــوان الحوائـــج
٨- ديوان المنح او المقايضة
١٥- ديوان الاحشــــام
١٦- ديوان الاكرة (يشرف على الترع والجسور وشؤون الــري)
١٧- ديوان الجهبذة (الذي ينظر في شؤون اهــل الذمــة)

- وبالاضافة الى كتاب الدواوين نجد الجباة واعوان البريد والقضاة ورجال الشرطة. غير ان الحدود الدنيا من تلك الفئات الاجتماعية ، التي تشكل الطبقة الوسطى ، لم تكن واضحةالمعالم لانها تتقـاطع مع طبقة العامة (انظر شكل ٢) .

فجماعات الاعوان والجنود وجماعات الحرفيين والادباء المعارضون ، يقتربون فـي انتمائهم الاجتماعي الى طبقة العامة اكثر من اقترابهم الى الفئات العليا من الطبقة الوسطى ، وتلك حقيقة لا نزال نلمس معالمها في التركيب الطبقي للمجتمعات - المعاصرة.

شكل (٢)

ويدخل في الفئات الدنيا فئات الحرفيين . وكذلك المثقفون الذين رفضوا التزلف والترقي بالباطل ، فأصابتهم الخصاصة ،رغم ان احوالهم المعاشية كانت متوســطة سابقا . يؤكد ابن خلدون ذلك في قوله :

" وان اكثر اهل الثروة والسعادة بهذا التملق (للسلطة واصحاب الجاه) ، ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون في التكسب على اعمالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة " (١) كما يذكر ان غالبية القائمين على امور الدين والقضاء والتعليم لا تعظم ثروتهم لطبيعة مهنهم وانهما كهم في العمل المخلص. ويستشهد على ذلك بما وقع بيده من كشوفات لبعض الدواوين ترجع الى عصر المأمون ،

---

(١) ابن خلدون - المقدمة - ص ٣٩١

تشتمل على كثير من الدخل والخرج ومن بينها بيانات عن ارزاق تلك الجماعـــات (١)

وكدليل آخر على المرونة التي تتصف بها حدود الطبقات ان فئة قادة الجيش تبوأت مكانة بارزة في طبقة الخاصة في المرحلة العباسية الوسيطة ، اى عندما توطـــد الاقطاع العسكري ، بعدما كانت اوضاعها المادية متوسطة في المرحلة الاولـــى ، فكانت لا تدخل في طبقة الخاصـــة .

اما الفئة الاجتماعية الاخرى التابعة للطبقة الوسطى فهي : (اهل الصناعات) وتتكون من اصحاب المعامل واصحاب الحرف المتوسطة . اما الحرفيون الصـــغار ذووا الانتاج الاستهلاكي المحدود فهم اكثر انتماءا ، من حيث دخلهم ، الـــى طبقة العامة ، وتشمل فئة الصناع صانعي الادوية والعقاقير ، ومنتجي السكر (٢) ، وصانعي المعادن ، وصانعي الزجاج والخزف والاقمشة المحلية . اما الحرفيـــون فشملوا العطارين والقصابين والبزازين والحدادين والنجارين والحذائين وغيرهـــم . وكنا قد اشرنا الى اهتمام المهدي بتنظيم اسواق بغداد وجعله لكل حرفة سوقـــا خاصا بهـــا .

يقول ابو الفضل الدمشقي :" واما الصنائع العملية ، وهي المهن ، فقد قيل قديما : الصناعة في الكف امان من الفقر وامان من الغنى . وذلك ان الصانع بيـــده لا يكاد كسبه يقصر عن اقامة ما لا بد منه ، ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة او عقـد نعمة . وايضا فانه مع ذلك اذا ميز الناس دخل في أدون طبقاتهم " (٣) .

---

(١) ابن خلدون - المقدمة - ص٣٩٣ - ٣٩٤

(٢) دائرة المعارف البريطانية - مادة سكر (وفيها اشارة الى ان العرب هـــم الذين طوروا صناعة السكر وتفوقوا فيها ونقلوها من شرقي آسيا الى افريقيـــا الشمالية وجنوبي (اوروبا) .

(٣) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري - ص٦٢

ومن المفيد في هذا المجال استعراض تصنيف الغزالي للصناعات ، لان ذلك يدل على وجود فئات اجتماعية واسعة وراء تلك الصناعات ، وهذا التصنيف سيفيدنا ايضا في دراسة طبقة العامة .

(١) تفاصيل اشغال الدنيـــا

الحـــرف الصناعات الاعمـــال

(٢) اصول الصناعات واوائل الاشغال

الفلاحة الرعاية الاقتناص الحياكة البنـــاء

(٣) تلك الاصول ادت الى الحاجة الى ادوات من

نباة اخشاب معادن جلـــود

(٤) ادت الى الحاجة لثلاثة انواع اخر من الصناعات

النجـــارة الحـــدادة الخـــرز

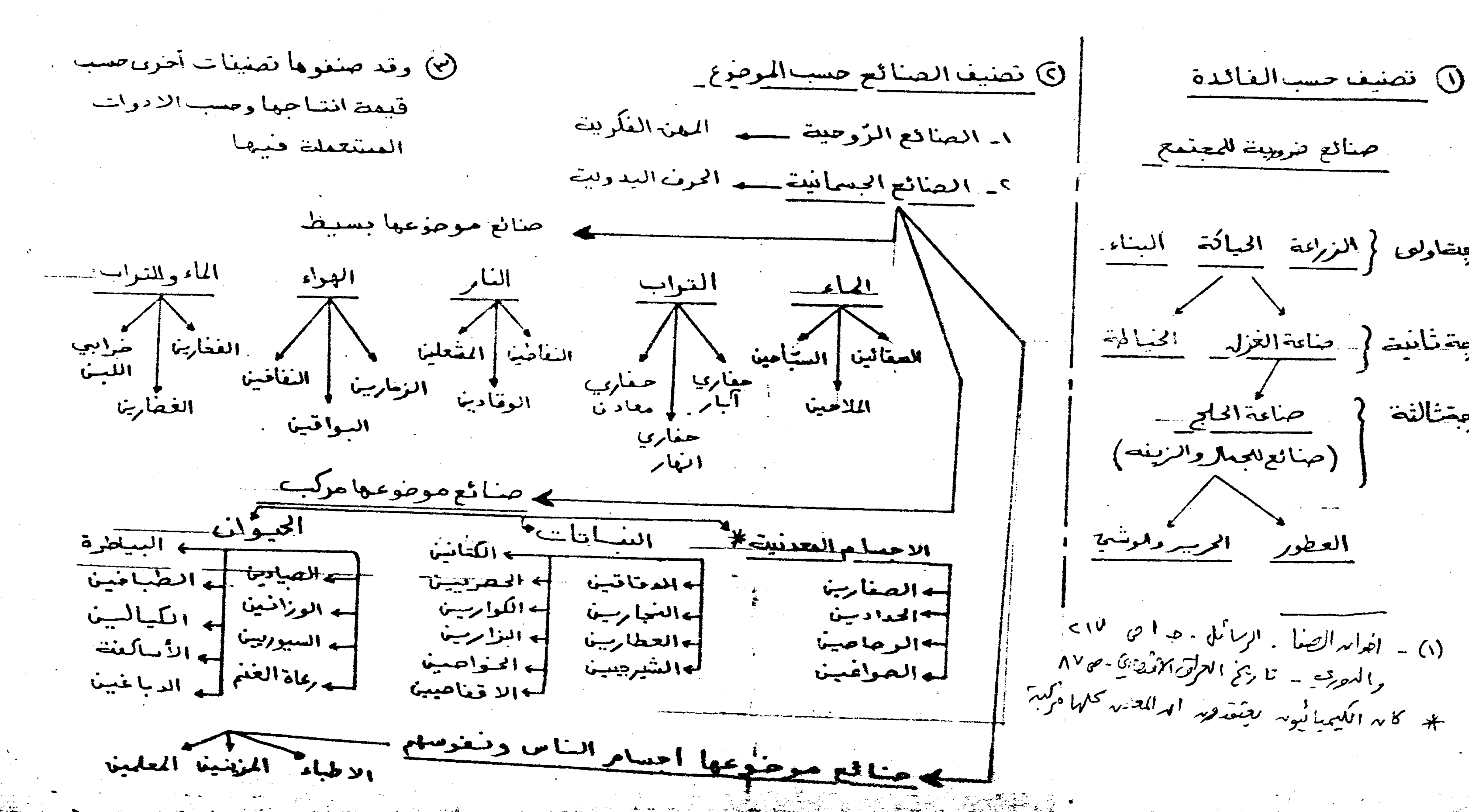
(عمال النجارة) (عمال الحدادة) (عمال الجلود)

(١)

ومن المفيد ايضا استعراض رأى اخوان الصفا في تصنيف الصنائع والحرف.

---

(١) الغزالي – احياء علوم الدين – جـ ٣ ، ص ١٩٥


تصنيف أخوان الصفا للصنائع والحرف (١)
① تصنيف حسب الفائدة
صنائع ضرورية للمجتمع
الزراعة
الحياكة
البناء
صناعة الغزل
الخياطة
صناعة الحالج
(صنائع للجمال والزينه)
العطور
الحرير والوشي
② تصنيف الصنائع حسب الموضوع
١- الصنائع الرّوحية ← المهن الفكرية
٢- الصنائع الجسمانية ← الحرف اليدوية
صنائع موضوعها بسيط
الماء
الصقائين
السبّاحين
الملاحين
التراب
حفاري آبار
حفاري معادن
حفاري النهار
النار
النفاطين
المشعلين
الوقادين
الهواء
الزمارين
النفافين
البواقين
الماء والتراب
الفخارين
ضرابي اللبن
الغضارين
صنائع موضوعها مركب
الاجسام المعدنية *
الصفارين
الحدادين
الرصاصين
الصواغين
النباتات
الدقاقين
النجارين
العطارين
الشيرجيين
الكتانين
الحصريين
الكوارين
الزارين
الخواصين
الاقفاصيين
الحيوان
الصيادين
الوزانين
السيورين
رعاة الغنم
البياطرة
الطباخين
الكيالين
الأساكفة
الدباغين
صنائع موضوعها اجسام الناس ونفوسهم
الاطباء
المزينين
المعلمين
③ وقد صنفوها تصنيفات أخرى حسب قيمة انتاجها وحسب الادوات المستعملة فيها
(١) - اخوان الصفا . الرسائل . ج ١ ص ٢١٧
والدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص ٨٧
* كان الكيميائيون يعتقدون ان المعادن كلها مركبة

(٣) طبقـــة العامـــة

وهي الطبقة الفقيرة المستغلة تضم الفلاحين المنتجين ومربي الماشــية وصغار الحرفيين ، والعمال (بالاجر والسمين) ، والباعة المتجولين ، واصحــاب الدكاكين والعبيد في الاعمال المدنيــة والزراعية ، والجنود ، وجماعات الشــطار والعيارين وغيرهم من العاطلين عن العمل .

وتتميز هذه الفئات الاجتماعيةبوحدة حالتها المعيشية نسبيا ،وبأنها ليست مؤهلة للمشــاركة في الحكم - حسب رأي الخاصة .

وتتميز حياتهم بالفقر والجهل . اما الجهل فهو بسبب النقص في التعليم والثقافــة العامة ، وقد اطلق لفظ " عامي " على اللذين يلحنون في لفظ العربية ، كما اطلــق على بعض التجار مثل ابن الجصاص الذى وصفه الوزير ابن الفرات (في القرن الرابع) بأنه " رقيع عامي " (١) . وهذا الاستعمال شاذ حسب رأينا ، يدل على تأنيب ، لان المفروض في التجار آنذاك ان يكونوا " مثقفين " لما لديهم من امكانيات تيســر عليهم التعلم والمعرفة .

كما تميزت الحالة الاقتصادية والاجتماعية للعامة بالتدهور المستمر مما ادى الى سريان التذمر في صفوف الفلاحين والعمال والحرفيين . وكان لذلك اثره الواضح في دفع الحركات السياسية المعارضة على الاهتمام بتلك القاعدة الاجتماعية العريضة . فحاولت اشراك العامة في الانتفاضات التي قادتها ضد الدولة العباسية . ولكــن درجة الاستجابة كانت مرتبطة بمستوى تطور الوعي الاجتماعي لدى فئات العامة ومدى احساسها بالمسألة الاجتماعية . لذلك كانت درجة المشاركة متفاوتة .

ولعل اتساع رقعة الدولة ،واستقرار معظم المزارعين في الريف لم يكن يساعد على ضــم الجهود وتدارس الاوضاع الاجتماعية ، الا اذا استثنينا فئة الحرفيين من المدن ، اولئك الذين شكلوا تنظيمات حرفية سميت " بالاصناف " ، وقد دافعت تلك التنظيمات عن حقوق المنضوين فيها ، وعملت على تنظيم علاقتهم بالدولة . كما عرفت حركة الشطار والعيارين ،في اواخر القرن الثالث ومابعده ،شيئا من ذلك التنظيم .

---

(١) فهد (بدرى محمد) - العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري . ص ١٦٣

اما المزارعون من اصحاب الاراضي الصغيرة فكانوا اكثر الفئات المنتجة تعرضا للاستغلال لان اراضيهم كانت تشكل عبئا كبيرا عليهم اثناء ازدياد الضرائـــب او في حال تفويض التصرف في شؤونهم للقادة العسكريين والموظفين الكبار ، وقـد ادى ذلك الى تخليهم عن اراضيهم وتحولهم الى عمال زراعيين . وظهرت فئــة واسعة من العمال المياومين الذين تنصب اعمالهم على بناء منشآت الدولة كالسدود والدور والقصور . وهم يتبعون كل ديوان حسب الاختصاص .

يقول حسن ابراهيم :" وقد جعل العباسيون لماء الري بصرو ديوانا اطلقوا عليه " ديوان الماء " ، ويشرف على هذا الديوان موظف كبير يعاونه اكثر من " ١٠ آلاف عامل"(١)

اما العبيد فان حالتهم المدنية تسمح لهم بالتمتع بالملكية الخاصة ، ولكنهم كانوا اكثر حظا من السابق بفضل التشريعات القانونية التي تتصل بحقوقهم وواجباتهم. ومن خلال النظرة الفقهية القانونية الى الرق فان ذلك النظام اخذ بعدا جديـدا حينما اصبحت اهلية العبد ترتبط بموقفه العقائدى ، فقد عرف الفقهاء المسلمون الرق ، آنذاك ،بأنه : " عجز حكمي شرعي في الاصل جزاء عن الكفر" (٢). وترجع تسمية حالته " بانها" عجز " الى ان الرقيق لا يملك مايملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما .

ومن جهة اخرى فان مايميز العبد العربي عن العبد اليوناني ، مثلا ،ان العبـد في المجتمع العربي قام بدور ثقافي محدد ،فضلا عن دوره كأداة للانتاج المادى ، ويعتبر امتلاكه الدور الثقافي مدخلا لتسرب الوعي الاجتماعي في صفوف العبيد ، و " اثارة لقضية ديمقراطية الثقافة والتثقيف" كما يقول التيزيني (٣) التي عبر عنهـا الفلاسفة آنذاك في (مدنهم الفاضلة). وقد انعكست اهمية الدور الثقافي الذى حصل عليه العبيد في المستوى الاجتماعي ، بفضل نضالهم ، عندما شاركوا في انتفاضـات العامة ،وخاصة في " حركة الزنج" .

---

(١) حسن (حسن ابراهيم) - تاريخ الاسلام -ج٣ ص ٣٢٠
(٢) الخربوطلي (علي حسني) - . ثورات في الاسلام . ص١٧٨
(٣) التيزيني (طيب) - من التراث الى الثورة -ط٣ ،ص ٨٣٤

وكانت فئة العبيد معرضة ايضا لفعل (الحركية الاجتماعية) . فهي تتقلص حين يمنح الارقاء الحرية فينتفي عنهم واقع العبودية ، ويتحولون الى الفئات الاخرى كالعمال والمزارعين الاحرار ، وهي تزداد بازدياد عدد الارقاء المجلوبين من البلاد البعيدة (في مرحلة نمو التجارة الخارجية) ، وسرعان ما تتحول اوضاعهم، كغيرهم ، بفعل عمليات العتق التي تحدث كل يوم ، او بفعل عمليات الزواج والاختلاط والمشاركة في الثورات .

وتشير المصادر التاريخية العائدة للعصر العباسي الى النمو السكاني الكبير الذى شهدته المدن ، اذ انها ازدحمت بجماعات الباعة والحمالين والحمالين والسقائين، وكذلك بجماعات الشطار والعيارين وغيرهم من الذين ليس لهم " بالكرخ دور ولا عقار ، وانما هم بين طرار * وسوّاط ونطاق واهل سجون وانما مأواهم الحمامات والمساجد ، والتجار منهم انما هم باعة الطريق ، يتجرون في محقرات البيوع قد ضاقت بهم طرق المسلمين .. " (١) من خلال هذه العبارات ، وغيرها ، يتبين لنا مدى الحقد الذى كانت تكنه الطبقة الارستقراطية ، وخاصة التجار ، تجاه الفقراء الذين ضاقت بهم الحياة فتركوا الزراعة وتجمعوا في المدن الكبيرة حيث تكثر اعمال التجارة والصناعة والخدمات التي كان الفقراء يكتسبون من نفاياتها .

ولننظر ايضا الى نظرة " الخاصة " الى " العامة " حينما نسف الغزالي (وهو موقف سياقه الصراع المذهبي والفكرى) اتباع المذهب الباطني بأنهم " طائفة ضعفت عقولهم وقلت بصائرهم وسخفت في امور الدين اراؤهم لما جبلوا عليه من البلـــــه والبلادة ، مثل السواد وافجاج العرب والاكراد وجفاة الاعاجم وسفهاء الاحداث ، ولعل هذا الصنف هم اكثر الناس عددا " . (٢)

---

* – في اللسان : " الطر : القطع " ، وربما كان الطرار هنا هو قاطع الطريق .
و" السواط والنطاف : هو الضارب بالسوط " .

(١) الطبرى (ابو جعفر محمد بن جرير) – تاريخ الرسل والملوك ج٨ ص٤٦٧

(٢) الغزالي (ابو حامد) – فضائح الباطنية – ص٣٣ ومايليها .

(ب) التقسيم الاجتماعي القائم على النسب

كان تقسيم الجماعات حسب انتماءاتها القبلية والاقوامية يحتل مكانة بارزة في التراث الفكري للمجتمع العربي الاسلامي . ولكن ذلك التقسيم لم يكن مفصولا عن التقسيم الطبقي ، حيث اننا نجد تداخلا في اسس الانتماء الاجتماعي لدى كتاب تلك المرحلة .

فنحن لا نستطيع اغفال دور القبائل التي كانت تمثل جماعات مغلقة ، وتتميز بانظمة داخلية متينة ، تربطها ببعضها علاقات واضحة كما عرفت تلك العلاقات (القبلية) حالات مختلفة تتراوح بين الصراع والتعاون والتحالف ، كما ترتبط مع الدولة بعلاقات مشابهة تتضح من خلال ضعف العلاقة الفردية (افراد القبيلة) بالسلطة العباسية .

ولكن صفة الانغلاق لم تكن بمثل ماكانت عليه في المراحل السابقة ، فالتطورات الجديدة خلقت مجالا لانتقال القبائل العربية الى الامصار ، وتغيرا في انماط عيشها باختلاطها مع القبائل والشعوب الاخرى . ولكن مانقصده من صفة الانغلاق ، ان تلك التطورات لم تستطع القضاء على دور العصبية القبلية (بالنسبة للعرب) والعصبية الاقوامية (بالنسبة للموالي) نهائيا .

كما كانت ظواهر الصراع والمواجهة تمثل عاملا اساسيا في استمرار تلك الجماعات وتفوقها . حيث لم تؤد العمليات التجارية او ظهور الحرف الى تفكك واضح في البناء العشائري القبلي .

وتلك الحالات في المستوى الاجتماعي هي التي حافظت على استمرار مقاييس الجاه والنسب للمشاركة في السلطة . فالناس لا يستطيعون النفاذ الى الوظائف الممتازة الا بقدر مرتبتهم في النسب - العربي والفارسي - المتعارف عليه لدى السلطة العباسية على الاقل . ذلك ان مرتبة فيها جاه عريض تؤدى بالضرورة الى اكتساب الثروة . في حين ان الثروة وحدها لا تؤدى بالضرورة للوصول الى مرتبة معينة .

ويذكر الفارابي اهمية النسب لدى طبقة العامة فيقول : " فبعضهم يطلب اليسار .. ولا يمتنع متى كان محبا للكرامة بأى شيء ما اتفق ان يجعل لنفسه حسبا ولولده من بعده ..." (١) .

---

(١) الفارابي (ابو نصر) - كتاب السياسة المدنية - ص ٩٢ ، ٩٣

واذا كان النسب والشرف لدى العرب يقومان على اساس العلاقة بـ" العرب " و" قريش" و" الهاشميين " ، فانهما يتخذان لدى الفرس والترك اساسا آخر، يقوم على الرسوخ في ولاء الدولة العباسية. يقول ابن خلدون ان الموالي " انما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الاباء في ولايتها ، الا ترى الى موالي الاتراك في دولتي العباس والى بني برمك من قبلهم وبني نوبخت كيف ادركوا البيت والشرف وبنوا المجد والاصالة بالرسوخ في ولاء الدولة. " (١).

ويقول المستشرق رودنسون : (ومعلوم كم كانت شدة الحرب الكلامية حول هذه المسائل في العصر العباسي . وفي مختلف الدول التي توزعت فيها الامة ، كان العرق الذى تنتسب اليه الاسرة الحاكمة هو العرق صاحب الامتياز بصفة عامة في الواقع ، وكان يتمتع بنفوذ اعلى ، على الاقل من وجهة نظر معينة . وهكذا فان الانتماء العرقي ، يقدم نوعا من معيار التنضيد ، محددا ارستقراطية معينة" (٢)

ومما يسترعي انتباهنا ان هذا المعيار القائم على النسب القبلي والعرقي لا يعطي اهمية في تناوله لحياة الطبقات الفقيرة من تلك الاقوام والقبائل ، بل انه مفهوم يكرس فقرها ويحقر من شأنها . فهو بطبيعته معيار الطبقة الارستقراطية الرامي ، حسب رأينا ، الى تغييب الفوارق الاساسية في المعاش والمشاركة السياسية .

ولا نعتقد ان كادحي المجتمع كانوا يولون اهتماما كبيرا بتلك الصراعات بين الارستقراطيات : العربية والفارسية والتركية وغيرها ، التي تصدى لها الكتاب في المستوى الثقافي (ظاهرة الشعوبية) . بل انهم كانوا غارقين في الارتزاق الذى تسيطر عليه الطبقات الغنية .

- وهكذا نكون قد درسنا التركيبة الاجتماعية العباسية ، معتقدين اننا حاولنا تسليط الضوء على طبقاتها الرئيسية ، مؤمنين بان تلك الدراسة لابد ان تكتنفها بعض الصعوبات الراجعة الى اتساع المرحلة المدروسة وكثرة الاحداث الطارئة فيها ، وتشعب مقاييس الانتماء الاجتماعي في ادبيات العصر العباسي . ورغم ذلك فقد حاولنا اعطاء فكرة مفصلة عن مفهوم التركيب الاجتماعي ، واجتهدنا في تبويب الفئات

---

(١) ابن خلدون - المقدمة - ص ١٣٦

(٢) رودنسون (مكسيم) - نفس المرجع - ص ١٥

الاجتماعية (دراسة عرضنا اهم المقاييس المعتمدة في ذلك العصر ، وربطنا المقياس الاهم ، بنظرنا ، بما توصل اليه العلم الاجتماعي الحديث ، فكنا فيه اكثر تفصيلا ودراسة (وهو التقسيم القائم على الموقع من الملكية والسلطة) ، ولاحظنا ان حدود الطبقات غير واضحة المعالم بسبب التغيرات السياسية والاقتصاديـــــة والقانونيـــة .

ولاحظنا ان ظاهرة الانغلاق في بعض الجماعات ارتبطت بمفهوم النسب ، ووجدنا ان ذلك تجسد في جماعات القبائل والعشائر .

ومما يلاحظ ان السلم الاجتماعي لم يعرف انقلابا في وضعه ، بل ظل قائما علـــى مدى طول العصور العباسية ، ولكن الحركة الاجتماعية كانت سارية دائما ، غيـــر انها لم تحدث تخلخلا في البناء الاجتماعي ، سوى في عملية انتقال بعض الفئات الاجتماعية وخاصة في الطبقة الوسطى ، اما طبقة العامة فهي مستغلة ، فقيـــرة ، مبعدة ، وقد عرفت اشكالا من الوعي متطورة بالنسبة لعصرها ، تمثلت في مشاركتها في الانتفاضات الاجتماعية والحركات السياسية . وقد بلغ التطور الحاصل فـــي تجمعات المدن الى مستوى ظهور التنظيمات الاجتماعية وخاصة الحرفية منها .

ولكن نظرة الاستعلاء التي وجهتها الارستقراطية الى العامة كانت تقوم علـــى الترفع والاستعلاء لتكريس استغلالها وتغييب وعيها .

اما التقسيم القائم على النسب القبلي والعرقي فقد ظهر بارزا في كتابات المؤلفين آنذاك ، واستمر وجوده من خلال الصراع القائم بين الارستقراطيات ذات الانساب المختلفة فتتميز بالصراع على السلطة والثروة . وبدا ذلك النوع من الصراع اكثـــر وضوحا مما كان عليه دور التجمعات القبلية التي اخذت تترك مكانها ، في المرحلـــة الاخيرة ، لاشكال اخرى من التجمعات كانت اكثر تلاؤما مع الواقع الجديد .

الفصـــــل الثانــــــــــي

الصـــراع الســـياســـي

مقدمة : كان لابد لتطور الحضارة الجديدة وتطورها في جميع المجالات ، من ان يحمل معه بعض المشكلات الجديدة ، فضلا عن اتساع رقعة الدولة ودخول شعوب كثيرة تحت لوائها .

وكانت المعارضة السياسية داخل السلطة العباسية وخارجها تمثل جزءا من تلك المشكلات ، بل كانت المعبر الحقيقي عنها ، لان الصراع السياسي كان مرتبطا بالصراعات الفكرية من جهة ، وبالصراعات الاجتماعية من جهة اخرى ، وهكذا فان دور المعارضة كان بمثابة تعبير عن الموقف من المجتمع والدولة بفعالياتهما الجديدة وتفاعلهما المستمر ، وبالتالي فهو بالنسبة لنا موقف يعبر عن كثير من الجوانب الخفية في حياة المجتمع العربي الاسلامي ، التي ظلت غامضة زمنا طويلا بفعل مؤثرات الكتابة التاريخية والاحداث العصبية اللاحقة التي عملت على طمس افكار المعارضين واخبارهم .

الوضع السياسي :

في سنة ١٣٣هـ احتج احد الثوار ببخارى على مظالم العباسيين وممثليهم قائلا :

" ماعلى هذا اتبعنا آل محمد ، على ان نسفك الدماء ونعمل بغير الحق "

وتبعه على رأيه اكثر من ثلاثين الفا ، فوجه اليه ابو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله فقتله . (١)

ظل الفلاحون في بلاد فارس يرزحون تحت سلطة الاقطاعيين (الدهاقنة) الذين ابقت الدولة على امتيازاتهم وكلفوا بجباية الضرائب وفرض المكوس . تلك الحالة عمقت من اتساع الهوة بين الارستقراطية الحاكمة وبين طبقة العامة فاستفحل امر المعارضة وكثرت الانتفاضات الشعبية ، فالفلاحون الذين ساهموا في الدعوة العباسية وناصروها في حربها على الامويين ، انتقلوا الى صفوف المعارضة الاجتماعية والسياسية بمجرد انتقال العباسيين الى ممارسة لم يألفوها في مبادئ دعوتهم . وهكذا انكشفت لهؤلاء سياسة العباسيين في الانفراد بالحكم واستمرار الحالة الاجتماعية والاقتصادية على ماكانت عليه سابقا . وفي ذلك يقول الشاعر ابو العطار .

ياليت جور بني مروان عاد لنا   ياليت عدل بني العباس في النار (٢)

---

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - جـ٧ ص ٤٥٩
اليعقوبي - التاريخ - جـ ٢ ص ٣٠٧
(٢) الاصفهاني - الاغاني - جـ١٦ - ص٨٤ (ذكره قاسم العزيز ص٧١)

ومما ادى الى سوء الحالة السياسية والاجتماعية ، استفحال سلطة الفرد منذ بداياء الدولة العباسية ، واحاطة الخليفة بمباهج الخلافة وابهة الحكم، فقد اصبحت هذه الخلافة تستند الى اساس جديد هو (الحق الالهي) فضلا عن (حق الارث) . واذا كان الاساس الاخير اصبح مألوفا منذ العصر الاموى فان اساس (الحق الالهي) لم يألفه الحكم العربي قديما حينما كان يعتمد على مبدأ الشورى المستند الى رأى الجماعة .

يقول ابو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، في احدى خطبه ببغداد : " ايها الناس ، انما انا سلطان الله في أرضه ، اسوسكم بتوفيقه وتسديده وانا خازنه على فيئه ، اعمل بمشيئته ، واقسمه بارادته ، واعطيه باذنه قد جعلني الله عليه قفلا ، اذا شاء ان يفتحني لاعطياتكم وقسم فيئكم وارزاقكم فتحني ، واذا شاء ان يقفلني اقفلني ، فارغبوا الى الله ايها الناس ، وسلوه في هذا اليوم الشريف " (١)

ويقول المهدى قاصدا احد وزرائه :" محمد بن برز القسي نائبنا في البلاد والعباد ، فمن اطاعه اطاعنا ومن اطاعنا فقد اطاع الله ومن اطاع الله ادخله الجنة ، ومن عصاه فقد عصانا ومن عصانا فقد عصا الله " (٢)

وكان لا تصاف الحكم بتلك الخصائص ، الاثر الخطير على الدولة ، والشعب بشكل خاص وان كان ظاهر الامر يدل على ان قوة الخليفة وجمعه للسلطتين الدينية والدنيوية قد مكنا الدولة العباسية من بسط نفوذها وحزم امورها ، لكن ذلك في الحقيقة، لم يكن ليستر امام غضب العامة والخاصة من التصرفات الفردية التي ادت الى البطش بكل معارض . واذا كانت اجراءات الخليفة لا تعارض فان اكثر ما يمكن ان يجرى ، هو ان تقدم له النصيحة من قبل بعض اقربائه وشيعته ، ولم تكن عادة جمع الموظفين والمستشارين حول الخلفاء الاوائل سوى نوع من بهرجة الحكم . اذ تفشى التزلف والمباراة بين تلك الطبقة الناشئة المستفيدة من اعطيات الخلفاء ، واصبح ذلك اساسا في علاقة الطرفين .

---

(١) الطبرى - نفس المصدر - ج ٨ ص ٨٩
(٢) العياش (سامي) - الاسماعيليون في المرحلة القرمطية ص٢٢

ولعل هذه الرواية تدلنا على تفرد الحاكم بالحكم ورفضه لمناقشة اعوانه ،كما تظهر فيها شدة النقمة على المعارضين :

كتب ابو جعفر المنصور الى سلم بن قتيبة الباهلي واليه على البصرة يأمره بهدم دور من خرج مع ابراهيم العلوى ، وعقر نخلهم ،فكتب اليه واليه متسائلاً" بأى ذلك أبدا ؟ أبالدور ام بالنخل ؟ فكتب اليه ابو جعفر : اما بعد ،فقد كتبت اليك آمرك بافساد تمرهم ، فكتبت تستأذنني في اية تبدأ به بالبرني ام بالشهريز *! وعزله وولى محمد بن سليمان ." (١)

ويتذمر احد اتباع المعارضة العلوية من سياسة العباسيين ويسخط على حكمهم فيقول : " اللهم قد صار فيؤنا دولة بعد القسمة وامارتنا غلبة بعد المشورة وعهدنا ميراثا بعد الاختيار للامة ، واشتريت الملاهي والمعارف بسهم اليتيم والارملة ، وحكم في ابشار المسلمين اهل الذمة وتولى القيام باموره فاسق كل محلة . اللهم قد استحصد زرع الباطل وبلغ نهيته واستجمع طريده . اللهم فافتح له يدا من الحق حاصدة تبدد شمله وتفرق امره ليظهر الحق في احسن صوره واتم نوره " (٢) .

ليست تلك الشواهد القليلة سوى عينة من جملة الشواهد الكثيرة المعبرة عن حالة الاستياء من الحكم العباسي . وفيها صورة اولية عن المسائل الهامة التي بررت نشوء المعارضة . ولكننا سنتعرض الى تفصيل ذلك من خلال دراستنا لمواقف المعارضة السياسية ، واستعراضنا لاسباب قيام الثورات وموقف الدولة من حركة الاحتجاج والمعارضة .

ويبدو بالملاحظة ان المرحلة العباسية الاولى عرفت مواقف من قبل الخلفاء تدل على الاحساس بخطر المعارضة ، والاقرار بها ، تمثلت في محاولة المهدى احداث نوع من التوازن الاجتماعي من خلال اجراءاته المتسمة بالتسامح مع الخصوم السياسيين ، حينما اطلق سراح المسجونين ورد الاموال التي صادرها ابوه (المنصور) ، الى اصحابها . وجلس للنظر في المظالم وسعي الى حفظ التوازن بين العنصرين العربي والفارسي (٣) .

---

* البرني : تمر أصفر مدور . الشهريز : ضرب من التمر ايضا .

(١) - الطبرى : نفس المصدر - ج٧ ص٦٥٥

(٢) فاروق (عمر) - العباسيون الاوائل - ص١٩٨

(٣) الخربوطلي (علي حسين) - المهدى العباسي - ص ٦ ، ٧

يقول الطبري :" امر المهدى باطلاق من كان في سجن المنصور الا من كان قبلـــه تباعة من دم او قتل ،ومن كان معروفا بالسعي في الارض بالفساد " (١). ويقول المسعودى :" وكان المهدى محببا الى الخاص والعام ، لانه افتتح امره بالنظر في المظالم والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وانصاف المظلوم ، وبســـــط يده في الاعطاء ." (٢) .

ان انشاء ديوان المظالم وتحقيق التوازن ، كانا يمثلان خطوة ذكية في تدعيـــم الدولة العباسية والامساك بميزان القوى الذى بدأ بالتصدع في الفترة التـــي سبقت المهدى ، والتي اتسمت بالشدة والعنف .

استنادا الى ماذكرنا من خضوع تلك المرحلة لحكم الافراد ، فان اجراءات المهدى لم تتوفر لها ضمانة الاستقرار والتدعيم ، لان غيابه كان ينتظر اجراءات الخليفـــة الذى سيحل محله ،

وللبحث في الصراع السياسي في العصر العباسي يمكننا تقسيم البحث الى العناصر الرئيسية التالية :

أ- الصراع بين الدولة والمعارضة (الاحزاب) - وسنبدأه بعرض الحياة الثقافية والعلمية وكيف ان الحركة الثقافية كانت تذكي الصراع السياسي .

ب - الصراع بين العباسيين والموالي - وهو ماعبرت عنه ظاهرة الشعوبيـــة الثقافية والسياسية .

- قبل الخوض في هذا البحث ،نحب ان نشير منذ البداية الى احدى الظواهـــر الفنية التي اتسع نطاقها في العصر العباسي ، وهي ظاهرة الشعر والخطابة ، التي ارتبطت بحبال الصراع الاجتماعي ارتباطا شديدا ، فالشعر يحتل مكانـــة كبيرة في حياة العرب الثقافية ، ويكاد لا يوجد باب من ابواب الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية في حياة العرب الا وعبروا عنه بأبيات من الشعر :

فالشعر ديوان العرب ، ويفصل لنا عبد الكريم اليافي ،ذلك في مقالاته وكتبـــه المتميزة . وخاصة كتابه" دراسات فنيةفي الادب العربي " .

فيذكر ان الحريرى صاحب " المقامات" يقول " الشعر ديوان العرب وترجمان الادب" . وليس احسن من تلك الفقرة الجميلة التي حوت وصفا دقيقا لمـــا

---

(١) (الطبرى - نفس المصدر - جـ٨ ص١١٧

(٢) المسعودى - مروج الذهب - جـ٣ ص ٣٢٢

يتضمنه الشعر العربي عن مقاصد مختلفة تدل على ان الشعر كان يعبر عن الواقع الاجتماعي :" وحقا نجد الشعر العربي في تلوده الاصيل وقدامته الموغلة في اعماق التاريخ ، يصور حياة العرب ويحمل في تضاعيفه اخبارهم ونصيبا ضخما من مذاهبهم ، ويتضمن نبضات قلوبهم وثمرات قرائحهم ، ويمسك بصور اخيلتهم ، ويلمح بشأو مقاصدهم ويحوي على كنوز عواطفهم والوان تجاربهم ورهافة اشاراتهم ومكارم اخلاقهم ومختلف عاداتهم ومتباين نزعاتهم ، كما يستوعب ما استطاع من مفاتح لغتهم ومتمايز لهجاتهم ."(١) وما يهمنا في مجال دراستنا ، التأكيد على ان الشعر كان يمثل - بشكل عام - أحد مصادرنا في التعرف على مسيرة الصراع في العصر العباسي ، وذلك من خلال تعبيره على متباين النزعات والمذاهب الاجتماعية والسياسية .

ويمكننا ان نعتبر الشعر ، بما يتميز به من صور بليغة واساليب مؤثرة ، وقدرة على احتواء الافكار والمواقف ، بكل الاشكال الصريحة والخفية ، كان يمثل الواجهة الاعلامية والدعائية للافكار السياسية والايديولوجية بمثل ما كان يمثل الديوان الذى تسجل فيه الاحداث والمواقف التاريخية ليسهل حفظها وترديدها .

فضلا عن كل ذلك ، فان ايرادنا للشعر والخطابة في موضوعنا قد يسهم في اضفاء روح فنية تخفف على القارئ من عبء الاحداث التاريخية ووقع المواقف العدائية المؤلمة .

---

(١) - اليافي (عبد الكريم) - مقال - السيوف القلمية - مجلة التراث العربي" العدد ١ - ١٩٨٣ دمشق

الحركة الثقافية والعلميـــة كرافـــد للصراع السياســي

ادى نشوء صناعة الورق وازدهار التعليم ، وكثرة الوراقين والمكتبات ، الـى نهضة علمية واسعة في العصر العباسي .

وقد اهتمت الدولة منذ نشأتها بانشاء مؤسسات التعليم مما ادى الى ازدهار حركة الترجمة والتأليف في المرحلة اللاحقة . وكان قد ظهر شكلان رئيسيان في تعليـم المعارف المختلفة . احدهما شعبي تمثل في (الكتاتيب) ، وهو يعتمد علـى المبادرة الخاصة لبعض المثقفين واصحاب العلم والمال ،ويرتاد هذه الكتاتيـب بعض ابناء الطبقتين : العامة والوسطى . والثاني شكل خاص قام على تعليم ابناء الاغنياء والامراء والخلفاء على ايدى (المعلمين) أو (المؤدبيـن) .

كما اشتهرت المناظرات في مجالس الخاصة وفي الاماكن العامة ، وخاصةفي عهـد المأمون الذى كان يحضرها ويشرف عليها ،حيث يقول :" اني لارجو ان يكون مجلسنا هذا سببا لاجتماع هذه الطوائف على ماهو أرضى واصلح للدين امـــا شـــاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعا ، واما معاند فيـرد بالعمل كرها" (١)

وكان للجمعيات العلمية والثقافية التي تكونت آنذاك ،اثرها في توطيد اسس التقدم العلمي ،فتجسد ذلك في جمعية " اخوان الصفا " التي ظهرت في منتصف القـرن الرابع الهجرى بالبصرة . وكان لها اهداف سياسية (عن طريق نشر العلـــم والمعرفة بين الناس واصلاح النفس وتهذيب الاخلاق وتطهير الجسم ليصبح الانسان كاملا ،قابلا لتحقيق قيام " دولة الخير" أو" المدينة الفاضلة") (٢) .

وتخرج رسائل الجمعية من تلك المقدمات الى القول بالرئاسة الفاضلة العالمــة :

" اعلم يا أخي ، ايدك الله وايانا بروح منه ، انه مامن جماعة تجتمع على امر من امـور الدين والدنيا ، وتريد ان يجرى امرها على السداد ،وتكون سيرتها على الرشـاد الا ولابد لها من رئيس يرأسها ليجمع شملها ويحفظ نظام امرها ويراعي تصرف احوالها ... ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة اخواننا والحكم بيننا العقل ، الذى جعلـه الله تعالى رئيسا على الفضلاء من خلقه .." (٣).

---

(١) الطيباوى (عبد اللطيف) - تاريخ العرب والاسلام - ص ٣٦

(٢) الطيباوى - نفس المرجع - ص ٣٧

(٣) رسائل اخوان الصفا - ص١ ج ١

ولكنهم لم يجعلوا الرئاسة امرا مطلقا ، بل عينوها في الشخص العالم المتدرب الذى يسوس الجماعة بالعدل والعقل ، فلم يسلم من نقدهم الحكام الجائرون :

" ثم اعلم ان السلطان الجائر قصير العمر لان الله قاصم كل جبار عنيد ، مهلك كل مارد ومعتد ، وهو منصف المظلوم من الظالم " (١) .

وتوحـي تلك الرسائل التي كانت كما يقول طه حسين (٢) (أشبه بدائرة معارف فلسفية وعلمية) ان كل من رزق من جماعة (اخوان الصفا) مالا ولم يرزق علمـا ، ان يضم اليه اخا له نصيب من العلم ، فيواسيه في ماله ، ويرفده ذاك من علمه فيتعاونا على الصلاح .

وتبدو تلك الاشارة معبرة عن فكرة التكامل بين المال والعلم لخلق مجتمع متطـور، ذلك المجتمع الذى يعتبر مثالا لدى الجمعية ، ولهذا سعت إلى تنظيم صفوفها وضبط تصرفات اعضائها في تزويدهم بالمعارف واطلاعهم على اهداف الجمعيـة . اما سبيلهم فهو الاطلاع الشامل ونبذ التعصب لمذهب دون اخر ومن ثم الاطلاع على خلاصة معارف العصر واستيعابها للقدرة على فهم الواقع والاحاطة به وتغييره

" وبالجملة ينبغي لاخواننا ايدهم الله تعالى ان لا يعادوا علما من العلـوم او يهجروا كتابا من الكتب ، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب ، لان رأينـا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها " (٣) .

ويبرز لنا الفكر السياسي الذى طرحته الفلسفة العربية آنذاك ، علما من الاعلام الهامة التي تصدت لتنظير الافكار الاجتماعية والسياسية فقد جاءت آراء الفارابـي نموذجا يصوغ الطموحات الاجتماعية العريضة ، التي لم تشارك في السلطـة ، وتعبر لنا عن مستوى من التطور في تحليل العلاقات الاجتماعية والسياسية مـن وجهة نظر خاصة تستفيد من الفكر الانساني .

ان " المدينة الفاضلة " عند الفارابي نموذج يحاول تجسيد المطامح الاجتماعيـة في العدالة والحرية التي طرحتها في حينه الحركات الثورية ، مثل حركتي الزنـج والقرامطة ، واعطاء تلك المطامح ابعادها النظرية وشرعيتها التاريخية . (٤) .

---

(١) رسائل اخوان الصفا - ص١٧٧ جـ ٣
(٢) - نفس المصدر - المقدمة (طه حسين) ص ١ جـ ١
(٣) - نفس المصدر - ص١٠٥ جـ ٤
(٤) - تيزيني (طيب) - مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ص٢٨٣

تلك الرؤيا التي تحاول مطابقة الواقع الاجتماعي واشكال الوعي السائدة في المجتمع ، وخاصة الفلسفة السياسية والاجتماعية ، تستند بالاساس الى السياق التاريخي الذى ظهر فيه الوعي الاجتماعي . فرغم ان الفارابي في مؤلفيه " المدينة الفاضلة" و " السياسة المدنية" يضع للسلطة سلما تراتبيا يفسح المجال في الرياسة امام الطبقات المحظوظة ، ويصنف العامة في مرتبة وضيعة ،الا ان انتباهنا لسياق تلك الافكار يجعلنا نعتبر ان حصره للرياسة في الطبقة المستنيرة من الفلاسفة والعلماء ، وافراره بمبدأ التعاون والحرية الفردية وحق التسليم ، وغيرها . تلك الافكار كانت تمثل اتجاها حرا يقوم على اساس من التطور ويرفض سلطة الاستبداد الفردى القائمة على الوراثة والجهل . فذلك يقربنا من فهم علاقة الوعي الاجتماعي الذى عبر عنه الفارابي كنموذج - بالواقع الاجتماعي . وبالتالي يدعونا الى القول بان الفارابي كان يمثل اتجاها يطمح الى تحقيق مجتمع فاضل تتوفر فيه المساواة والحرية والتعاون ،يسوسه حكام محنكون بالتجربة ، ملمون بثقافة عالية ، يسوسون الرعية بتفويض منها " ويكون من يرأسهم انما يرأسهم بارادة المرؤوسين" (١) على ان كثيرا من الآراء تتهم الفارابي ،وغيره ، بأنه لم يأت بشيئ جديد غير نقله لفلسفة افلاطون . غير اننا نرى انه رغم ذلك النقل والتكرار لآراء سابقة ،فذلك يعتبر شيئا طبيعيا تفرضه عملية تطور الفكر الانساني واندماجه ، والمهم بالنسبة لنا ان الفارابي وغيره من الفلاسفة تبنوا تلك الافكار وصاغوها بطرقهم الخاصة مما ينسجم مع المجتمع والحضارة التي ينتمون اليها .

ويعتبر ابو حيان التوحيدى وابو العلاء المعرى ، الكاتبان المعاصران للقرن الرابع خير من عبر عن النقد الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي . فكتبهما المتبقية تدلنا على كثير من التفصيل في احوال العصر المختلفة . وهي نموذج صارخ على ما أسميناه بالتطور الثقافي في القرن الرابع .

ورغم التطور في مستوى المعارف والعلوم فان الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كانت تشهد تدهورا كبيرا ، تجسد ذلك في انحلال الدولة المركزية وسيطرة حركة الاستقلال ، وتدني الاحوال المعيشية واستفحال الفساد السياسي

---

(١) - الفارابي - السياسة المدنية - ص٩٩

لاستبداد الولاة والقواد وكثرة المؤامرات في البلاط العباسي ، كما اتسمت تلك الفترة بتسلط البويهيين وعبث الجند بالمنشئات العامة ومصادر الخراج ، ولكن الحركة الثقافية لم تكن بمعزل عن ذلك التدهور الاجتماعي - السياسي ، فانعكس ذلك في حركة التأليف كما انعكس في مواقف الاحزاب والقوى المعارضة.

يقول ابو العلاء : أيا والي المصر لا تظلمن ✱ فكم جاء مثلك ثم انصرف ويقول في موضع آخر : يقولون في المصر العدول وانما ✱ حقيقة ما قالوا العدول عن الحق

كما يقول في اللزوميات متبرما من سياسة حكام عصره :

يسوسون الامور بغير عقل ... فينفذ حكمهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف منهم ... ومن زمن رياسته خساسه (١)

ومن أقواله أيضا

مل المقام فكم اعاشر امة ... امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدوا مصالحها وهم أجراؤها (٢)

وكان لسياسة التفرقة والتعصب التي اتبعها الخلفاء الاواخر حينما سيطر عليهم قادة الجند والوزراء ، الاثر العميق في نفس هذا الناقد الاجتماعي ، حينما سوى بني هاشم بغيرهم من البربر ، وعلي بن ابي طالب الخليفة الراشدي الرابع بخادمه (قنبر ✱) ، فقال :

لا يفخرن الهاشمي ... على امرئ من آل بربر
فالحق يحلف ماعلي ... عنده الا كقنبر (٣)

ولكن ابا حيان التوحيدي كان اكثر ملامسة للواقع الاجتماعي والسياسي فبدا موقفه من النظام واضحا وتصويره لتذمر العامة وسوء احوالها جليا . كما يصور لنا التوحيدي حياة الطبقة الارستقراطية وينقل لنا صورا حية عن محاورات المثقفين ، وطرق عيشهم .

---

(١) المحاسني (زكي) - ابو العلاء المعري ناقد المجتمع - ص ٦٢
(٢) المعري - اللزوميات - مجلد ١ ص ٥٤
✱ قنبر : اسم خادم ابي العلاء
(٣) المحاسني - نفس المرجع ص ٧٧

ورغم مآخذ بعض الدارسين على ابي حيان من خلال طريقة تأليفه لكتابه الشهير " الامتاع والمؤانسة " بدعوى انه يمثل استجابة لطلب احد الوزراء فهو تسلية وترف واستغلال من الوزير لمعارف ابي حيان الذي لم يتوان في طلب التقرب منه ، وان ابا حيان كان مثل غيره من المتزلفين للامراء واصحاب البلاط .

غير ان دراستنا المتأنية لحياة ابي حيان ومؤلفاته تبين لنا ان تلك المآخذ سرعان ماتنحدر امام الحقيقة القائلة بان ابا حيان عاش حياة الشظف والتقشف ، وذان مراره " البقيلة الذاوية والقميص المرقع " .

ولا بد لنا من النظر بحكمة الى الطريقة التي صاغ بها ابو حيان مؤلفه ، فربما كانت اساليب كتاب العصر الناقدين تبرر لهم اتباع اسلوب " التقية " اتقاء لجور الحكام وغضبهم . وهذا مانلاحظه في كتاب " الامتاع والمؤانسة " لابي حيان ، حيث جاء على شكل مجموعة من الليالي والمسامرات ، او كتاب " رسالة الغفران " لابي العلاء الذي جاء في نفس الشكل تقريبا ، وفي صورة مبتدعة لواقع خيالي (الجنة والنار) ، يهرب اليها الكاتب ليبث فيها افكاره التي قد لا يستجيب لها واقعه ، فكان شبيها بكتاب " الكوميديا الالهية " للشاعر الايطالي اللاحق " دانتي " .

وكما يقول احمد امين ، فان كتاب ابا حيان شبيه بكتاب الف ليلة وليلة " وان كان اقل من الاخير خيالا .

ان مايميز ابا حيان ، تصويره الدقيق للحياة الاجتماعية واشاراته (السوسيولوجية) حول تلك الحياة ومستوياتها الشعبية ، وذلك حينما يقدم لنا مثلا ، بيانات عامة عن عدد الجواري والفتيان والمشتغلين بالطرب والموسيقى ، في احدى المدن العباسية آنذاك . :

" وقد احصينا - ونحن جماعة في الكرخ - اربعمائة وستين جارية في الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرسه ورقبائه ، سوى ماكنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب الا اذا انشط في وقت ، او ثمل في حال . . " (١) .

وهاهنا يذكرنا ابو حيان ، وهو يحصي تلك الاعداد ويدرس ظاهرة المطربين ، مع جماعته ، بجماعات الاحصاء الاجتماعي في عصرنا .

---

(١) التوحيدي (ابو حيان) - الامتاع والمؤانسة - ج ٢ ، ص ١٨٣

ان يقدم صورة عن تردى

اما مواقفه الاجتماعية والسياسية فكانت اكثر وضوحا . ومن الحكام اللامبالي منها فيقول :

اوضاع العامة واحتجاجها امام الحكام ، فلما نزل الوزير ليركب المركب صاحوا وضجوا

" . . اجتمع الناس اليوم على الشط ، وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر وتهتك صاحب العيال ، وانه اجابهم بجواب مر مع قطوب الوجه واظهار التبرم بالاستغاثة : بعد لم تأكلوا النخالـــة ." ،

ثم يواصل تفصيل الحالة الاجتماعية والاقتصادية في عهد الخلفاء الضعاف

وسيطرة البويهيين على الحكم ، معبرا عن استياء الرعية : " ولو قالت الرعية ايضا :

ولم لا تبحث عن امرنا ؟ ولم لا تسمع كل غث وسمين منا ؟ وقد هلكت نواصينا ،

وسكنت ديارنا وصل درتنا على اموالنا ، وحلت بيننا وبين ضياعنا ، وقاسمتنـــا

مواريثنا ، وانسيتنا رفاغة العيش ، وطيب الحياة ، وطمأنينة القلب ، فطرقنا مخوفه ،

ومساكننا منزولة ، واسبابنا مقطعة ، ونعمنا مسلوبة ، وحريمنا مستباح ، ونقدنـــا

زائف ، وخراجنا مضاعف ، ومعاملتنا سيئة ، وجندنا متغطرس ، وشرطتنا منحرف" (١)

وسواء اكان النقد السياسي الذى شنه بعض الكتاب على السلطة الحاكمة ، هـــو

الذى يذكي الصراع السياسي والاجتماعي ، اوان هذا الاخير هو الذى اثر فـــي

اولئك الكتاب ، فالمهم ان المثقفين لم يكونوا بمعزل ، في مواقفهم ، عما يجـــرى

في عصرهم من احداث ومايبرز فيه من ظواهر ، فليس باستطاعتنا الا التأكيـــــد

على حقيقة التفاعل بين الكتاب ومجتمعهم ، رغم ان هذا التفاعل كان يتفاوت بين فرد وآخر ، قوة وضعفا ، سلبا وايجابا .

نماذج من مواقف العلماء المعارضي من السلطة وامتناعهم عن التعاون معها .

يروى صاحب العقد الفريد عن مالك قوله :

" بعث ابو جعفر المنصور الي والى بن طاوس ، فأتيناه ، فدخلنا عليه ، فـاذا هو جالس على فرش قد نضدت ، وبين يديه أنطاع قد بسطت ، وجلاوزة بايديهم السيوف يضربون الاعناق ، فأوما الينا ان اجلسا ، فجلسنا ، فأطرق عنا طويـلا ،

(١) - نفس المصدر - جـ ٣ ص ٨٨

ثم رفع رأسه ، والتفت الى ابن طاوس ،فقال له : " حدثني عن ابيك" قال :" نعم سمعت ابي يقول " قال رسول الله (ص) : ان اشد الناس عذابا يوم القيامة رجل اشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله" فأمسك ساعة ،قال مالك "فضممت ثيابي من ثيابه مخافة ان يملأني دمه" ،ثم التفت اليه ابو جعفر فقال" عظني يا ابن طاوس ،قال " نعم يا أمير المؤمنين ،ان الله تعالى يقول " الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد .. (الآية) ، قال مالك "فضممت ثيابي من ثيابه ساعة حتى اسود . ما بيننا وبينه ، ثم قال " ناولني تلك الدواة ، فأمسك عنه ، فقال " مايمنعك ان تناولنيها ؟ " قال (ابن طاوس) " اخشى ان تكتب بها معصية الله فاكون شريكك فيها " فلما سمع ذلك قال " قوما عني " . قال ابن طاوس " ذلك ماكنا نبغي " .قال مالك " فما زلت اعرف لابن طاوس فضله " (١)

هذا النص الهام يبين لنا صورة من مكانة العلماء في ذلك العصر ، وكيف ان هناك من العلماء والمثقفين من اتخذ موقف الناقد والناقم على حكم الخلفاء ، وفيه ادلة واضحة على تحديهم للحكام في عقر دارهم وجرأتهم في التعبير عن مواقفهم ، ويظهر لنا من بداية النص كيف ان مالكا لم يكن راضيا على الابهة التي يحيط بها الخلفاء انفسهم . ثم ان ابن طاوس يتجرأ في وصف الخليفة العباسي بالظلم ويحذره من ذلك ، فيشبهه بالفراعنة وقوم عاد وثمود .

وكما يدلنا هذا النص ،في حال صحته ، على ان العصر العباسي عرف هامشا من حرية النقد الجرئ ، كانت تمنحه الدولة للناس وخاصة العلماء منهم .

ولكن ذلك الموقف لم يكن دائما ، خاصة حينما يكون خصم الخليفة قويا شديدا ، فاذا كان ابن طاوس يرفض المشورة فان ابا حنيفة النعمان ،فقيه اهل العراق وامام اصحاب الرأى ،كما كان يسمى ، يرفض المشاركة في سلطة العباسيين ، ويتحمل السجن من اجل ذلك .

فقد اشخصه ابو جعفر من الكوفة الى بغداد ، والارجح انه استقدمه لاتهامه بالتشيع لابراهيم (اخو محمد النفس الزكية) ،فقد كان لابي حنيفة ميول علوية

---

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ١ ص٦٤
(وفيات الاعيان لابن خلكان ـ جـ٢ص١٩٥

فضلا عن انه لم يكن راضيا عن سياسة العنف والشدة التي اتبعها العباسيون ، وكان كثير من علماء الدين على رأيه . اراد المنصور ان يوليه القضاء ، فامتنع (١) فحلف عليه المنصور ليفعلن ، فحلف ابو حنيفة ان لا يفعل ، فقال الربيع - وكان حينذاك حاجبا للمنصور قبل ان يتقلد الوزارة - " الا ترى امير المؤمنين يحلف ؟ " فقال ابو حنيفة " امير المؤمنين على كفارة ايمانه اقدر مني على كفارة ايماني " وابى ان يلي القضاء ، فامره بالاشراف على بناء بغداد (حتى يخرج من يمينه) ، ويروى انه دعاه بعد ذلك وقال له " اترغب عما نحن فيه ؟" فقال " اصلح الله امير المؤمنين لا اصلح للقضاء " فقال له المنصور " كذبت" وعرض عليه مرة ثانية فقال ابو حنيفة " قد حكم علي امير المؤمنين اني لا اصلح للقضاء لانه ينسبني الى الكذب ، فان كنت صادقا فقد اخبرتك اني لا اصلح " فرده الى السجن " (٢)

ان الخليفة كان يريد ان يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقول المثل العربي ، فهو يحاول بذلك الابراء ان يضمن لدولته شيئين :

١- ابعاد ابي حنيفة عن المشاركة في الثورة عليه لمساندته الثورات العلوية ضده . ولما يكتسبه امثال ابي حنيفة من شعبية .

٢- اضفاء الشرعية على الحكم العباسي باشراك الفقهاء والعلماء البارزين في السلطة القضائية .

ومن جهة ثانية فقد كان الحكام اذ شاء في تصفية خصومهم بعيدا عن مرأى العامة ، فكان اسلوب مخبريهم وشرطتهم يقوم على قتل المعارضين بالشك والتهمة . يقول الطبري " كان ابو جعفر اذا اتهم احدا من اهل الكوفة (المعروفين بمعارضتهم الشديدة) بالميل الى ابراهيم امر ابى سلما بطلبه ، فكان يمهل حتى اذا غسق الليل ، وهدأ الناس ، نصب سلما على منزل الرجل فطرقه في بيته حتى يخرجه فيقتله ، ويأخذ خاتمه " (٣) . وعرف عن الخلفاء والولاة اعتمادهم في التجسس على خدمة حلفائهم من الطبقات الغنية" ولابي جعفر عين من اهل الكوفة من الصيارفة يدعى ابن مقرن" (٤) .

---

(١) - ابن خلكان - وفيات الاعيان - جـ ٢ ص ٢١٥
(٢) - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - جـ٧ص٦١٩
(٣) - الطبري نفس المصدر جـ٧ ص٦٣١
(٤) - الطبري نفس المصدر جـ٧ ص٦٣١

يعتبر كتاب " رسالة الصحابة* الذى الفه ابن المقفع ، ذا قيمة كبيرة فرسالتـــه الموجهة الى الخليفة تمثل تقريرا في نقد نظام الحكم - ان ذاك - ووجوه اصلاحه يشرح فيها حال الجند ، وما يجب ان يحضوبه الجند من التثقيف العلمي والاخلاقي للحيلولة دون تدخلهم في ادارة شؤون المالية وجباية الخراج ، وتعيين موعـــد دائم لاستلام رواتبهم . كما دعا في كتابه الى مراعاة الكفاية في القيادة ثم انتقـــد فوضى القضاء واقترح حلا بديلا بوضع قانون رسمي تجرى عليه الدولة في جميع انحائها . ثم انتقل الى تعطيف المنصور على اهل العراق والشام ؟ . . واما اهل الشام فانهم اشد الناس مؤونة واخوفهم عداوة وبائقة وليس يؤاخذ هم امير المؤمنين بالعداوة ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة . فمن الرأى ان يختص منهم خاصة ممـــن يرجو عنده صلاحا او يعرف منه نصيحة ووفاء ، فان اولئك لا يلبثون ان ينفصلوا عـــن اصحابهم في الرأى والهوى ويدخلوا فيما دخلوا عليه من امرهم ، فقد رأينــــا اشباه اولئك من اهل العراق الذين استخدمهم اهل الشام (اى في العصر الاموى) ولكن اخذ في امر اهل الشام على القصاص وحرموا كما كانوا يحرمون الناس وجعـــل فيؤهم الى غيرهم كما كان فيئ غيرهم اليهم . ونحوا عن المنابر والمجالس والاعمال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله ، ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس ان ينالوا معهم اكلة من الطعام الذى يصنعه امراؤهم للعامة ، فان رغب امير المؤمنين بهذه السيرة فلم يمارس ماعاب . كان العدل ان يقتصر بهم على فيئهم فيجعل ماخرج من كور الشام فضلا من النفقات وماخرج من مصر فضلا من حقوق اهل المدينة ومكة .

وان يجعل ديوان مقاتلتهم ديوانهم ويزيد او ينقص . غير انه يأخذ اهل القـــوة والغنـــاء بخفة المؤونة والخفة في الطاعة ولا يفضل احدا منهم على احد الا علـــى خاصة معلومة ، ويأمر لكل جند من اجناد الشام بعدة من العيالة يقترعون عليهـــا ويسوى بينهم فيما لم يكونوا اسوة فيه . واما مايتخوف المتخوفون من نزواتهم فلعمرى لئن اخذوا بالحق ولم يؤخذوا به انهم لخلقاء الا تكون لهم نزوات ونزقات ." (١) ان ابن المقفع يشير في هذا النص الى اهمية تطبيق العدل واجراء المساواة فذلك يمنع مـــن

---

* ليس المقصود بالصحابة ، صحابة الرسول ، بل اصحاب الخلفاء والولاة .

(١) - ابن المقفع - رسالة الصحابة - ذكرها - فاروق عمر - العباسيون ، الاوائل ص ١٥٥ و احمد امين - ضحى الاسلام جـ ١ ، ص ٢١١

الثورة ، ويبين اهمية التوازن الاجتماعي فيحبذ الدولة العباسية الى التقارب مع الامويين .

ويشكو الكاتب ،بعد ذلك ، من فوضى الخراج ،فهو يذكرنا بكتاب ابي يوسف " الخراج" الذى وجهه الى الرشيد في نفس الغرض . (انظر الفصل الاول) .

ثم يختتم ابن المقفع كتابه قائلا : " ان العامة لا تصلح الا بصلاح الخاصة ،والخاصة لا تصلح الا بصلاح امامها "(١) وفي ذلك اشارات واضحة الى اهمية الاصلاح ، ونقد صريح لطبقة الخاصة التي حادت عن التزاماتها بقيادة الدولة وسياستها .

ولنفس الكاتب مؤلف آخر هو " كليله ودمنه " ففيه ميل الى الاصلاح الاجتماعي وتعرض للنصح السياسي . حيث يتعرض للحكام بالنقد والتجريح داعيا الى الحرية السياسية ،" ان كان للملوك فضل في مملكتها فان للحكماء فضلا في حكمتها اعظم ، لان الحكماء اغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال" (٢) .

وفضلا عن تأكيده على العلم كشرط للسياسة يضيف اليه شرطين اساسيين هما العقل والعدل فيقول : " فالعقل هو المقوى للملك على ملكه فان السوقة والعوام لا يصلحون الا باضافة العدل الفائض عن العقل لانه سياج الدولة ." (٣) .

وقد قام خليل احمد خليل بدراسة انتربولوجية رائدة لكتاب " كليلة ودمنة " في ابعاده السياسيه والاجتماعية ، معتبرا انه مرجع واحد قائم على الرموز التي تدل على حالة الوعي السياسي والمعرفة السياسية التي تساعدنا على اكتشاف جذور الوعي الانساني المتحكمة بآوالياته وجدليات الصراع بين القوى التي تتنازع البقاء كما تتنازع السلطة ذاتها .

والكتاب كما يقول خليل انما هو انعكاس موضوعي لمرحلة تاريخية واقعية من حياة المجتمع والدولة ، دخل حياتنا الاجتماعية والادبية (٤) ماكان منه موضوعا وماكان مترجما (٥) .

---

(١) – امين (احمد) – ضحى الاسلام – ج ١ ص ٢١٤
(٢) – ابن المقفع – كليلة ودمنه – ص ١٠
(٣) – ابن المقفع – نفس المصدر – ص ٢٢
(٤) – خليل (خليل احمد) – دراسات عربية – ص ٢٤ – ٢٥ – نوفمبر ١٩٨١
(٥) – (يرجح كثير من الكتاب العرب والمستشرقين ان هناك فصولا برمتها في كتاب " كليلة ودمنة" هي من ابداع ابن المقفع نفسه .)

المعتزلـــة :

كان للتطور الذى شهدته مجالات الثقافة في العصر العباسي ، الاثر في تعدد الاتجاهات الفكرية ، حيث ازداد الاهتمام بطلب المعارف وكثرت المناظرات والمناظرات بين جماعات العلماء والادباء والمفكرين .

ففي بيت الحكمة ببغداد ترجمت امهات الكتب الهيلينية والشرقية على السواء واطلع المسلمون على تراث الحضارات القديمة اليونانية والفارسية والهنديـــــة واقبلوا على دراسة هذا التراث وتمثله بتشجيع من الخلفاء المستنيرين واخـــذ الفكر العربي الاسلامي يرتكز على اساس علمي حيث شرعت المذاهب السياسية ـ والدينية تقيم فلسفتها النظرية على ركائز منطقية . (١) . وقد احتلت مقـــولة الحرية والاختيار مكانة بارزة في الصراع الفكرى ، عبرت عنها المواقف المتعارضـــة للمتكلمين والفلاسفة والفقهاء . ولعل التقسيم الرئيسي الذى ساد آنذاك ، هو التقسيم الثنائي الذى يقسم الصراع بين اهل النقـل واهل العقل " .

ويذكر لنا عبد العزيز الدورى تجلي ذلك الصراع في مراحل معينة من العصـــر العباسي ، وفي اطار تفسير المؤرخين للتاريخ قائلا : " ان مبدأ حرية الارادة وجد مجالا واسعا على يد المتكلمين والمعتزلة ، في العصر العباسي الاول ، ومع ان اهل الحديث انتصروا على المعتزلة سياسيا في النصف الاول من القـــرن الثالث الهجرى ، الا ان التفوق الثقافي (للمعتزلة) جاء بعد ذلك ، لذلـك يتعذر التأكيد ـ كما فعل البعض ـ على سيطرة مبدأ الجبر ومايترتب عليه فـــي كتابة التاريخ في هذه الفترة . فالتسبيب اذن موجود في الفعاليات البشريــة ، ضمن مشيئة الله في العالم " (٢) .

- يعتبر عصر المأمون والمعتصم والواثق فترة متميزة ، يدل على ذلك التطور ـ والازدهار الذين وسما الفكر الحر العقلاني وتبنيه بشكل رسمي من قبل الدولـة ،

---

(١) اسماعيل (محمود) ـ الحركات السرية في الاسلام ـ ص ١٢١

(٢) الدورى (عبد العزيز) ـ بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ـ ص٩٥

ويظهر ذلك في رسالة المأمون الى عامله في بغداد اسحاق بن ابراهيم يستعرض فيها مبادئ الاعتزال مستشهدا بالادلة النقلية والعقلية ، ويطلب منه امتحان القضاة والمحدثين ويأمر باشخاص جماعة منهم اليه (الى الرقة)، وهذا نص الرسالة :

" اما بعد ، فان حق الله على ائمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في اقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريث النبوة التي اورثهم ، واثر العلم الذى استودعهم ، والعمل بالحق في رعيتهم والتشمير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل امير المؤمنين ان يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته * ، والاقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته .

وقد عرف امير المؤمنين ان الجمهور الاعظم والسواد الاكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الاقطار والآفاق اهل جهالة بالله ، وعمى عنه ، . . . وذلك انهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما انزل من القرآن ، فاطبقوا مجتمعين واتفقوا غير متعاجمين ، على انه قديم اول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه . وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذى جعله لما في الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى " انا جعلناه قرآنا عربيا (١)" فكل ما جعله الله فقد خلقه ، وقال " الحمد لله الذى خلق السماوات والارض وجعل الظلمات والنور" (٢) وقال" كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق " (٣) فاخبر انه قصص لامور احدثه بعدها وتلا به متقدمها ، وقال " آلر ، انه كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " (٤) وكل محكم مفصل فله محكم مفصل ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه " (٥)

ولا شك ان طابع العنف الذى تميز به (الاعتزال) في فترة تبنيه من قبل الدولة ، قد حجب عن الانظار تلك المسحة العقلانية ، فعزف الناس عنه ، نتيجة الاجراءات الخاطئة التي اتخذتها الدولة . فكانت العامة والفقهاء اكثر الناس عزوفا

---

(١)- سورة الزخرف - ٣ -
(٢) سورة الانعام - ١-
(٣) سورة طه - ٩٩ -
(٤) سورة هود - ١-٢-
(٥) الطبرى - المصدر السابق -ج٨ص٦٣١ - ٦٣٢

عن المعتزلة لما لاقوه من عنت المأمون وغيره . وتأفف المفكرين التابعين له ، من العامة ووصفهم بالجهال والسفلة .

ويمكننا ان نعتبر ان المأمون قد اسس دولة من نوع خاص انصبت على فئة العلماء والمثقفين (فامتحن الناس وخص العلماء بالقسط الاكبر فكان ممن وقع عليه الامتحان : بشر بن الوليد الكندى وعلي بن مقاتل واحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح المضروب ، والنضر بن شميل وغيرهم ، واجبرهم على القول بخلق القرآن فأجاب الجميع الى ذلك ماعدا احمد بن حنبل ومحمد بن نوح فشدا في الحديد" (١) .

فقد جند هؤلاء المفكرون وغيرهم من كبار المعتزلة في تأييد المأمون والدفاع عن مبادئ الاعتزال خلال امتحان الناس .

ولم يترك المعتزلة سبيلا في الوصول الى عقول الناس وقلوبهم ، افادتهم ثقافتهم الواسعة ، فأحسوا انهم بثقافتهم يفوقون الناس معرفة وحكمة ، وانهم مسؤولون عن توجيه الناس وتقييم الدين (فكان من الطبيعي ان يرافق هذا الشعور بالتفوق عندهم ، ميل الى السخرية ممن يعتبرونهم دونهم فكرا وادراكا . والسخرية هذه ، جاءت في كتبهم كما جاءت في حوارهم ، ورافقت اعلامهم كثمامة والجاحظ وابي الهذيل ، وطبعتهم بطابع يميزهم عن غيرهم (٢) .

ولكن ذلك كان يحمل معه نتائج خطيرة ، اذ تعرض المعتزلة فيما بعد الى محنة سياسية كبيرة في عصر المتوكل ، وقد تبارى اهل الحديث في احراق تلك المصنفات ابان محنة المعتزلة" (٣) .

كانت الواجهة الثقافية تحتل المكانة الاولى من تلك المحنة ، حينما اشتد التحامل على المعتزلة من قبل معظم الفرق الاسلامية ، وخاصة الاشاعرة والحنابلة ، من امثال البغدادى والشهرستاني وابن حزم وابن القيم وغيرهم ، فاتهموا المعتزلة بالخروج عن جوهر الشريعة ووصفت آراؤهم بانها ضرب من الزندقة والوثنية . فقد وصفهم الشهرستاني بانهم " مجوس الامة " (٤) .

ويقول الشهرستاني ممهدا للحديث عن الصراع الفكرى والمذهبي في العصر العباسي ،

---

(١)- الطبرى - جـ٨ ص ٦٤٤

(٢) الخطيب (محمد علي) - مقال : الصراع السياسي في كتاب البخلاء - ص ١١ مجلة : فكر - العدد ٥٤ سنة ١٩٨٢ .

(٣) امين (احمد) ظهر الاسلام - جـ٤ ص ٥٩

(٤) الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ ص ٥

" المعتزلة وغيرهم من الجبرية والصفاتية والمختلطة منهم الفريقان من المعتزلة والصفاتية متقابلان تقابل التضاد وكذلك القدرية ، والجبرية والمرجئة والوعيدية والشيعة والخوارج وهذا التضاد بين كل فريق وفريق كان حاصلا في كل زمان ولكل فرقة مقالة على حيالها وكتب صنفوها ودولة عاونتهم وصولة طاوعتهم " (١)

ويقول احمد امين " لما دالت دولة المعتزلة وكرهوا من عامة العلماء ، اختفت ايضا كتبهم الا القليل ، واصبح الناس يتقربون الى الله باحراقها ، وقد هاجمهم وسبهم بديع الزمان الهمذاني في احدى مقاماته التي سماها " المقامة المارستانية"(٢)
ولا نعتقد ان وصف المعتزلة " بالزنادقة" والشعوبية" وغيرها من الاوصاف " الحاقدة كان يمتلك اساسا من الصحة ، سوى ان عددا من قادتهم كانوا من غير العرب كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، مؤسسا المذهب ، وابو الهلاق ، شيخ المعتزلة في البصرة ، وابراهيم النظام والجاحظ كانوا من الموالي ، ويمكننا ان نؤكد انهم نهلوا من التراث القديم واستفادوا منه في صياغة آرائهم ، والمعروف ان اكثرهم حارب الشعوبية بمفهومها العنصري ودعوا الى وحدة المسلمين بقطع النظر عن اجناسهم.
ولا شك ان ذلك الموقف في تبني الشعوبية - المساواة ، كان موقفا متطرفا يقابل تطرف الحكم الاموي المتميز للعنصر العربي .

ان الفكر الاعتزالي كان يتطور بشكل طبيعي مستفيدا من الفكر العالمي ومن المتطور الذي يلفه المجتمع ، ولم يعتمد اسلوب المعتزله من البداية في النضال السياسي على العنف كما عمدت الاحزاب الاخرى ، بل اتبعوا طريق " الترشيد والتنوير" فنجحوا ، ولكنهم لم يضمنوا لانفسهم الاستمرار فلم يسلموا من نقمة معارضيهم . وتعرضوا لنكبة مؤلمة شتتت صفوفهم وتحول العديد من انصارهم الى خصوم لهم ، (فأغلب الناس يمالئون الحكومة اينما كانت ، ويخافون ان يعتنقوا مذهبا لا ترضاه ، فهربوا من الاعتزال الى من يهاجم الاعتزال) (٣) .

---

(١) - الشهرستاني الملل والنحل ص٥
(٢) - امين (احمد) - ظهر الاسلام - ج٤ ص٩٥
(٣) امين (احمد) ضحى الاسلام ج١ ص٦٦

والمعروف ان المعتزلة شاركوا في بعض الثورات ضد السلطة العباسية ، حينما آزروا المعارضة العلوية على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، فاشتركوا مع الزيدية في ثوراتها زمن المنصور . وفيما بعد استمروا في معارضة اهل السنة الذين توصلوا بدورهم الى احتواء السلطة ، فهاجروا من العراق حفاظا على انفسهم في فترة خلافة الرشيد والامين (١) .

وهكذا كان موقف المعتزلة من الخلافة مختلفا ، خاصة في مسألة ان يكون الامام من قريش . وكانوا يؤاخذون عثمان (الخليفة الثالث) " انه اوطأ بني امية رقاب الناس وولاهم الولايات واقطعهم القطائع ، وفتحت ارمينية في ايامه فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان . . . وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم الا عن بني امية . . . " (٢) وتميزت فترة الخلفاء العباسيين الاوائل بتحفظ المعتزلة وتهربهم من سياستهم ، فكان عمرو بن عبيد يقول لابي جعفر " ادعنا بعدلك تسخ انفسنا بعونك ، ببابك الف مظلمة ، اردد منها شيئا نعلم إنك صادق" (٣) .

وبعد انقضاء الفترة التي توصل فيها الفكر الاعتزالي الى اعلا مراحله في الوصول الى الدولة ، كانت ردة الحنابلة (اهل السنة) شديدة على المعتزلة ، فقد انتقم الحنابلة من خصومهم ، وكان الطبرى احد هؤلاء الخصوم لانه كان يتحدى احمدا ، فمنعوا الناس من الجلوس اليه ورموه بالحجارة حتى تكدست ، وحتى ركب صاحب الشرطة ومعه الوف من الجند لمنع الناس عنه : وبالغوا بعد ذلك في مضايقة الناس" حتى انه في سنة ٣٢٣ عظم امر الحنابلة ببغداد وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعوام ، وان وجدوا نبيذا اراقوه ، وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، فأرهجوا بغداد " (٤) . وبالقضاء على المعتزلة قضي على الفكر الحرفي المجتمع العربي الاسلامي لان المحافظين اودوا بالحياة العقلية الى غياب سلطة العقل وحرية الارادة والجدل والمناظرة . وقد اصاب احمد امين في قوله " من اكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة ، وعلى انفسهم جنوا . " (٥) .

---

(١) الجهشيارى (محمد بن عبدوس) الوزراء والكتاب ص ٢٩
(٢) ابن ابي حديد المعتزلي - ج١ص٦٦ (ذكره احمد امين ضحى الاسلام ج٣ص٧٨)
(٣) عيون الاخبار - ج٢ص٣٣٧ - ذكره امين ج٣ ص٨٣
(٤) امين (احمد) - ضحى الاسلام - ج ٣ ص ٢٠١
(٥) امين (احمد) - " " - ج ٣ ص٢٠٧

المبحث الاول — الصراع بين الدولة العباسية والمعارضـــة
١م

المبادئ الاساسية للمعارضة :

تعتبر معركة صفين " البداية الاولى لنشوء المعارضة السياسية في المجتمع العربي الاسلامي ، حينما تشكلت في اول حزبين عربيين :
الشيعة والخوارج . تلى ذلك قيام المرجئة فالقدرية فالمعتزلة ، وغيرها من الفرق.
وهكذا ارتبط ظهور المعارضة اساسا بمسألة الخلافة .
لكن الباحث يجد صعوبة في دراسة تلك المعارضة من حيث الحصول على نصـــوص مفكريها واخبار سيرتها التاريخية الصحيحة . تضاهيها الصعوبة المتأتية من موقف المؤرخين القدامي في طريقة ايرادهم لتلك الاخبار .
والحقيقة اننا لا يمكن ان نقبل كل تلك الاوصاف التي تصور الحركات السياسية والاجتماعية على انها " تطاول " و" تمرد " و" فتنة " و" مروق " و" كفر " و" زندقة " و" تقليـــد خارجي " و" هبات العوام والاسافل ..... الخ .
قد يكون بعض تلك الصفات صحيحا بمعنى ما . ولكنها لا تخرج عن الموقف المتحيز لسياسة الدولة الذى يكتب التاريخ الرسمي للخلفاء ويدافع عنهم .
ورغم تلك الاشكالية فان قوة الصراع اظهرت لنا الواقع رغم بهاتته ، لان تعدد المؤرخين باختلاف مذاهبهم ونحلهـــم ، واختلاف رواياتهم ، وتوافر القليل مـــن كتابات المعارضة ، وتعدد منافذ التعبير ، فضلا على المجهودات المبذولـــة في العصور اللاحقة ، كل ذلك ، استطاع ان يمدنا بالحقائق حول طبيعة الصـــراع السياسي واهدافه ونتائجه في العصر العباسي .
وقبل الدخول في تفاصيل تلك المواقف والاتجاهات لابد لنا من استعراض سريـــع للسمات الرئيسية التي اتسمت بها المعارضة في ذلك الوقت .
١- كانت المعارضة اكثر التزاما بتعاليم الاسلام (في المستوى النظرى على الاقــل) .
ويظهر ذلك من خلال المبادئ ، التي نادت بها ، فالخوارج والمرجئة والمعتزلـــة منذ النصف الاول من القرن الثاني الهجرى اتفقوا جميعا على احقية اى مسلـــم بالخلافة بغض النظر عن اصله وعصبيته ، فكان فكرهم مستوحى من تعاليم المساواة التي نادى بها الاسلام .

٢- تبنيها لقضية العدالة الاجتماعية ، ونضالها من اجل الحد من الفوارق الاجتماعية والاقتصادية التي اذكاها الخلفاء العباسيون .

ويتفق الشيعة في ذلك مع باقي الاحزاب .

٣- غلبة الروح العقلانية على آرائها الاعتقادية واعتمادها على التأويل في بلورة تلك الآراء ، فضلا عن اعتمادها على النصوص المستمدة من الشريعة الاسلامية.

٤- اعتمادها العمل السري المنظم من خلال تعيين دعاتها وتحديد طرق حركتهم. واختيارها لمواقع نشاطها . ومما يلاحظ في هذا المجال ان معظم الثائرين على الخلافة (القادة خصوصا) كانوا يلتجأون الى خراسان وفارس والاهواز خوفا من بطش الدولة . وكان ذلك الاجراء الوقائي معروفا منذ فترة الحكم الاموي حينما حارب معاوية الخوارج في الموصل .

٥- انعدام فكرة العمل الجماعي (الجبهوي) لدى حركات المعارضة.

٦- اخذت المعارضة السياسية شكلا دينيا ، اوانها كانت تندرج تحت دعوة مذهبية تحتوي على القضايا السياسية والاجتماعية والدينية في نفس الوقت .

وقد تجلى ذلك في تبني فكرة " المهدي المنتظر" او" السفياني المنتظر" . الذي سيأتي ليملأ الارض عدلا بعد ان ملأت جورا وظلما . فهو عبارة عن شخصية خيالية يتجسد في الامام المنتظر الذي يكون مثلا او نموذجا تتجسد فيه روح الحق والعدل والخير. يرى آدم ميتز " ان الحركات المتعلقة بالمهدي كانت منذ أول امرها حركات سياسية اتجهت الى الجماهير (١) . لا شك ان تبني فكرة المهدي المنتظر كانت تمثل الاهداف النموذجية للجماهير العامة المنضوية في صفوف المعارضة ، وتتخذ اشكالا عديدة كالشكل الذي ظهر في اوربا في عصر النهضة تجسدت في طموحات رواد الاشتراكية الخيالية الذين كانوا ينتظرون الاشتراكي المثالي ليعمل بينهم ويحقق الاشتراكية المفقودة .

ويعبر المستشرق كازانوفا عن المثالية الانسانية التي مثلها الاعتقاد في الامام المستور بقوله : " لقد حقق الاعتقاد في الامام المستور الذي سوف يظهر يوما ليملأ العالم خيرا ، دمجا لكل العقائد المثالية في الديانة المسيحية والفلسفة الأفلاطونية ، فما

---

(١) ميتز (آدم) - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع - جـ ٢ ص ٦٨

دام الامام مستورا فان طابع السرية الذى يجتذب العقول الاكثر سموا يبقى قائما" (١)

اتجاهات رأى المعارضة في الحكم في المجتمع العربي الاسلامي :

تبين لنا بعد دراسة آراء المعارضة المختلفة في الخلافة ، ان اهم تلك الاتجاهات تندرج في المبادئ التالية :

(١) مبدأ الحكم الوراثي - ويمثله الامويون والعباسيون والشيعة ، وانما مصدر الخلاف بينهم يكمن في ان كلا منهم يعتبر نفسه احق بالخلافة من غيره .

(٢) مبدأ الانتخاب في قريش وهو (رأى الجماعة) في المدينة .

(٣) - مبدأ الانتخاب من العرب ،ثم تلاه مبدأ الانتخاب من المسلمين بشرط توفر الصفات المطلوبة وهو ينطبق على الخوارج خاصة .

(٤) - مبدأ التعيين في ذرية علي بن ابي طالب ويمثله الشيعة العلويون .

(٥) - مبدأ توفر شروط الجهاد والعلم والفضل في شخصية الامام وتمثله بعض فرق الشيعة .

---

(١) كازانوفا - (CASANOVA) - " ملاحظة حول مخطوطة الحشاشين" (ترجمة الكاتب ص٨) - غير منشورة .

(آ) - المعارضة المتشيعة للامويين :

عرفت معظم الحركات السياسية المتشيعة للامويين بانها تمثل (اهل السنة) . فمن بين الحركات التي صاحبت ذياع صيط المعتزلة ، حركة تسمي " النابتة " ، وقد ظهرت في القرن الثالث (التاسع الميلادى) ، وتعد من الحركات الموالية للامويين ، كما عرفت بمناوئتها السياسية للعباسيين ومعارضتها لآراء المعتزلة الدينية والسياسية .

على ان كتاب الفرق كما يقول فاروق عمر اطلقوا لانفسهم العنان في استعمال اصطلاح " النابتة " ، فاتهم ابن الراوندى المعتزلة بانهم نابتة . اما الجاحظ فقد ازعجه ان يكون هناك ارتباط بين هذه الفئة من اهل السنة وبين الامويين فاتهم النابتة بالمروق والتمادى في الخطأ لانهم رفضوا ان يتهموا الامويين . وقد حاول الجاحظ ان يربط بين النابتة والرافضة وادعى بأن هناك الكثير من نقاط الاتفاق بينهما . (١) . ويبدو هذا الموقف الذى اتخذه الجاحظ طبيعيا ، باعتبار ان الجاحظ كان معتزليا ، فهو يدافع على اتباعه ضد الخصوم الذين عادوا دولته وغضوا الطرف على الامويين وجورهم السابق .

وقد ظهرت من هذه الفرق آراء توفيقية في حل ازمة الخلافة السياسية ، وقد تمثلت في فرقة (الكرامية) . يقول البغدادى انها فئة من اهل السنة ظهرت اول الامر في سجستان ثم انتقلت الى خراسان في بداية القرن الثالث الهجرى . فمن آرائها السياسية انه من الجائز وجود امامين في وقت واحد في الدولة الاسلامية ، ولكل منهما اتباعه الذين يدينون له بالطاعة .

وقد هاجم الجاحظ هذه الفكرة بشدة لان الكرامية تبنوا الفكرة القائلة بان كلا من علي ومعاوية كانا امامين معترفا بهما (٢) .

هذه الفكرة كانت بطبيعة الحال لا تناسب العباسيين لانها تمثل خطرا على وحدة الدولة المهددة بالانشقاق والانفصال . ومن الفرق السنية الشهيرة - ظهرت فرقة (الحنابلة) . وهؤلاء يصرحون بتفضيل معاوية (الاموى) ويبالغون في تقدير فضائله ويعدون رافضيا كل من لم ير رأيهم فيه حتى وان كان سنيا ، وكان ذلك عبارة عن رد فعل على رأى الشيعة العلوية التي صرحت

---

(١) - عمر (فاروق) - العباسية من الاوائل - ص ١٥٨

(٢) - عمر (فاروق) - نفس المرجع - ص ١٥٨

بتفضيل علي وآله على غيره . والظاهر ان التشيع لمعاوية في القرنين الثالث والرابع شاع وانتشر حتى جاهر به الناس ، يقول التبارى " حنابلة العراق غالية مشبهة يفرطون في حب معاوية ويروون في ذلك اخبارا منكرة " . (١) .

لا شك ان ظهور هذه الفرق المتشيعة للامويين لم يكن مجرد موقف متعاطف وانما ينم على احتدام في الازمة السياسية والاجتماعية ، واضطراب الحالة الاقتصادية الا ان حركة المعارضة اتخذت من الامويين رمزا لرفض اجراءات الدولة الجائرة . ولا شك ان ذلك لم يكن تعاطفا مع سياستهم ، وكان مجرد رمز للمعارضة والتشيع لشخصية معينة ، يدل عليه طول الفترة التي فصلت بين اواخر القرن الاول وبدايات القرن الثاني ، وبين القرن الثالث الهجرى .

ثورات الشام والامويين :

ليس بالامكان سحب عبارة (المعارضة الاموية) على كل الثورات التي قامت في بلاد الشام اثناء فترة الحكم العباسي . فقد كانت النتائج السياسية المتمثلة في انتقام العباسيين من اهل الشام بدعوى انهم كانوا يناصرون الامويين عليهم .

النتائج الاجتماعية المتمثلة في حرمان الشعب ، في تلك المنطقة ، من ثروات الدولة ، وارهاقهم بالضرائب ، ونقل الخلافة من دمشق الى العراق ، كانت كل تلك النتائج كفيلة بتصعيد المعارضة وازدياد العداء للعباسيين .

ورغم اختلاف المؤرخين في ذكر الروايات المتعلقة بثورات اهل الشام والقبائل السورية وفي ذكر اسبابها وتواريخها الدقيقة ، فانهم يتفقون في ذكر تلك الاحداث الخطيرة التي كانت بلاد الشام مسرحا لها ، واهمها :

- مجزرة نهر ابي فطرس - وقعت سنة ١٣٢ ، قام بها والي الشام عبد الله بن علي الذى دعا الامويين الى وليمة في فلسطين ، ثم امر الخراسانية فقتلوهم .

- حادثة نهب مدينة دمشق - وقد تمثلت في اعمال من النهب والسلب واسعة اعقبت سقوط دمشق على ايدى جيش الدولة العباسية الخراساني .

لم يحرك سكان بلاد الشام ساكنا بعد تلك الاحداث المؤلمة ، ولكنهم مالبثوا ان اعلنوا المعارضة للدولة العباسية بعد تنظيم صفوفهم ، فقاموا بعدة انتفاضات

---

(١) - ذكرها فاروق عمر - نفس المرجع السابق - ص ١٥٨

متتالية ضد جيش الدوله ومثليها . وظهرت لديهم حركة " السفياني المنتظر" الشبيهة بالدعوة الى " المهدي المنتظر" .

وكانت تلك الحركات (تقوم على آمال وتنبؤات تتعلق بظهور السفياني المنتظر منقذ اهل الشام من جور العباسيين) (١) .

ومن تلك الحركات ، حركة " حبيب المرى الذى انطلق من خوفه على مصير عشيرته من الحكم الجديد ، وحركة ابي الورد ، وهو يعتبر من المتشيعين البارزين للحكم الاموى ، وكان قد اعلن الثورة على العباسيين منذ مقتل مروان الاخير ، كما عرفت تلك الانتفاضات القبائل الكلبية ، وثارت دمشق على الوالي العباسي ثم ثار اهل الجزيرة اقتداء بثورة المدن السورية . (٢) وقد عرف الثوار الامويون برفع الرايات البيض والحمر تمييزا عن رايات العباسيين السوداء . وكتب التاريخ مليئة بمصطلح (التبييض) كناية على ثورات المعارضة عموما ، ومصطلح (التسويد)كناية على اعلان الحرب من قبل العباسيين .

وقد اصبح من تقاليد الثورات غير الاموية ، في الشام والجزيرة ،ان تضم الحركة الى صفوفها احد الامراء من البيت الاموى رمزا للثورة على النظام الجديد . اذا انضم محمد بن سعيد الاموى الى الخوارج وقاد انتفاضتهم ضد الدولة العباسية.

ولعل ذلك كان يمثل درجة هامة من الوعي السياسي وتجسدا للتحالف ضد العدو المشترك ، وهو تحالف بسيط ، ولكنه يعبر على الاقل عن اهمية الزعامات الشعبية ، في ذلك الوقت ،في توطيد المبادئ والافكار السياسية بين جماهير العامة .

ان مايميز تلك الحركات الخارجة على العباسيين انها لم تأخذ البعد الاجتماعي في حركة المعارضة ، وانما اكتسبت صبغة سياسية موالية للامويين ، فجاءت ردة فعلها عبارة عن عنف مضاد للعنف الذى سلطته عليها الدولة .

ويظهر ذلك من خلال تفكك اللحمة بين تلك الحركات وعدم تبلور اهدافها السياسية والاجتماعية بمثل ماتبلورت به حركات الخوارج والشيعة والقرامطة وغيرها .

ورغم ذلك فان بقايا الامويين (غير المهاجرين الى الاندلس) ، وانصارهم تعرضوا لقسوة العباسيين واضطهادهم . ولعل القاء نظرة الى (رسالة الصحابة) التي وجهها

---

(١) — عمر (فاروق) — نفس المرجع — ص ١٢١

(٢) — نفس المرجع — ص ١٢٢

ابن المقفع الى الخليفة العباسي مرشدا ناصحا ، تدل على المكانة (الوضيعة) التي كان يحتلها سكان الشام في السلم الاجتماعي والسياسي ، وكيف انهم كانوا عرضة لنقمة العباسيين وحلفائهم الذين ارهقهم الحكم الاموى في خراسان فنكلوا بمواطني تلك المنطقة وكنا قد اشرنا الى تلك الرسالة الهامة في الصفحات السابقة. ويذكر لنا فاروق عمر هذه الرواية التي نقلها عن الكوفي ، وفيها اشارات صريحة الى تعرض الامويين والمتشيعين لهم والثائرين في بلادهم ، لاضطهاد الدولة العباسية .

(التجأ بعض الامويين الى العراق وطلبوا الحماية من الخليفة (ابو العباس) وكان هشام بن عبد الملك يتزعم هذه الفئة من الامويين الذين اعلنوا ولاءهم للنظام الجديد ، فسمح لهم بزيارة البلاط ، ولم تمض فترة حتى زار الشاعر سديف بن ميمون مولى بني هاشم البلاط فاغتاظ لوجود الامويين وحرض العلويون على اثارة الخليفة بقصيدة مؤثرة فقال :

لا يغرنك ماترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها امويا

وقد ادت هذه القصيدة الى المزيد من الضحايا الامويين ..) (١)

وقد يكون الواعز الى الخليفة بالشدة على الامويين العلويون ، لما نعرفه من اقترابهم من ابي العباس في السنوات القليلة الاولى من الخلافة العباسية وقبل ان ينفجر الصراع بين العلويين والعباسيين ، اذ كان العباسيون خلال دعوتهم يدعون بالنضال من اجل ان تكون الخلافة هاشمية اى بينهم وبين بني عمومتهم من الطالبيين فقط .

---

(١) - عمر (فاروق) - العباسيون الاوائل - ص ١٢٨

(ب) الخوارج :

سمي الخوارج بهذا الاسم لخروجهم على علي بن ابي طالب (الخليفة الراشدى الرابع) . حين قبل بالتحكيم مع معاوية بن ابي سفيان . ويفسر الخوارج تسميتهم تلك بانها جاءت من (الخروج في سبيل الله) .

وقد نشأت فرقة الخوارج وفرقة الشيعة في حضن حزب واحد هو حزب انصار علي ، ولكنهما تماديتا فيما بينهما ،ثم شاءت ظروف الخصومة ضدهما ان تتحالفا معا على مضض (في العصر الاموى) ،ولكن مبادئ كل منهما كانت منذ البداية في تعارض تام مع المبادئ الاخرى . (١) .

فقد كان السبب المباشر لنشأة الخوارج يكمن في مسألة " التحكيم" ابان المعركة بين انصار علي وانصار معاوية وعثمان ، اذ رضي علي كارها ، " بالتحكيم" ، ولكن الخوارج وقد انتهى التحكيم بمأساة صاحبهم ثاروا عليه لقبوله بذلك الموقف وقالوا : (لا حكم الا لله) .

وقد تطورت عقيدة الخوارج السياسية حينما تبلور رأيهم في الخلافة فقالوا بأنها حق مشترك بين جميع المسلمين ، يتولاها الصالح منهم وهي ليست وقفا على بني هاشم او قريش او العرب لان الاسلام ساوى بين جميع المسلمين ،فمن يراه هؤلاء كفؤا وأهلا للخلافة يغدو خليفة حتى ولو كان عبدا .

وهكذا فقد ارتبط وجود حزب الخوارج بمسألة الخلافة ،ولكنه كذلك ارتبط بالمسألة الاجتماعيةبعد استفحال التناقضات الاجتماعية والاقتصادية التي نشأت منذ عهد عثمان ، الخليفة الراشدى الثالث .

فقد آلت الخلافة الى حالة من الفوضى في عهد عثمان واستفحلت الفوارق الاجتماعية ، وانتهى حكمه بانقسام المجتمع الى فريقين متعارضين متحاربين من اجل الحكم ومغانمه والتطلع الى مراكز الرياسة والسيطرة . يقول عبد الرحمان بدوى " احس بهذا نفر من غلاة المتشددين في الدين المتمسكين بالعقيدة الدينية في صفائها الخالص بمعزل عن كل سياسة ، فانتهزوا فرصة" التحكيم " وكشفوا عما كان يغلي في نفوسهم من ثورة على ما آلت اليه اوضاع الخلافة والحكم على عهد عثمان وفي خلافة علي القصيرة ،،،،(٢) .

---

(١) بدوى (عبد الرحمان) - مقدمة كتاب الخوارج والشيعة - ليوليوس فلهاوزن- ص ١٣

(٢) - نفس المرجع ص ١٣

والحقيقة اننا نجد في رأى بدوى كثيرا من الصحة اذ ان مجرد القول بأن نشأة الخوارج كانت غضبا على علي لانه قبل بالتحكيم ، وفي ذلك تشيع له ، يعتبر قولا لا يقبله العقل . لو صح ذلك الموقف لا نسجم مع موقفهم من الخلافة فيما بعد ، فأفكارهم ومبادؤهم تبدو اكثر ديمقراطية وعقلانية من موقف التشيع لخليفة معين ، ذلك الموقف الرافض للتحكيم او الانتخاب اساسا .

ولا بد للباحث في افكار الخوارج ومواقفهم من ان يكشف تلك " الروح الديمقراطية في معالجتهم للامور الاساسية في المجتمع . فقد وقفوا موقفا معارضا للشيعة الذين يقولون بان الامامة لابد ان تكون وراثية في ابناء علي ، وضد المرجئة الذين أرجأوا الحكم الى زمن غير محدد رغم اقرارهم بسلبية المواقف المفروضة على الناس بحد السيف ، وبالطبع كانوا مناوئين ايضا للدولتين الاموية والعباسية .

يتجسد ذلك التميز لدى الخوارج في قولهم بان من حق الامة اسقاط الامام (الخليفة) الذى يحيد عن الطريق السوي المعروف لدى الجميع . وفي اقرارهم بان الامامة انما تكون حقا مفروضا على من تختاره الجماعة مهما كان اصله ولونه . فهم بذلك مثلوا الثورة على النزعة الارستقراطية التي ارادت معظم الاتجاهات الاخرى فرضها في اختيار الخليفة .

لذلك لم يعترف الخوارج بالخلافة الا لابي بكر وعمر ومن عينوهم فيما بينهم . اما عثمان فلا يعترفون الا بالسنوات الست الاولى من خلافته ، وعلي اعترفوا بشرعية خلافته في بدايتها حتى معركة صفين(١) .

ولعل ردة الفعل السياسية العنيفة التي تلقاها الخوارج من خصومهم كانت السبب في عدم استقرارهم واستمرار حركتهم ، كما ادى ذلك الى تطرف في بعض آرائهم . اذ انهم عدوا مخالفيهم مرتدين فجازوا بعد أ"الاستعراض" (، اى استحلال قتل مخالفيهم من المسلمين) ، كما وصفوا مرتكب الكبيرة بانه كافر على خلاف المعتزلة والمرجئة . كما تجسد ذلك في تشبثهم بالقرآن والسنة وابتعادهم عن التأويل .

ولكنهم بالمقابل نادوا بالمساواة وحضوا على الثورة على " أئمة الجور" ، واتخذوا من " الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" شعارا ومبدأ يناضلون من اجله ، ويكسبون به حركتهم طابعا اجتماعيا .

---

(١) فلهاوزن - الخوارج والشيعة - ص ١٤ - ١٥

ويمكننا تلخيص مبادئهم السياسية والاجتماعية والدينية في النقاط التالية :

١- لا ايمان بدون عمل ، فالعبرة بالعمل ، وقد الحوا على اهمية التطابق بين الافكار والمعتقدات وبين اعمال الناس وممارساتهم .

٢- الحكم لله لا للرجال ، وانما الائمة والحكام وسطاء لنشر الحق وفرض العدل .

٣- الامامة ليست ركنا دينيا ، فهي حق لمن تختاره الجماعة .

٤- الحض على الثورة ضد (أئمة الجور) ، فمن حق الرعية اسقاطهم اذا خرجوا عما اوكلوا به .

٥- مؤازرة الفقراء عن طريق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٦- مرتكب الكبيرة يعد كافرا .

٧- مبدأ الاستعراض : ويعني استحلال قتل مخالفيهم من المسلمين لانهم ، بنظرهم ، مرتدون .

٨- الالتزام بنصوص القرآن والسنة دون تأويل ، وسيرة (السلف الصالح) ممثلا بسياسة الرسول والشيخين (ابو بكر وعمر) . (١) .

- من جملة تلك المبادئ وغيرها ، تتضح لنا اهمية المسألة الاجتماعية لدى الخوارج ، وخاصة الجانب السياسي منها ، ولا يغدو ذلك امرا مستغربا لان الدافع الاول لنشوء حزبهم كان سياسيا . اما مبادؤهم الدينية فهي تنم على موقف متشدد تجاه خصومهم ، لانهم يعتقدون ان مذهبهم هو الاسلم وان مبادئهم هي الاصح فلاحق لغيرهم في مخالفتهم . ولكننا نرى ان تلك السمة او النزعة الى الحرية والمساواة والعدل ، التي وسمت حزب الخوارج تغطي جوانب التشدد ، (الدغمائي) في معتقداتهم الايمانية . فكم كان عصرهم بحاجة الى مثل تلك الافكار السياسية التي بدا طارحوها ومعتنقوها ألد أعداء الدولة .

الموقف من الدولة العباسية :

من الآراء السائدة بين المؤرخين المحدثين ان حركة الخوارج ضعفت معارضتها - وأصابها الانحلال في اوائل العصر العباسي الاول . لكننا نميل الى القول بأن تلك الحركة الأصيلة لم يكن من اليسير انحلالها وتلاشيها من الحركة السياسية عامة . وانما

---

(١) مروة (حسين) - انظر دراسته في كتابه : النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ص ٥٠٩ ج ١

كان لموقف العباسيين الاوائل المتصلب ، تجاههم ، الاثر الكبير في الضغط على دعاة الحركة واجبارهم على الانتقال الى مواقع جديدة للنضال ضد العباسيين . فكان اختيارهم المواقع البعيدة يمثل اجراء وقائيا مؤقتا . ويفسر لنا فاروق عمر الاسباب التي ادت الى ضعف الحركة الخارجية في تلك الفترة ، ملمحا الى مبررات سكونها وان ضآلة اخبارها لا تعني بالضرورة ضعفها وانحلالها . وهذه الاسباب هي :

آ- قلة المعلومات التاريخية عن الخوارج بصورة عامة .

ب - المعلومات المتوفرة حولهم لا تعطيهم حقهم ، وقد كتبت من وجهة نظر رسمية

ج - لا توجد مصادر اصلية كتبها كتاب خارجيون .

د - لقد تركزت الحركة الخارجية في العصر الاموي في الاقاليم المركزية من الخلافة كالسواد والموصل والحجاز ، بينما انحصرت في العصر العباسي في اقاليم بعيدة مثل افريقية ، عمان ، سجستان ، اليمن ، خراسان .

هـ - مما يزيد غموض الامر وتعقيده ، مرونة المؤرخين في استعمالهم اصطلاح الخوارج ، فقد يستعملونه للدلالة على كلمة الثائرين او في الدلالة على خارجي العقيدة ، وقد انتقلت هذه المرونة الى كتاب الفرق ايضا . (١)

نظر الخوارج الى العباسيين بنفس النظرة العدائية التي كانوا ينظرون بها الى الامويين ، فالعباسيون بنظرهم مغتصبون للخلافة التي يجب ان تكون ذات صفة انتخابية بين المسلمين كافة يتقلدها احد رسم (؟) فلا يشترطون ان يكون الخليفة قرشيا ولا عربيا) (٢) . وهكذا لم يستقر الامر بالدولة الجديدة حتى ثار الخوارج عليهم في اقاليم مختلفة ، اذ شهدت مناطق الجزيرة وارمينية وعمان في عهد ابي العباس حركات خارجية عنيفة ضد جيش الخلافة العباسية . (٣)

وفي عهد المنصور استمرت اضطرابات الجزيرة كما ابدى سكان الموصل الخوارج في حركاتهم . ولا نجد مبررا قويا للموقف السلبي الذى لقيه اهل الموصل من الخوارج حينما هب الاخرون تحت قيادة حسان الهمداني ١٤٨ هـ فنهبوا اسواق الموصل ودمروها . والمعروف ان عقيدة الخارجيين ترفض الافكار القبلية ، الا ان هذه الانتفاضة دلت على

---

(١) - عمر (فاروق) - العباسيون الاوائل - ص ٢٤٨

(٢) - امين (احمد) - ضحى الاسلام - ج ١ ص ٦

(٣) - عمر (فاروق) - العباسيون الاوائل - ص ٢٤٨

اختلاط كبير بين الخوارج وبين القبائل البدوية .
ويبدو انهم التجأوا اليها حتى يقووا صفوفهم امام العباسيين ، لكنهم لم يستطيعوا القضاء على العصبية القبلية التي كانت لا تزال قوية . فقد عفى قائد هذه الحركة على الاسرى الهمذانيين الذين اسرهم من الجيش العباسي ، بينما قتل الاسرى من القيسية . وهكذا لم يعف قادة حركاتهم انفسهم من التعصب لقومهم رغم ان المؤرخين يردفون القول بان اصحاب المبادئ عرفوا حقيقة ذلك التصرف الخطير فابتعدوا عن " القائد " حتى اضمحلت حركته (١).

وقد استمرت تحرشات الخوارج بالدولة العباسية وخاصة في صعيد مصر والمغرب واليمن . كما عرفت فترة حكم الرشيد عدة حركات خارجية مثل : حركة الوليد الشاري الخارجي (الجزيرة ١٧٨ هـ) والصحصح الخارجي (الموصل ١٧١هـ) .. وغيرها (٢).
ومن اهم تلك الحركات ظهرت حركة عبد السلام اليشكري الخارجي الذي ثار في الجزيرة وهزم جند الخليفة عدة مرات (٣).

وتظهر لنا الرسائل المتبادلة بين هذا الثائر وبين الخليفة المهدي عدة دلائل على طبيعة الصراع ومدى قوته بين الطرفين . ولعل من الفائدة ذكر جزء من هذه المراسلات :

رسالة المهدي : " ... اني قد عجبت من احداثك وبغيك حيث اسألك مانقمت اذ حكمت بكلمة حق تريد بها باالله سخريتك بوسائلك عنه مع مناوأتك خليفته ونزعك يده من طاعته وشتمك أبا الحسن علي بن ابي طالب ووقوعك فيه او تنقصك اياها وولايتك من عاداه ، فالله عصيت ونبيه عاديت ، فقد اتاك يقين راض وحديث صادق عن النبي (ص) في قوله :
من كنت مولاه فعلي مولاه . فكنت المكذب بذلك والحائد عنه حيث انقطعت مدتك واستمنت بشيعتك وتماديت في غيك - فاقسم لاغرينك اجنادا مطيعة وفوادا منيعة هم الذين يفضون جمعك ويهتكون بنائك ، فاعمل لنفسك او دع " .
بعد ان رأينا تهديد العباسيين للخوارج مستندين الى الدفاع عن علي ، وان كان ذلك على المستوى النظري فقط ، وبعد ان لمحنا فكرة ادعاء العباسيين بأن حكمهم

---

(١) عمر (فاروق) - ص ٢٥٥
(٢) انظر تاريخ الطبري ج ٨
(٣) الطبري - ج ٨ ص١٤٢

مستمد من الله فمن خالفهم خالف الله " مع مناوأتك خليفته " بعد كل ذلك ،
لنر الكيفية التي رد بها هذا الثائر بشكل ينكر به خلافة العباسيين .
ويصر على النضال من اجل تحقيق اهدافه
جواب عبد السلام الخارجي الى المهدى :

" من عبد السلام من هاشم الى محمد بن عبد الله . سلام على من اتبع الهدى واجتنب الغي وقام بالحق ، فلا الهدى اتبعت ، ولا الغي اجتنبت ولا الحق اقمت . اما بعد : فان الله بحولة وقوته ورحمته وعونه سيد السادات شديد النقمات الذى توحد في ملكه لم يدع امة محمد في اهداف من الالتباس حتى يصلحهم ويبعث فيهم من يتعاهد منهم ماينبغي لهم تعاهده ، اتاني كتابك تعجب مما نقمت اذ حكمت فلست بتاركك في عمياء مما انت فيه ، مع انك انما خدعت عن هذا نفسك ، وقد علمت اني انما اسفت وحكمت حين تركت الامة تائهة مائجة لاحدودها اقمت ولا حقوقها اديت واشتغلت باماتك وتنوقت في بناتك مع ادمانك الصيد ، اذ تغدو معك البزاة والفهود والجنائب والكتائب ، فاذا انتهيت من صيدك ونخلت لهواك واتبعتك اخوانك فتغديت وغنيت فيمين الله ماأفحش هذا ممن يدعي خلافة الله ، فقد كانت الاعاجم تنقم مادون هذا . ثم انت اذا خطبت كذبت واذا عاهدت نكثت . وقد زعمت في كتابك انك ستغزيني اجنادا مطيعة وقوادا منيعة ، فالله يفضي جمعك ويهزم جندك ويقتل قوادك . فاذا شئت فنحن متوقعوا هذا منك ومتمنوه . وقد زادني غيظا انك تسميت المهدى وابعد من سماك فنعم المهدى انت اذا بعت الناس بيعا واوسعت الناس غيا ، خدعك يعقوب بن داود اخا آخيت وخدنا صافيت : دعاك فاجبت وخدعك فطاوعت ففي اى دين يصحك ؟ وفي اى كتاب اصبت ان تمدو وظيفة او تنقص مساحة او تصطفى بستانا او تبذخ في مركب او ترمي به في النزهة ، او تمارض عن جند او تحبس عطاء او تنسى من غزا او تعاقب بالسوط ، سافكا للدم وانما السافك يقاد ، والزاني يقام حده واللص تقطع يده ، ولا تعاهد السجون بنفسك ، ولا تزعجها بعينيك فهذا نسيت وعن هذا سهوت ؟ ! ايها الطاغية افمن هذا حياة ؟ فانظر لنفسك فما عيني عنك بنائمة تساقف من يصدقك وتلقى من

بقتالك ، وما أنا بالعازم . الفتح بيد الله يحكم ما أحب ، وانما انا عبد من عباده" (١)

الدعوة الخارجية والتنظيم :

كان دعاة الخوارج يعرفون بـ "حملة العلم" ، وكانوا يرسلون من البصرة والموصل الى الامصار بعد تلقينهم اصول الدعوة وتدريبهم على اساليب نشرها . وتدور برامج اعدادهم حول عقائد المذهب مع الالمام بحمل علوم العصر النقلية والعقلية فضلا عن تبصيرهم بفنون الادارة واساليب الحكم . وتلقينهم المهارات في اكتساب الاتباع وترغيبهم في اعتناق المذهب . وبعد تأكد القادة من اعداد الدعاة اعدادا كافيا يزودونهم بالمال والمتاع للرحيل الى موطن الدعوة الذى يكلفون بالذهاب اليه . ومن هنا يرسلون برسائلهم في انتظام الى شيخ التنظيم ليقف على نشاطاتهم ويزودهم بنصائحه وتوجيهاته .

ويذكر محمود اسماعيل أنه تحصل على وثيقة هامة ضمن مجموعة الفتاوى الفقهية المخطوطة بدار الكتب المصرية تقيم الدليل القاطع على استمرار النشاط السرى للخوارج والتنسيق الكامل بين الدعاة او بين مركز الدعوة واطرافها ، وهي عبارة عن رسالة بعث بها شيخ الدعوة في البصرة ويدعى (ابو عبيدة) ، الى دعاته في المغرب في اوائل القرن الثاني الهجرى . وهذا جزء مما ورد فيها :

" اتاني كتابكم تذكرون فيه ما من الله به عليكم من جمع كلمتكم وائتلاف امركم في كثرة من بحضركم من اهل الخلاف . ولعمرى ما اكثرتهم وان كثروا باكثر مما كان قبلهم على ما كان قبلكم من سلفكم ، فاقتدوا بهم عليكم كثرتهم على اخلافكم . نسأل الله العون والتوفيق في جميع اموركم وان يكفينا واياكم بأسهم . وان يجعل لنا ولكم ولجميع المسلمين الدائرة عليهم ، ويشفي صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم . فلعمرى لقد اسرني ما انتهيتم اليه من امركم وان كان ذلك لم يخف عنا . غير انا نظن الذى كتبتم به الي ، والله يستتم لكم الخير كله بعونه وتوفيقه .." (٢)

ومعروف ان الخوارج توصلوا الى اقامة دولة في المغرب ، وهذا ما يؤكده التواصل القائم بين تنظيمهم في المغرب وفي المشرق الذى دلت عليه هذه الرسالة .

وقد تعرض الخوارج الى الانقسام الى جماعات متناحرة جاوزت العشرين فرقة ولا شك

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط -ج٢ ص٤٧٥-٤٧٧

ذكرها : محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والادارية (العصر العباسي الاول) ص١٦

(٢) اسماعيل (محمود) - الحركات السرية في الاسلام ص ١٩

ان ذلك ادى الى تشتت جهودهم . فكان عليهم ان يغيروا من اساليب كفاحهم بنبذ طريق الثورة واتباع اسلوب العمل السرى والدعوة المستورة . ونقل ميدان نشاطهم الى الاطراف بعيدا عن متناول الدولة .

ان دراسة المرحلة الجديدة تكتنفها صعوبة كبيرة ، وذلك راجع لطبيعة العمل السرى ومايرتبط به من صعوبة الحصول على المعلومات الصحيحة . يضاف الى ذلك ماتعرض له الخوارج من اضطهاد ومحن قُضي بسببها على معظم كتبهم ورسائلهم .

واهم تلك الفرق الخارجية :

الاباضية : اصحاب عبد الله بن اباض التميمي - وهم اكثر اعتدالا .

الصفرية : اتباع زياد بن الاصفر - وهم اقل تطرفا .

الازارقة : اتباع نافع بن الازرق الحنفي - وهم متطرفون ، كفروا جميع من خالفهم واحلوا قتلهم وحرموا التقية ومنعوا الزواج ممن خالفهم .

النجدات : اتباع نجدة بن عامر الحنفي ، وهم اقرب الى الازارقة .

البيهسية : وهم اصحاب ابي بيهس (١)

وقد عرفت تلك الفرق تطورات هامة اخضعت مبادئها الى الواقع الذى فرض عليها بعض التغيرات . ظهر ذلك في عزوف الاتباع الجدد عن آراء الفرق المتطرفة كالازارقة والنجدات ، واقبالهم على معتقدات الصفرية والاباضية . كما تجسد ذلك في فتح الباب امام الموالي لاعتناق مذهبهم فأكسبوه بذلك ، صفة انسانية ، وكانوا يطلقون على الداخلين الجدد في مذهبهم اسم (المهاجرة) .

وعندما تعرض الخوارج الى مزيد من اضطهاد العباسيين التجأوا مرة اخرى الى اسلوب العمل السرى . فبايعوا احدهم بالامامة خفية بعد مصرع قائدهم (ابو الخطاب) ، وكانوا يلقبونه بـ " امام الدفاع " ، اما اذا توفرت له ظروف آمنة للعمل العلني سموا امامهم بـ " امام الظهور " وقد تجسد ذلك بشكل واضح حينما اسسوا دولتهم عام ١٦٢ هـ بالمغرب الاوسط في مدينة " تاهرت " عاصمة الدولة الرستمية وقد ابتهج التنظيم الام في البصرة بهذا الانتصار فبعثوا بالاموال والدعاة الى ذلك الاقليم . (٢)

---

(١) عمر (فاروق) - نفس المرجع - ص ٢٤٥

(٢) (اسماعيل (محمود) - نفس المرجع - ص ٢٦

ان حزب الخوارج دخل الساحة السياسية قويا صلبا ، متشددا في طرح مبادئـه بدون مسايرة ، تدل على ذلك ،رسالة احد قادة الخوارج الى المهدى العباسي ففيها يظهر ذلك التشدد والعزم ، الشيء الذى لا نراه مثلا في رسائل الشيعة . ولكنه خرج من تلك الساحة ضعيفا واهنا . فقد لعبت عوامل الانقسام التنظيمي الذى ادى الى صراع شديد دورا هداما لصفة القوة التي اتسمها في بداياته. فضلا عما لاقاه الخوارج واتباعهم من تنكيل وتعذيب فرق وحدتهم الى اقاصي الخلافة البعيدة . فالخوارج لم تكن حالتهم حسب مانعتقد بأفضل من حال الشيعة او الامويين ،فالشيعة كانوا يستندون في الحالات العصيبة الى مبدأ الحكم الهاشمي الذى طرحه العباسيون في دعوتهم ، وقد افادهم ذلك في تقليص شدة غضـب الخلافة عليهم ، اما الامويون فكانت لهم الدولة الاموية في الاندلس خير ملجأ ونصير. اما الخوارج فكانوا اكثر نبذا وملاحقة نتيجة لموقفهم الصارم من الخلافة .

(جـ) الشيعة (العلويون)

يقول محمد (ذو النفس الزكية) وهو احد الثوار البارزين في حركة الشيعة .
" والله لقد كنا نقمنا على بني امية مانقمنا ، فما بنو العباس الا اقل خوفا لله منهم ، وان الحجة على بني العباس لا وجب منها عليهم ، وقد كانت للقوم مكارم وفواضـل ليست لابي جعفـر " (١) .

يتضح من هذه العبارة وغيرها ان معارضة العلويين ازدادت في العصر العباسي على ماكانت عليه في العصر الاموى ، فمبررات الثورة ،بنظرهم ، اصبحت اكثر مما كانت عليه سابقا . فبعد فترة من الكفاح المرير الى جانب العباسيين ، خذلـوا واستفرد بنو عمومتهم بالخلافة وبدأوا يستبعدونهم . وبالتالي فان هذا الثائـر الذى اقض مضجع الخليفة (المنصور) بدأ يدعو صراحة الى الاحتجاج على دولة بني العباس ومقاومتها لانهم خرجوا عن الوعود وظلموا الرعية واسقطوا العهود .
ان الاحداث والظروف العسيرة التي كانت تمر بها المعارضة العلوية ادت الى احداث تغيرات مستمرة على الحركة اهم ماجاء فيها :
آ- الانقسامات التي شهدتها الحركة الشيعية اذ ظهرت عدة فرق ذات مواقف مختلفة من الخلافة وغيرها من القضايا .

---

(١) الاصفهاني (ابو الفرج) - الاغاني - جـ ١٠ ص ١٠٦

ب- اما جوهر التطور الثاني فهو تمتين موقفها السياسي والاجتماعي من السلطة
فقد اصبح ذلك الموقف يمثل سمة بارزة في كفاح العلويين ضد العباسيين .

- وجوهر الخلاف بين فرق الشيعة لا يعدوا ان يكون تفضيل امام على آخر ، تتشعب
آراؤهم السياسية والدينية لتظهر حقيقة الخلاف بين تلك الاتجاهات التي كان للزعامات التي
قادتها دور وأساسي في انتظام امرها واستمرار وجودها . فالحسينيون ادعوا لاحقية
الخلافة في آل الحسين دون غيره من اولاد علي . وحجتهم في ذلك ان الحسين
بن علي وهو الاخ الاكبر للحسين كان قد تنازل عن حقوقه الى اخيه الحسين . و
وادعى آخرون ان اولاد علي من فاطمة لهم وحدهم حق الخلافة في حين ادعى
آخرون ان هذا الحق يشمل اولاد علي من غير فاطمة مثل محمد بن الحنيفة .. وهكذا
وتقسم اهم الفرق الشيعية الى :

١- الامامية : (الاثني عشرية) : وهم اتباع جعفر الصادق ، وهو لا يؤمن
بحمل السلاح ضد الدولة العباسية رغم معارضته لها . وقد عمل جعفر
ضمن مبدأ التقية . ومن فروع الامامية :
" الاسماعيلية " الذين قالوا بالائمة المستورين ، لان الامام يجوز له أنه لم
تكن له شوكة وقوة يظهر بها على اعدائه ، وانما يظهر دعاته . ومسروف
ان هؤلاء الائمة ظلوا مختفين الى ان تم قيام الدولة الفاطمية ، ويسمون
ايضا بالباطنية . (٢) .
٢- الزيدية : وهي محاربة يمثلها محمد وابراهيم ابني عبد الله .
٣- حركة الغلو الشيعية .

وكان العلويون يرون ان علي بن ابي طالب واولاده من بعده ، هم احق المسلمين
بالخلافة ، فتشيعت جموع غفيرة من العامة لهم . وقد بدأ اطلاق تسمية " الشيعة"
عليهم منذ مقتل عثمان ، حينما انقسمت الدولة الى حزبين :
حزب علي ، وحزب معاوية . (والحزب يطلق عليه في العربية ايضا اسم " الشيعة "
فكانت شيعة علي في مقابل شيعة معاوية . ولكن لما تولى معاوية الملك في دولة

---

(١) الاصفهاني (ابو الفرج) - الاغاني - جه ١ ص١٠٦
(٢) امين (احمد) - ضحى الاسلام - ج ٣ ص ٢١٣

الاسلام كلها ولم يعد مجرد رئيس حزب ، اصبح استعمال اللفظ " شيعة " مقصورا على اتباع علي . ودخل في هذا الاستعمال ايضا تعارضهم مع الخوارج (١).

وينطوي مبدأ الشيعة في الامامة على موقف ارستقراطي ، ذلك انهم يقولون بان الامامة ليست من الامور التي تفوض الى (الامة) ، فتولي الامامة يتم بالتعيين والنص . كما يظهر ذلك من خلال رفعهم ايمتهم الى مرتبة المعصومين من الخطأ حينما رفعوا من شأنهم كثيرا ونزهوهم . وهذا الموقف ينسجم حسب رأينا مع كل المواقف الاستقراطية الاخرى العربية وغير العربية ، اذ ان العلويين يلزمون قيادة الخلافة في بني علي ، غير اننا لا نضرب الصفح عن الظاهرة السياسية العامة في ذلك العصر ، التي اتسمت بها معظم القوى السياسية والاجتماعية الا وهي ظاهرة الارتكاز على شخصية تاريخية او نسب عريق تلتأم حوله الجماهير الطامحة الى قيادة نموذجية تتصف بالشجاعة والعدل والعلم . وهذا يبرره ماأحيطت به تلك الشخصيات من الاوصاف الخيالية والروايات الاسطورية .

والحقيقة ان مستوى التطور الاجتماعي آنذاك كان يفرض وجود تلك الافكار والطموحات التي جسدت فكرة المهدى المنتظر احد اشكالها الطامحة .

اتصفت المعارضة العلوية زمن الامويين بالشدة والتطرف ، فحاولوا انتزاع الخلافة منهم متبعين كل السبل ، ولكن سبيل العمل السياسي السرى كان غالبا . فاستعملوا التقية والتكتم ، وابدوا للامويين في آخر ايامهم انهم منصرفون الى الدين والعمل في التجارة . وهذا مايفسره لنا انعدام اراءهم السياسية في تلك الفترة وانصراف المؤرخين الى الاكتفاء بتسجيل مواقفهم وآراءهم الدينية . والحقيقة ان موقفهم المؤيد والمساند للدعوة العباسية كان مؤكدا ، لكن الكفة كانت راجحة لبني العباس الذين عرفوا كيف يجيرون كفاح العلويين لصالحهم ويستفيدون من تشيع العامة لهم دون ان يمثلوا خطرا على تفردهم (العباسيون) بالسلطة فيما بعد .

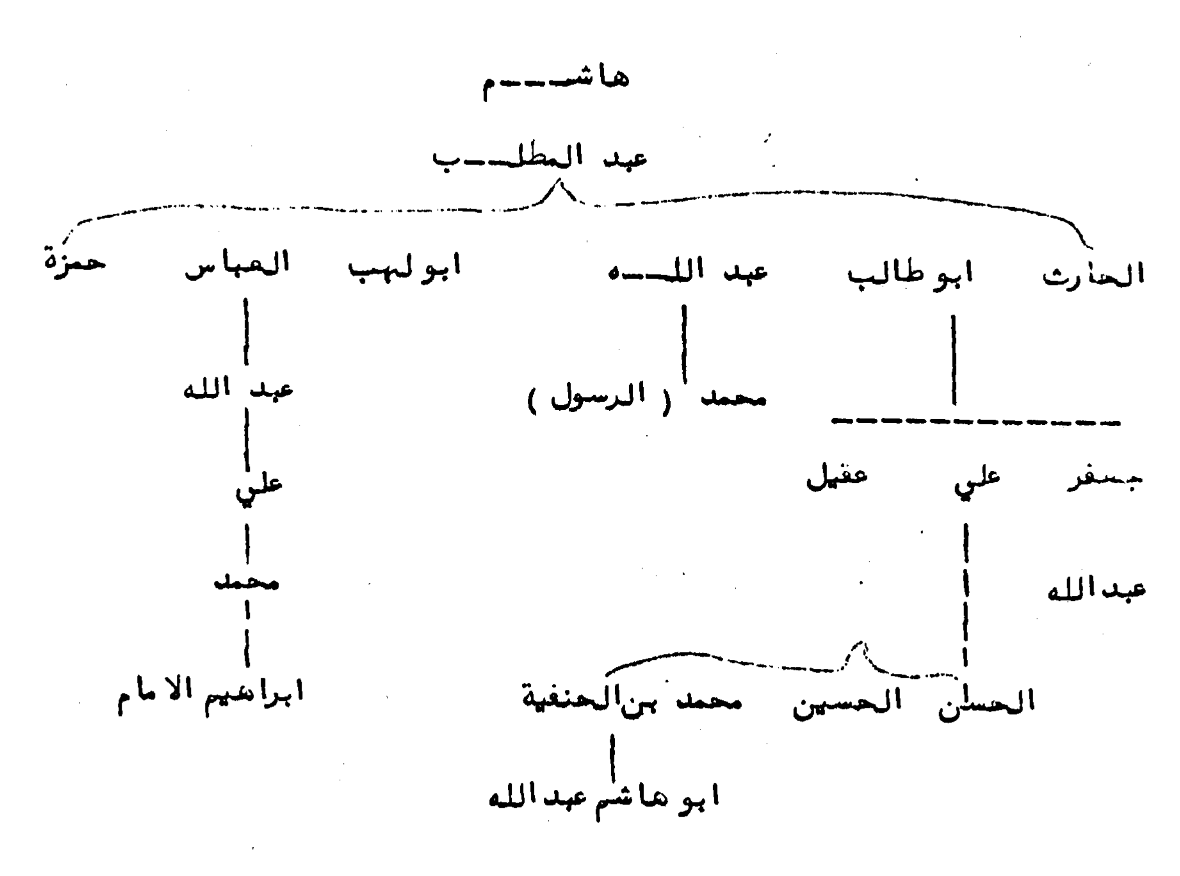
فمجيء العباسيين بالشكل القوى المفاجأ فوت على العلويين الفرصة . وبدأ موقفهم يزداد تبلورا حول خداع العباسيين ومغالطتهم . اذ كان العباسيون ينادون في دعوتهم بتولية (الرضا من آل محمد) دون تحديد صريح . لكنهم انفردوا بالحكم

---

(١) فلهاوزن (يوليوس) - الخوارج والشيعة - ط٣ - ص ١١٢

وضيقوا الخناق على بني عمومتهم . فبدأت مرحلة جديدة من العداء بين الطرفين .

الاســـرة الهاشـــمية :



(١)

- هكذا فان السبب الرئيسي في معارضة الشيعة ، بمختلف فرقها ، للعباسيين ينطلق كما رأينا في دراستنا لبعض الفرق (الخوارج ، الامويون) من منطلـق سياسي ، وليس باستطاعتنا القول بان ذلك المنطلق يستند بالاساس الى القرابـة الدموية لان صفوف المعارضة الشيعية لم تقتصر على افراد الاسرة العلوية فقط بـل ضمت عددا كبيرا من المتعاطفين بشكل مبدئي مع سياسة علي . وقد أدت معاناة هذا الحزب الى تبني مبادئ العدل والمساواة ، كما تبنى التيار العقلي في مخاطبة الجماهير الساخطة .

اعتبر العلويون ان العباسيين مغتصبين للسلطة بدون حق .

وكان ابرز الشخصيات الطالبية حينما ظهرت الدولة العباسية : جعفر الصادق ومحمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية . اما الاول فكان منصرفا الى العمـل

---

(١) عمر (فاروق) - العباسيون الاوائل - ص ١٦٤

العلمي والفقهي ، اذ رأى ان الظروف ليست ملائمة للمطالبة بالحقوق السياسية.
اما الثاني فكان يرى العكس ، وقد شجعه على المطالبة بالحكم ابو عبد الله واخوه ابراهيـــم .

حفلت المرحلة العباسية الاولى بالثورات العلوية التي لم تتوان الدولة العباسية في قمعها بشدة بعد محاولات عديدة لتصفيتها سلميا .
تميزت علاقة ابني العباس بالعلويين بالمجاملة ومحاولة الاسترضاء وعدم ايصال الامور الى حافة الانفجار ، فقد كان عارفا بخيبة الامل التي اصابتهم نتيجـــة لانتقال الخلافة الى بني العباس ، واذا صح خبـر المؤتمر الهاشمي - العلوى العباسي - الذى عقد زمن بني امية وبايع فيه الجميع محمد النفس الزكية بالخلافة وكان ابو العباس وابو جعفر من جملة الحاضرين - يكون قد اجتمع اكثر من سبب لابي العباس لمعالجة الامور بالحكمة ومحاولة ارضاء العلويين . وبالمقابل لـــم يلجأ العلويون الى العنف . لذلك غلب الاحسان واغداق الصلات على علاقة ابي العباس بهم . اما عندما علم بخروج الاخوين ، محمد وابراهيم ، عليه فانه اكتفى بارسال رسالة عتاب الى ابيهما ، وقد ختم رسالته تلك بقوله :

اريد حياته ويريـد قتلـــي عذيرك من خليلك من مـــراد

فأرسل اليه عبد الله قائلا :

وكيف يريد ذاك وانت منـــه بمنزلة النيـــاط من الفـؤاد (١)

اما في فترة حكم المنصور فقد استفحلت المعارضة فكان من اهم احداث تلك المرحلة الصراع الذى دار بين الدولة من جهة وبين ثورات محمد ذى النفس الزكية واخوه ابراهيم من جهة ثانية ، والحقيقة ان المطلع على سياسة المنصور مع خصومه تجعله يدرك كيفية اطلاق وصف (السفاح) على ابي العباس في حين ان ابا جعفر المنصور كان اولى به من اخيه . ولربما كان ذلك الوصف يمثل احدى الوسائل - الدعائية التي روجتها الدولة العباسية ابان صعودها حتى تخيف اعداءهـــا وخصومها فترهبهم مثل تلك الاوصاف .
وسوف نتعرض ليتا ما الى الوضع السياسي للشيعة في عهد الخلفاء اللاحقين . لكننا سوف نركز قبل ذلك البحث في ثورة ذى النفس الزكية ، باعتبارها تمثل نموذجا متقدما

---

(١) الاصفهاني (ابو الفرج) - مقاتل الطالبيـــن - ص ١٢٠

للصراع السياسي في العصر العباسي ، وذلك بالاستناد الى مراسلاته المتبادلة مع الخليفة المنصور ، وادعائه باحقية الخلافة مقدما الادلة والبراهين .

وهي تمثل من جهة اخرى نموذجا من الصراع الصدامي العسكري الذي عبرت عنه المعارك التي دارت بين جيش الدولة العباسية واتباع محمد من الشيعة في الحجاز، بما في ذلك انتفاضة العامة في المدينة اثر اعمال الشغب التي قام بها جنود العباسيين . ففي سنة ١٤٥ هـ ظهر محمد ذو النفس الزكية ، وبايعه اهل الحجاز بالخلافة ولقبوه بامير المؤمنين ، وبعث اخاه ابراهيم الى البصرة ليأخذ له البيعة .

رد المنصور على ذلك بمحاولة ارضاء العلويين ومصالحتهم لكنهم استمروا على معارضته فوصفهم بالجهل في خروجهم على العباسيين بدلا من خروجهم على اعدائهم فقال :

مالي اكفكف عن سعد ويشـتمني وان شتمت بني سعد لقد سكنوا

جهلا علي وجبنا عن عدوهـم لبئست الخصلتان الجهل والجبن (١)

ومن المعروف ان الفقيه المشهور ابا حنيفة انضم الى حركة ابراهيم كما عرفت الحركة العلوية مساندة مالك ابن انس ومحمد بن هرمز وغيرهما . ولا شك ان لذلك دلالته في تدعيم الحركة الشيعية واكسابها مضمونا شرعيا وشعبيا ، مما اثر على سياسة الدولة في مواجهة ثورات العلويين . فحاولت بشتى الطرق عدم التصادم . يذكر صاحب العقد الفريد في وصية ابي جعفر المنصور الى عيسى بن موسى لما ارسله لمحاربة محمد عند ما ثار في المدينة : " ياأبا موسى : اذا صرت الى المدينة فادع محمد بن عبد الله بن الحسن الى الطاعة والدخول في الجماعة فان اجابك فاقبل منه ، وان هرب منك فلا تتبعه ، وان أبى الحرب فناجزه واستعن بالله عليه . فاذا ظفرت به فلا تخيفن اهل المدينة وعمهم بالعفو فانهم الاصل والعشيرة وذرية المهاجرين والانصار وجيران قبر النبي ..." (٢) .

ادرك العباسيون ان الحركة العلوية اصبحت تمثل رمز المعارضة لدولتهم ، وخاصة عند ما استفحل امرها بين صفوف الجماهير المعدمة و وضمها في صفوفها العديد من المعارضين في الفرق الاخرى ، ومشايعة الفقهاء لها .

---

(١) الطبري - التاريخ - جـ ٨ ص ٩٢

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد - جـ ٥ ص ٨٦ - ٨٧

ارسل ابو حنيفة الى ابراهيم يشير عليه ان يقصد الكوفة وكان يشجع على الخروج معه : " ائتها سرا ، فان من هاهنا من شيعتكم يبيتون ابا جعفر فيقتلونه او يأخذون برقبته فيأتونك به . . " (١) .

وعندما ظهر ابراهيم ارسل المنصور لقائده عيسى ليترك محمدا والمدينة ويتجه الى البصرة " اذا قرأت كتابي فاقبل ودع ما انت فيه" . حينذاك ارسل ابو حنيفة الى ابراهيم مؤيدا وناصحا : " اذا اظفرك الله بعيسى واصحابه فلا تسر فيهم سيرة ابيك في اهل الجمل فانه لم يقتل المنهزم ولم يأخذ الاموال ولم يتبع مدبرا ولم يذفف على جريح لان القوم لم يكن لهم فئة ، ولكن سر فيهم بسيرة يوم صفين فانه سبى الذرية وذفف على الجريح وقسم الغنيمة لان اهل الشام كانت لهم فئة وكانوا في بلادهم ." (٢) .

ومما زاد في خطورة الحركة العلوية ، ادعاء محمد بانه المهدى المنتظر الذى طالما انتظره الناس فجاء ليملأ الخلافة عدلا بعد ان ملأها العباسيون جورا .

(فقد كانت هذه المناورة بارعة لان الطبقات الفقيرة كانت قد فقدت رجاءها في ثورة العباسيين باعتبارهم المنقذين ، واخذت تنظر الى حركة جديدة ومنقذ جديد ، واصبح محمد ذو النفس الزكية بديلا للمنقذ العباسي .) (٣) . وذلك ما يؤكد ايضا ان الحركة العلوية اصبحت رمزا للمعارضة واملا في حكم جديد يحقق العدل والمساواة بين الناس ، اكثر من تعبيرها عن حق العلويين في الخلافة . وقد اكتسب الائمة شعبية كبيرة لانهم لم يتعرضوا للحكم ولم يتعرضوا للجمهور بسوء ، فلم تجرب اعمالهم ، يضاف الى ذلك انهم مضطهدون اضطهادا مستمرا من الولاة والخلفاء وعواطف الناس دائما مع المضطهد المظلوم . وهي على عكس ذلك مع المضطهد ومن يتولى الحكم : ان نصف الناس اعداء" لمن " ولي الاحكام هذا ان عدل (٤)

---

(١) الاصفهاني - مقاتل الطالبين - ص ٢٤٣
(٢) الاصفهاني - نفس المصدر السابق - ص ٢٤٣ - ٢٤٤
(٣) عمر (فاروق) - المرجع السابق - ص ١٧٤
(٤) أحمد امين - ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٣٢

والظاهر ان تحدي محمد كان الشغل الشاغل للخليفة [فلم تكن له همة الا طلب محمد والمسائلة عنه وما يريد) ومن اجل (ان يستخرج الثعلب من جحره)(١) . فأرسل عيونه على هيئة تجار واعراب الى الحجاز بحثا عن محمد . وعندما اعتقل الخليفة عبد الله بن الحسن والد محمد واخوته واقرباءه نتيجة رفضهم التعاون معه او حتى الاشارة الى مكان وجود محمد ،قال في احدى خطبه : " فاني والله يا أهل خراسان ، ماأتيت من هذا الامر ماأتيت بجهالة ،بلغني عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالا فقلت : قم يافلان ، قم يافلان ،فخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه ،فخرجوا حتى اتوهم بالمدينة فدسوا اليهم تلك الاموال ،فوالله مابقي منهم شيخ ولا شاب ،ولا صغير ولا كبير الا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم واموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي فلايرون اني اتيت ذلك على غير يقين ."(٢) هكذا كان الخلفاء يواجهون المعارضة ، لا يتورعون عن اتباع كل السبل لتشويه خصومهم امام شيعتهم ، وشيعة العباسيين كما هو واضح هم اهل خراسان البعيدين عن ساحة الصراع مع الشيعة العلوية ، اذ لماذا لم يتوجه الخليفة بكلامه الى اهل الحجاز الذين تهمهم الثورة اكثر من غيرهم ، اذا كان الخليفة متأكدا من تشيعهم لخلافته ؟ ويبدو ان كاتب المنصور (كاتب الرسائل) او مساعدة علي صياغتها على الاقل ،بالغ في وضع لمسات التزلف والغرور مما اوقع الخليفة في هذا الموقف ، موقف المبالغة في تحريف سير الاحداث والوقائع .

ادت مضايقات العيون والمخبرين والتجار الى ظهور محمد واعلان ثورته ورغم ان معظم المؤرخين (البلاذري ـ المسعودي ـ الطبري ـ الاصفهاني) يذهبون الى ان السبب المباشر لثورة محمد ، تعرض عائلته للاعتقال والقتل ،الا اننا نرى ان تلك الفترة التي ظهر فيها صراعه الفعلي مع الدولة ،ماكان لها ان تتأخر اكثر من ذلك الحد . لان التناقضات الاجتماعية والسياسية التي بدأت تتراكم منذ زمن بعيد بلغت اوجها ،فلافائدة في التستر ، والعمل السري مرحلة مؤقتة ، ولا شك ان تعرض عائلة محمد للتنكيل كان من بين تلك الاسباب والتناقضات .

---

(١) الطبري ـ التاريخ ـ جـ ٧ ص ٥٦٤ ـ ٥٦٥

(٢) الطبري ـ نفس المصدر والصفحة .

تمثلت اولى تحركات هذا الثائر وصحبه في خروجه مع حوالي ٢٥٠ رجلا فسيطروا على السجن وخلصوا المسجونين وسيطروا على بيت المال واعتقلوا (رياحا المرى) - (الذى عينه المنصور في مهمة البحث عن محمد والقبض عليه - . ثم سيطروا على المدينة فمكة وارسل مبعوثين الى اليمن وسوريا ومصر (١) (مراكز المعارضة آنذاك) . تؤكد تلك الاجراءات التي اتخذها الثوار على ذكاء سياسي وقدرة على الحركة وتوجه معارض لحكام الدولة يساند الضعفاء من الناس والمظلومين ، فاستيلاؤه على بيت المال يقطع الموارد عن الخلافة ويقوى حركته . واطلاق المسجونين يكسبه الشعبية والمناصرين . وسيطرته على مكة والمدينة رمز لا شرافه على مقدسات المسلمين ومراكزهم الروحية يبطل، حسب رأيه ، مبرر خلافة العباسيين .

صراع الجيش العباسي (الخراساني) واهل المدينة
(العبيد والفقراء وصغار التجار)

يقول الطبرى : " نازع جند الوالي ابن الربيع التجار في بعض ما يشترون منهم ، فخرجت طائفة من التجار حتى جاؤا دار مروان ، وفيها ابن الربيع فشكوا ذلك اليه ، فنهرهم وشتمهم ، وطمع فيهم الجند ، فتزايدوا في سوء الرأى . . وقد انتهب الجند شيئا من متاع السوق وهاجموا احد الصرافين فلم يغير الوالي شيئا ولم يتدخل ، كما تصادم الجزارون مع الجند وقتلوا واحدا منهم ، وتنادى السودان عن الجند وهم يروحون الى الجمعة فقتلوهم بالعمد في كل ناحية ، فلم يزالوا على ذلك حتى أمسوا ، فلما كان الغد هرب ابن الربيع . " (٢).

لقد كان تصرف الجيش العباسي شاذا عام ١٤٥ ، فهو تصرف ينبأ عن غرض مقصود ينم على التشفي من المعارضة المتشيعة للعلويين ، فأخذ البضائع بدون ثمن اغضب الناس ، ولم يكن ضرر الحرفيين والتجار الصغار بأكثر من ضرر العبيد والزنوج الذين كانوا مساندين للحركة العلوية ، كما كان اعتداء الجنود على الاسواق التي يقومون هم باعمالها وخدماتها يعتبر تحديا لهم ولسادتهم في نفس الوقت ولا شك ان شيوخ المدينة وتجارها اعتبروا هذا العمل اهانة لهم من قبل جيش الخلافة الغريب ،

---

(١) - عمر (فاروق) - نفس المرجع - ص ١٨
(٢) - الطبرى - التاريخ - ج٧ ص ٦١٠

فحرضوا مواليهم وعبيدهم ضد الجند العباسي . ولكننا لا ننفي امكانية قيام العبيد والرعاع بتلك الحركة نقمة على الطرفين (أسيادهم والجيش العباسي) ورغبة في ال التنفيس على مشاعرهم . بمثل ماكان الحال بالنسبة للعياريين عندما حوصرت بغداد من جيش المأمون . ومما يدل على استياء الحالة الاقتصادية للعبيد (يسميهم الطبري السودان) ، نهبهم لمخازن الاعاشة الحكومية ، وكما هو الحال دائما فان التجار والاشراف يستغلون الاحداث لصالحهم فيحصدون الثمرة ويلتجأون الى الموقف الاسلم لهم ، فقد خاف هؤلاء من عواقب الحالة ورد فعل الخليفة ، فهدأو الحالة واستدعوا الوالي المطرود .

وكان من بين اعمال العامة ، اخراجها القاضي محمد بن ابي سبرة من السجن وهو معروف بميوله العلوية ، واخذوه الى المسجد ليؤم الصلاة (وفي ذلك رمز كبير) ولكنه بعد ذلك نصحهم بطاعة الخليفة والالتزام بتأييد الدولة (١) .

وهاهنا نلاحظ شيئا من الضعف في الحركة العلوية بالحجاز ، ويظهر ذلك الضعف في التنظيم والحركة ، عندما تسبقه الاحداث فيتحول الامر الى هبات يقودها العبيد والفقراء للتنفيس على احوالهم المعدمة ، ولا نجد من خلال الاخبار المسرودة دورا يذكر لقيادة محمد ، ولعل الاخطر من ذلك ، وهي مسألة برأينا اكيدة ، ان تلك الحركة الشعبية بتضحياتها وتحركاتها العفوية لا تعطي اكلها فلا تكسب القائمين بها اى مكسب بل تحول الى حركة تفتقد الى خيط ناظم لحباتها المتناثرة المتآكلة .
ولا يخفى مالهذه الاعمال التي قام بها العامة مدعمين بحركة محمد ذى النفس الزكية من خطر على الدولة . اذ بلغ التحدى طرد ممثلي السلطة العباسية واخراج معارضيها من السجن والاستيلاء على مخازن المال والطعام " ولما هرب ابن الربيع وقع السودان في طعام لابي جعفر من سويق ودقيق وزيت وقسب ، فانتهبوه ، فكان حمل الدقيق بدرهمين وراوية الزيت بأربعة دراهم " (٢) .

ولنستعرض الآن بعضا من تلك الرسائل المتبادلة ، بين محمد ذى النفس الزكية بالمدينة وبين ابي جعفر المنصور بالعراق ، وتوجد نصوص تلك الرسائل الهامة في " العقد الفريد " لابن عبد ربه ، و " مقاتل الطالبين " لابي الفرج الاصفهاني .

---

(١) ـ الطبرى ـ التاريخ ـ جـ ٧ ـ ص ٦١١
(٢) ـ الطبرى ـ " ـ جـ ٧ ـ ص ٦١١

رسالة المنصور الى محمد ذى النفس الزكية لما اعلن هذا الاخير الثورة ضده

" بسم الله الرحمان الرحيم . من عبد الله عبد الله امير المؤمنين الى محمد بن عبد الله : أما بعد : فانما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم . (١).
ولك عهد الله وذمته وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ان تبت من قبل ان اقدر عليك ان اؤمنك على نفسك وولدك واخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك ، وان اعطيك الف الف درهم وانزلك من البلاد حيث شئت واقضي لك ماشئت من الحاجات ، وان اطلق من في سجني من اهل بيتك وشيعتك وانصارك ثم لا اتتبع احدا منكم بمكروه فان شئت ان تتوثق لنفسك فوجه الي من يأخذلك من الميثاق والعهد والامان ماأحببت والسلام ".

جواب محمد ذى النفس الزكية للمنصور :

" بسم الله الرحمان الرحيم ، من عبد الله محمد المهدى امير المؤمنين الى عبد الله ابن محمد . اما بعد : طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلوا عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ، ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودها منهم ماكانوا يحذرون (٢) وانا اعرض عليك من الامان مثل الذي اعطيتني ، وقد تعلم ان الحق حقنا وانكم انما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخطيتموه بفضلنا ، وان ابانا عليا عليه السلام كان الوصي والامام فكيف ورثتموه دوننا ونحن احياء ؟ وقد علمت انه ليس احد من بني هاشم يمتمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا . وانا بنو ام رسول الله (ص) فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم ، وبنو ابنته فاطمة في الاسلام من بينكم . فانا اوسط بني هاشم نسبا وخيرهم أما وأبا ، لم تلدني العجم ولم تعرق في امهات الاولاد ،

(١) - سورة المائدة ، الايات - ٣٣ - ٣٤
(٢) - سورة القصص ، الايات - ١ - ٦

وان الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا فولدني من النبيين افضلهم محمد (ص) ، ومن اصحابه اقدمهم اسلاما واوسعهم علما واكثرهم جهادا علي بن ابي طالب ، ومن نسائه خديجة بنت خويلد اول من آمن بالله وصلى القبلة ، ومن بناته افضلهن وسيدة نساء اهل الجنة ، ومن المولدين في الاسلام الحسن والحسين سيد شباب اهل الجنة . ثم قد علمت ان هاشما ولد عليا مرتين ، وان عبد المطلب ولد الحسن مرتين : وان رسول الله (ص) ولدني مرتين من قبل جدي الحسن والحسين . فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار ، فولدني ارفع الناس درجة في الجنة واهون اهل النار عذابا ، فانا ابن خير الاخيار وابن خير الاشرار وابن خير اهل الجنة وابن خير اهل النار . ولك علي العهد ، ان دخلت في بيعتي ان اؤمنك على نفسك وولدك وكل ما اصبته ، الا حدا من حدود الله ، او حقا لمسلم او معاهد فقد علمت ما يلزمك في ذلك ، فانا اوفي بالعهد منك وأحرى لقبول الامان . فاما امانك الذي عرضت علي فأي الامانات هو أمان ابن هبيرة ام امان عمك عبد الله بن علي ام امان ابي مسلم ؟ والسلام" .

جواب المنصور :

" من عبد الله عبد الله امير المؤمنين الى محمد بن عبد الله ، اما بعد : فقد اتاني كتابك وبلغني كلامك فاذا جل فخرك بالنساء ، لتضل به الجفاة والغوغاء : ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والاولياء : وجعل العم ابا وبدأ به على الوالد الادنى فقال جل ثناء ، عن نبيه عليه السلام : واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب (١) . ولقد علمت ان الله تبارك وتعالى بعث محمدا (ص) وعمومته اربعة فأجابه اثنان احدهما ابي ، وكفر اثنان احدهما ابوك فاما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو اعطين على قرب الانساب وحق الاحساب فكان الخير كله لآمنة بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه . فاما ما ذكرت من فاطمة ام ابي طالب فان الله لم يهد احدا من ولدها للاسلام ، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب اولاهم بكل خير في الآخرة والاولى واسعدهم بدخول الجنة غدا ،

---

(١) سورة يوسف الاية ٣٨

ولكن الله ابى فقال : انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء (١). فاما ماذكرت من فاطمة بنت اسد ام علي ابن ابي طالب وفاطمة ام الحسن وان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الاولين والآخرين محمد رسول الله (ص) لم يلده هاشم الا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب الا مرة واحدة ، واما ماذكرت من انك ابن رسول الله فان الله عز وجل ابى ذلك فقال "ماكان محمد ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين (٢). ولكنكم بنو ابنته وانها لقرابة قريبة غير انها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز ان تؤم فكيف تورث الامامة من قبلها ؟ ولقد طلب بها ابوك بكل وجه فاخرجها تخاصم ومرضها سرا ودفنها ليلا فابى الناس الا تقديم الشيخين . ولقد حضر ابوك وفاة رسول الله (ص) فامر بالصلاة غيره . ثم اخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا اباك فيهم . ثم كان في اصحاب الشورى فكل دفعة عنها وبايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان . وحارب اباك طلحة والزبير ودعا سعدا الى بيعته فاغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده ، وافضى امر جدك الى ابيك الحسن فسلمه الى معاوية بخرق ودراهم واسلم بديه شيعته وخرج الى المدينة فدفع الامر الى غير اهله واخذ مالا من غير حله ، فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه . فاما قولك ان الله اختارك في الكفر فجعل اباك اهون اهل النار عذابا فليس في الشر أخيار ، ولا من عذاب الله هين ، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ان يفخر بالنار ، وسنرد فتعلم ...

ولقد علمت ان جدك عليا حكم حكمين واعطاهما عهده وميثاقه على الرضا بما حكمابه ، فاجتمعا على خلعه ، ثم خرج عمك الحسين بن علي على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ، ثم اتوا بكم على الأقتاب بغير اوطية كالسبي المجلوب الى الشام ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم بنو امية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فادركنا بثأركم اذلم تدركوه ، وورثنا اقداركم واورثناكم ارضهم وديارهم بعد ان كانوا يلعنون اباك في ادبار الصلاة المكتوبة كما يلعن الكفرة ، ففنناهم وكفرناهم وبينا فضله واشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة

---

(١) سورة القصص ، الآية ٥٦

(٢) سورة الاحزاب الآية ٤

وظننت انا لما ذكرنا من فضل علي انا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر ، كل اولئك مضوا سالمين مسلما منهم وابتلي ابوك بالدماء . ولقد علمت ان مآثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الاعظم وولاية زمزم ، وكانت للعباس دون اخوته فنازعنا ابوك فيها الى عمر فقضى لنا عمر عليه " (١) .

وبعد مقتل محمد وابراهيم استمرت ثورات العلويين ، حيث خرج ابراهيم بن حسن بمصر ، فكتب ابو جعفر الى الشيعة العلويين بالمدينة كتابا يذكرهم فيه ابراهيم بن الحسن وخروجه بمصر ، وانه لم يفعل ذلك الا برأيهم ، وانهم يدأبون في طلب السلطان ، ويلتمسون بذلك القطيعة والعقوق ، وقد عجزوا عن عداوة بني امية لما نازعوهم السلطان ، وضعفوا عن طلب ثأرهم ، حتى وثب بنو ابيه (اى بنو العباس) طلبا لثأرهم ، فأدركوا بدمائهم ، وانتزعوا السلطان عن ايديهم ، وتمثل في الكتاب بشعر سبيع بن ربيعة فقال :

فلولا دفاعي عنكم اذ عجزتم ... وبالله احمي عنكم وادافع
لضاعت امور منكم لا أرى لها ... كفاة وما لا يحفظ الله ضائع
فسروا لنا من طحطح الناس عنكم ... ومن ذا الذى تحنى عليه الاصابع؟
وما زال منا قد علمتم عليكم ... على الدهر افضال يرى ومنافع
وما زال منكم اهل غدر وجفوة ... وبالله معتز وللرحم قاطع
وان نحن غبنا عنكم وشهدتم ... وقائع منكم ثم فيها مقانع
وانا لنرعاكم وترعون شأنكم ... كذاك الامور ، خافضات روافع
وهل تعلون اقدام قوم صدورهم ... وهل تعلون فوق السنام الاكارع
ودب رجال للرياسة منكم ... كما دربت تحت الغدير الضفادع؟ (٢)

ـ عبرت تلك المراسلات عن اهم وجه للعلاقات العباسية العلوية ، لانها استطاعت ان تبين عن وجهات الخلاف واسباب التنافس حول الخلافة . كما بدا فيها ـ العباسيون اول الامر حريصين على تطويق الخلاف والقضاء عليه بالطرق السلمية ، ولكنهم كما يبدو من الرسائل والاخبار ، كانوا يتصدون للمعارضة العلوية بشكل

---

(١) المبرد ـ الكامل : ج٣ ص١٢٧
الطبرى ـ التاريخ ج٧ ص٥٦٦ وما يليها .

(٢) الطبرى ـ التاريخ ج ٨ ص٩

ماأوتوا من امكانيات ، وفي ذلك اقرار بان العلويين يمثلون اهم منافس لهم ، وقد استمرت المنافسة والتتبع ، فحاول الخليفة ضبط تحركات بقايا الشيعة ، اوصى قائد جيشه عيسى بن موسى قائلا : " من لقيك من آل ابي طالب فاكتب الي باسمه و من لم يلقك فاقبض ماله " (١) . وقد بينت المراسلات اصرار كل من الطرفين على احقيته بالخلافة مما ادى الى اتباع كل البراهين العقلية والنقلية لاثبات ذلك .

اما العلويون فانهم اضافوا مرتكزا آخر لحركتهم ، ففضلا عن اتباعهم الطرق العقلية والنقلية لاقناع الخليفة وبالتالي المطلعين على نصوص الرسائل ، تبنوا مبدأ الدفاع عن حقوق المستضعفين " نريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم الوارثين " .

كما لم يتركوا ثغرة في حكم العباسيين الا وابانوها ، فوصفوهم بالظلم ونقض العهود ، وحتى اقرب الناس اليهم ، وقادتهم ، لم يسلموا من خداعهم ، فاستشهد وابخدعتهم لابي مسلم الخراساني الذى انتصر العباسيون بفضل قيادته العسكرية والسياسية للخراسانيين . ولم يتوانوا في اماطة اللثام على خديعتهم للعلويين ابان قيام الدولة العباسية ، بعد ان استغلوا الدعوة باسمهم والتفوا على حقهم في الخلافة (وقد تعلم ان الحق حقنا وانكم انما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا) .

ومن جهة اخرى ، نلاحظ مبالغة محمد ذى النفس الزكية في الاعتداء بنسبه العلوى وفي افتخاره بسبب أصله العربي من جهة امه ، واطعن في نسب ابي جعفر لان أمه كانت أمة بربرية ، ففي كلامه ذلك اهانة للموالي ولكل المواطنين من غير العرب . ولا شك ان ذلك ينسجم مع ماذهبنا اليه في بداية هذا البحث من ان العلويين اعتمدوا في جزء من دفاعهم عن حقهم في الخلافة على مفهوم ارستقراطي قائم على النسب . وان دل ذلك على شيء فانما يدل على قوة دور العصبية الدموية في الصراع السياسي ، فالى جانب المبادئ المنادية بالعدل والمساواة ، يوجد - وبشكل قوى - تركيز على الاصول القبلية والعشائرية والاقوامية ، حتى لكأن اى حزب او جماعة لا يمكنها ان تستمد شرعية استمراريتها الا باستنادها على تلك الاصول . ذلك ماتوحي به حقيقة العصر ، ويبدو ان الارتكاز على العصبية كان امرا طبيعيا ، بل ضرورية الى درجة ان المنضوين تحت لواء الشيعة أو المتعاطفين معهم من الموالي (فرس - بربر) لم يظهروا احتجاجا ازاء مبالغة القادة العلويين بنسبهم واحتقارهم للانساب الاخرى .

---

(١) الطبرى التاريخ - جـ ٧

حركة العلويين في عهد خلفاء المنصور :

بالرغم من التجاء العلويين الى كفكفة جراحهم بعد صراع مرير مع المنصـور ، فانهم استمروا في معارضة سياسة العباسيين ، وبالطبع فان مالاقاه الشيعـة ليس بالامر اليسير ، ولا يمكن ان ينسى الاسلاف ماتعرضوا له اخلافهم من تنكيـل وتشريد . فليست حركتهم مجرد تمرد قامت به شخصيات معينة مايلبث ان ينتهـي بمجرد القضاء على قادته . بل هي حركة منظمة لها اهدافها ومبادؤها وجـدت لتستمر بعد المنصور ومن تلاه .

ففي عهد الهادي (١٦٩هـ ١٧٠) استطاع (صاحب معركة فخ) الحسين بن علي بن الحسن الصعود الى منبر الرسول ، وفي نص بيعته يقول : " ابايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله ، وعلى ان يطاع الله ولا يعصى ، وادعوكم الى الرضا من آل محمد ، وعلى ان نعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه ، والعدل في الرعية ، والقسم بالسوية ، وعلى ان تقيموا معنا وتجاهدوا عدونا ، فان نحن وفينا لكم وفيتم لنا وان نحن لم نف لكم فلا بيعة لنا عليكم " (١) هكذا كان الاستمرار في الحركة ، استمرارا معارضا تمثل العدالة قضيته الاجتماعية والخلافة قضيته السياسية.

والمعروف ان الرشيد ابقى على بعض قادة العلويين في سجونه مثل موسى بن جعفر العلوي . يقول الطبري في اخبار ١٧١هـ ان الرشيد " امر باخراج العلويين من بغداد واعادتهم الى المدينة الا عددا يسيرا منهم " (٢) ، والمؤرخون عندما يقولون (امر الرشيد) انما يريدون القول ان البرامكة هم الذين قنوا بالامر . والحقيقة ان اجراء نقل المتشيعين للعلويين الى المدينة كان يمثل تحديا واضحا وتعديا على الحرية الشخصية ، فلم يكن ذلك مجرد اطلاق سراح بقدر ماكان يقصد به استبعاد المعارضين وتطويقهم في مكان واحد لمراقبة تحركاتهم .

وفي عهد المأمون تحرك العلويون ودعوا الناس الى الثورة فقال احدهم : " ايها الناس : هبكم لم تحضروا الحسين فتنصروه ، فما يقعدكم عمن ادركتموه ولحقتموه ؟ وهو غدا خارج طالب بثاره وحقه وتراث آبائه واقامة دين الله ، وما يمنعكم في نصرته ومؤازرته ؟ انني خارج من وجهي هذا الى الكوفة للقيام بأمر الله ، والذب

---

(١) الاصفهاني - مقاتل الطالبين - ص ٢٩٩
(٢) الطبري - التاريخ - جـ٨ ص ٢٣٥

عن دينه ، والنصر لاهل بيته فمن كان له نيةفي ذلك فليلحق بي "(١) وعندما اثار ابو السرايا في العراق ثار الطالبيون في مكة وخلعوا المأمون ونصبوا عوضاعنه خليفة محمد بن جعفر ، وعند مهاجمته بمكة تراجع وادعى انه كان يعلم ان المأمون قد مات (٢) .

ويبدو أن آثار الثورات التي شنها (ذو النفس الزكية) في عهد المنصور اخفت في عهد المأمون وعلى يد هذا الثائر ابعادا اجتماعية هامة حينما اتصفت الحركة في الحجاز بالبعد الطبقي لان معظم انصار الطالبيين كانوا من العامة :
(واجتمع الى محمد بن جعفر من كان معه من غوغائها ، ومن سودان اهل المياه ، ومن فرض له من الاعراب ...) (٣) .

ويبدوا استمرار الموقف متجسدا في رسائل العلويين اللاحقين ، دون ان نجد اختلافا يذكر عما جاء في رسائل محمد وابراهيم . فالتشكيك بصدق عهود العباسيين هو نفسه ، والمناداة صراحة بالثورة لم تتغير ، ولكننا نجد تركيزا من قبل سؤلاء على " الثأر" لآبائهم ، حيث اصبح الثأر هدفا يحتل المرتبة الاولى في سلم الاهداف العلوية ، فمنذ قليل رأينا احدهم يقول :
" وهو غدا خارج طالب بثأره وحقه وتراث آبائه " . وها هو عبد الله بن موسى العلوى اخو علي الرضا يرسل الى المأمون قائلا :" فبأى شيء تغرني ؟ مافعلته بأبي الحسن - صلوات الله عليه - بالعنب الذى اطعمته اياه فقتلته ، والله مايقعدني عن ذلك خوف من الموت ولا كراهية له ... فهبني لا ثأرلي عندك وعند آبائك المستحلين لدمائنا ، الآخذين حقنا ، الذين جاهروا في امرنا فحذرناهم ، وكنت الطف حيلة منهم بما استعملته من الرضى بنا والتستر لمحنتنا ، تختل واحدا فواحدا منا ، ولكني امرؤ حبب الي الجهاد ، كما حبب الى كل امرئ بغيته ، فشحذت سيفي وركبت سناني على رمحي .." (٤) . ان طول مقام المأمون في خراسان ونفوذ الفضل بن سهل جعلاه يجنح الى تولية عهده شخصا علويا ، ويدل منشور المأمون الذى اصدره عندما اختار عليا الرضا لولاية العهد على شعور كبير بالمسؤولية

---

(١) الاصفهاني - المصدر السابق - ص ٣٣٧
(٢) الطبرى - التاريخ - ج٨ ص٥٣٤ الى ٥٤٠
الاصفهاني - مقاتل - ص ٣٥٨ ، ٣٤٤
(٣) الطبرى - التاريخ - ج ٨ ص ٥٣٩
(٤) الاصفهاني - مقاتل - ص ٤١٥

" فبعد ان نظرفي البيتين العباسي والعلوى لم يجد افضل من علي الرضا (علي ابن موسى بن جعفر) لهذا المنصب . . فعقد له بالعهد والخلافة ايثار الله والدين ، ونظرا للمسلمين ، وطلبا للسلامة وثبات الحجة والنجاة في اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين) (١) . كذلك فان الامام على بن موسى الرضا الذى عينه الخليفة العباسي (المأمون) كولي للعهد قد قبل قائلا :" اني قد اجبت وان كان (الجفر) و (الجامعة) . تدلان على ذلك . .) (٢) . وكالعادة يعلن علي الرضا في جوابه للمأمون على رسالته السابقة شُكره له" لانه عرف من حقنا ماجهله غيره فوصل ارحاما قطعت وأمن انفسا فزعت " (٣) . ويتعهد بالسير بالعدل والحكم بالنص اذا ماآلت اليه الخلافة .

حقيقة الامر ان الاجراء الذى اتخذه المأمون كان جريئا ، بل انه يعتبر تحولا جوهريا في عقيدة الدولة العباسية وسياستها . ولايبدوا ذلك غريبا اذا وصلناه بشخصية المأمون الحرة ، فقد جاء هذا الخليفة بقرارات اكثر خطورة كفرضه لمبدأ (خلق القرآن) . تلك الشخصية المعروفة بولائها للفرس وضجرها من سيطرة النسب العربي في الدولة ، هاهو ذا هنا يحاول اشراك العلويين في الخلافة . ولكننا نعتقد ان ذلك القرار الخطير كان احد النتائج العملية لنضال العلويين المرير، لانه بالتأكيد لا يعبر عن مجرد رغبة ذاتية من قبل المأمون بقدر ماهو استجابة لضغط المعارضة العلوية التي أقضت مضجع الخلفاء وارهبتهم ، فضلا عن انها وجدت في شخصية المأمون (المساويه) تقبلا واستحسانا . ويظهر لنا الاعتراف الصريح بحق العلويين وقوة حجتهم واشرافهم على النصر من قوله : " . . وطلبا للسلامة وثبات الحجة والنجاة . . " .

---

(١) القلقشندى - كتاب صبح الاعشى - ج ٩ ص ٣٦٥
(٢) ABANOVA المجلة الاسيوية - ص (٥) من ترجمتنا
(٣) - القلقشندي - كتاب صبح الاعشى - ج ٩ ص ٣٩١

اهم سمات الصراع مع المعارضة :

ان اهم مايمكن ملاحظته من ذلك الخضم الزاخر بالافكار والوقائع هو ان المسألتين السياسية والاجتماعية كانتا محور الصراع .

وتحتل مسألة الخلافة جوهر الصراع بين القوى . ولكن الهدف الاجتماعي لم يكن متوفرا لدى الجميع ، وبالاخص الاطراف الرسمية ، كالامويين والعباسيين . وقد اتخذ هذا الصراع ابعادا فكرية وايديولوجية مهد لها المفكرون والادباء والفقهاء كل من موقعه الطبقي مستفيدين من نتاج الحضارة الانسانية الذى عم بفضل انتشار الترجمة . ولكن طبيعة العصر لا تسمح لنا نحن المتأخرون بالتأكيد بثقة على انتماءات المثقفين الطبقية . فرغم اهمية الموقع الطبقي في تحديد الاتجاهات والآراء الا ان اختلاف المواقع وتداخلها وغلبة التقسيم الثنائي (عامة / خاصة) دون وجود تفاصيل شابتة بين تينك الطبقتين ، تضفي على ذلك التحديد صعوبة ليست هينة .

كما عرفت مسيرة هذا الصراع مراحل متعددة تتدرج بين السرية والكمون والمواجهة الدعائية السياسية ، الى الصراع الدموى العنيف ، فكان العنف والعنف المضاد سمة بارزة في الصراع .

كما اتسم بالانقطاع والاستمرار ، اذ عرفت بعض الاتجاهات فترات من الركود الجزئي والكلي ، فالساحة السياسية تظهر قوى وتختفي اخرى ، ولكن القوى العريقة كالخوارج والشيعة والمعتزلة ، كانت اكثر بروزا واكثر تهديدا للدولة .

وقد ادى الاختلاف في وجهات النظر حول الخلافة بين احزاب المعارضة الى تشتت جهودها وتعارض كفاحها مما اضعف من فعالياتها ، فلم تظهر فكرة العمل الجماعي المعارض المنظم ، وهذا مايؤكده عدم الاتفاق حول متطلبات حل المسألة الاجتماعية واولويتها .

على ان المعارضة كانت اكثر التزاما بتعاليم الاسلام اذ حاولت استنباط المبادئ الانسانية والعقلانية والاجتماعية لمواجهة خصومها العباسيين وكان اهم تلك المبادئ التي اتفقت حولها فرق الخوارج والمرجئة والمعتزلة ، احقية اى مسلم بالخلافة بغض النظر عن اصله او عصبيته .

- المبحث الثانـــي :

الصراع بين العباسيين والموالـــي

مقدمـــة :

" الموالي " جمع مولى ، وتطلق على المسلمين من غير العرب ، وكثيرا ما تطلق على سكان بلاد فارس وخراسان ، لانهم يمثلون اكثرية وقد دخل هؤلاء الاسلام وانضمت بلادهم الى الدولة العربية الاسلامية .

وقد شكل الموالي مكانة هامة في بنية جيش الدولة التي حملت اليهم دعوة جديدة تقوم على مبادئ التوحيد في الميدان الديني والمساواة بين الناس والتقريب بين الشعوب في الميدان الاجتماعي .

والحقيقة ان جماهير تلك الشعوب كانت تنبهر بتلك المبادئ لما تنوء به حياتهم من اعباء استغلال الاكاسرة وتفردهم بالحكم والثروة . كما كانت تعجب بتلك السير والممارسات التي اتبعها المسلمون الاوائل في سبيل نشر دعوتهم وتطبيق مبادئهم .

وما كان للفتوح الاسلامية ان تنجح في استقطاب تلك الجموع الغفيرة من الناس لولا حصول القناعة بافضلية تلك المبادئ التي بدأ الدعاة ينشرونها وملاءمتها لحياة الجماهير الكادحة .

الا ان التطورات التي صحبت مرحلة الفتح ولحقتها بدأت تؤثر على ماجناه العرب من فضل التوسع وانتشار الصيت واقبال الناس على دعوتهم .

فاتساع الدولة وتمدد مهماتها كان يصحبه اتساع في المهمات وتعقد في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية . ولم تكن سياسة الامويين في ادارة البلاد المفتوحة بالامر الهين ، كما انهم فهموا ان ذلك التوسع وتلك القوة يبرران لهم سياسة الاستئثار بالسلطة وارهاق الناس بالضرائب والمكوس . وهكذا تحولت النصرة الى نقمة . - حينما بدأ الموالي يشتكون من الوضع المتفاقم الذي بدأ يرهقهم ويذكرهم باستغلال سادتهم القدامى .

فاستئثار الامويين - وبالتالي العرب - بالخلافة والولاية ، نجم عنه ظهور ارستقراطية عربية واسعة اثرت على حساب الفقراء من الموالي ، فاقتنت القصور والضياع واستولت على اموال الجباية واعفيت من الضرائب .

واعتقد الحكام الامويون ان ولاء الموالي لهم يمكن ان يتدعم بتفويض الجباية الى العناصر الفارسية والاستعانة بهم ، فلجأوا الى فئات الدهاقين من كبار ملاك الاراضي ، ولكن ذلك زاد الطين بلة لان هؤلاء الدهاقين كانوا اكثر معرفة بطبيعة الفلاحين والارض والانتاج ، فتفننوا في طرق الاستغلال وتكديس الثروة واستفادوا من مراكزهم في اعفاء اراضيهم الخاصة من الضرائب وحماية الدولة لهم. ولكن ذلك لم يغفل من ابدان العمال العرب في تلك الولايات الشرقية عن تكوين الثروات الضخمة ومساندة " بني جلدتهم وعصبيتهم في سلوكهم المشين" (١). لقد اسهمت تلك الاجراءات في احياء التناقضات الطبقية عندما استردت طبقة الدهاقين نفوذها القديم على حساب الطبقات الكادحة . وادى تعميق الفوارق الاجتماعية والاقتصادية الى دخول ذلك التذمر حيز المعارضة العنيفة . فضلا عن ان تلك النقمة كانت مصحوبة بنزعة عصبوية تدفع الموالي الى احياء المجد الفارسي القديم (٢).

كانت الدعوة العباسية الصاعدة تتخذ من خراسان - في اواخر العصر الاموى - مقرا لنشاطها محاولة جمع العناصر المتذمرة تحت لوائها ، ودفعهم لتقبل مبادئها فقوت فيهم روح التوثب والثورة فكانوا لها خير مساندين .

ورغم اقرارنا بمشاركة الموالي الفعالة في نصرة العباسيين واخراج دعوتهم الى حيز الثورة على الامويين وايصالهم الى الحكم ، فاننا لا نستطيع الاخذ بتلك الآراء التي تبالغ في إعتبار الثورة العباسية ثورة الموالي على الدولة العربية .

اذ ان تلك الآراء كونت توجها هاما في تفسير التاريخ العباسي ، وهو توجه برأينا يقوم على التفسير العنصري ، لانه لا يضع الاحداث في اطارها التاريخي الحقيقي باعتبار ان الثورة العباسية قامت على تحالف واسع بين العباسيين والعلويين (بنو هاشم) . وبين الخراسانيين (الموالي) . ففضلا عن بعض المستشرقين من امثال (فان فلوتن) و (ولهاوزن) يوجد بعض المؤرخين المحدثين من امثال عبد العزيز الدوري وحسن ابراهيم حسن ، وغيرهم . هؤلاء المؤرخون والدارسون اعتبروا ان ثورة العباسيين ماهي الا ثورة الفرس على العرب بدعوى انها احيت امجاد الفرس القديمة .

---

(١) - ابو يوسف - كتاب الخراج - ص ٦١

(٢) - ابن حزم - الفصل في الملل - ج ٢ ص ١١٥

ولكننا نوافق جماعات اخرى من المؤرخين والباحثين في القول بان الثورة قامت على علاقات التحالف بين العرب والفرس ،بين من لحقهم اضطهاد الامويين ، وليس الصراع الاقوامي سوى عامل من بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الاخرى المؤثرة .

فني خراسان كان يعيش عدد كبير من السكان العرب الذين اختلطوا بالسكان الاصليين وتأثروا بمعيشتهم وانماط حياتهم،اننا نجد كثيرا من الصحة في الرأى الذي يقول بأن (تحالف العباسيين مع الخراسانيين لم يتم لان خراسان غير عربية او لانها مخالفة للحكم العربي ،بل لانها بعيدة عن يد بني امية ، ولان الشيعة فيها اقوى واليمانيين عددهم كبير) (١). نضيف الى هذا الرأى جانبا آخر هو اشتراك كل هؤلاء في التضرر من الحكم الاموى .

كما ان الرواية القائلة بان كثيرا من اهل خراسان لم يعلنوا تأييدهم للثورة العباسية وان كثيرا منهم قاتلوا الى جانب نصر بن سيار والي الامويين على خراسان (٢) . ذات دلالة تضفي الصحة على ماذهب اليه. ويرى الجاحظ انه من الصعوبة بمكان تمييز السكان العرب الذين استقروا في خراسان عن سكان القرى الاصليين (٣) ، وهكذا يصعب التفريق بين سكان خراسان على اساس العنصر .

لقد تيسرت للقبائل العربية المهاجرة اثناء الفتوح سبل الاستقرار فاختلطت بالسكان الاصليين واصبحت لا تختلف عنهم في حياتهم . اما الامتيازات فانها كانت من نصيب بعض القواد والعمال ورؤساء القبائل فقط .

ويعرف العرب المقيمون "بالمقاتلة" فكانوا يجاهدون صيفا ويعودون شتاء الى عوائلهم في مرو والقرى المحيطة بها او في مدن خراسانية اخرى .

وقد ادى الاستقرار الى تملك الاراضي حيث وزعت على قسم كبير من قادة المقاتلة مساحات صغيرة يسكنون فيها ويعملون بها ، كما وزعت المساحات الواسعة على القادة الكبار الا ان استغلالهم لتلك الاراضي لم يتعد الحصول على الضرائب .

وقد خضعت القبائل التي امتلكت المساحات الصغيرة لاجراءات الضرائب والخراج ، وبالتالي كان مصدر تذمر العرب وغير العرب واحداً هو الامير الاموى والدهقان الفارسي .

---

(١) ـ العش (يوسف) ـ تاريخ عصر الخلافة العباسية ـ ص٢٧
(٢) عمر (فاروق) ـ العباسيون الاوائل ـ ص٤٨
(٣) الجاحظ ـ رسائل الجاحظ (ذكرها فاروق عمر ـ ص ٣٩)

وقبل ان ننتقل الى دراسة العلاقات السياسية والاجتماعية القائمة بين الموالي والعباسيين بعد مرحلة التحالف ، نحب ان نعرج على الوضع الاجتماعي للموالي ، من الناحية الشخصية على الاقل ، في الدولة العربية الاسلامية . تثبت الحقائق التاريخية ان الموالي تحصلوا على مكانة هامة في العصر العباسي ،ولكنهم منذ مرحلة الفتوح عوملوا من الناحية التشريعية على اساس من المساواة ، واذا كانت هنالك فوارق اجتماعية واقتصادية فانها كانت عامة تشمل العرب وغير العرب . اما الامتيازات فكانت من نصيب الطبقة الارستقراطية في كلا الشعبين .

ولم تفرق المبادئ الاسلامية التي جاءهم بها العرب بين العرب والاعاجم الا بمقدار علمهم وايمانهم بالعقيدة الجديدة . ولكن تسميتهم بالموالي ، كان امرا طبيعيا يستلزمه التقسيم الاجتماعي ،فليس من السهولة بمكان ان تندمج الثقافات المختلفة ، لان الدارس لتاريخ الشعبين لابد له من ان يلاحظ استمرار الخصائص المميزة لكل منهما رغم احلال المقاييس الجديدة في المجتمع الاسلامي .

ويذهب احد الكتاب الى ان الرق ازداد اثر الفتوح العربية ،وان (استخدام العبيد واستغلالهم كان شيئا مألوفا في العهود الاسلامية) (١) . وان الاسلام لم يغير من طبيعة علاقات الارقاء والموالي بأسيادهم ملاك العبيد والاقطاعيين . ولكننا نرى ضرورة التأكيد على وجود فرق في تلك التبعية الشخصية للعبد اوالمولى بين مرحلة واخرى . لان تلك التبعية كانت تختلف في جوهرها في العصر العباسي عنها في العصر الاموى وعنها في العصر الذى سبق فترة الفتوح .

وكنا قد ذكرنا سابقا ان الاقطاع في الدولة العربية الاسلامية كان يختلف عن الاقطاع الفارسي . اما العادة القائمة على الحاق المسلمين الجدد انفسهم بقبيلة من القبائل العربية فيقال (موالي بني فلان) ،فانها لم تكن سوى امرا شكليا لا ينطوى من الناحية القانونية على شيء يلزم الموالي بأداء واجبات مفروضة . والتاريخ يثبت لنا ذلك الاستقلال الشخصي - بالنسبة للاحرار - من خلال وصول الموالي الى عدة مراتب قيادية سياسية وعلمية ودينية . ولسنا ننكر وجود خلاف بين الفقهاء والمشرعين حول تحديد طبيعة تبعية الرقيق والموالي .

---

(١) عزيز (حسين قاسم) - البابكية - ص ٨٦

اما فيما يتعلق بزعم هذا الباحث ان اعداد العبيد قد تضاعفت في الدولة العربية الاسلامية فاننا نرى العكس لان تطور التشريع وخاصة في مجال التشجيع على العتق والتزاوج مع العبيد والموالي ادى الى الاختلاط وتقليص اعداد الرقيق ، وما كان يجلب عن طريق التجارة العالمية لا يمكن ادخاله في تلك المقارنة لان امكانيات التحرر اوفر لهؤلاء .

كما ان مقارنة بالارقام لا يمكن ان تتم دون ان نراعي نسبة ازدياد السكان عما كانوا عليه في المجتمع " الجاهلي " مثلا .

---

(٦) الموالي في الدولة العباسية :

انتشر نظام "التوليد" في العصر العباسي ،ويعني التوليد اختلاط الدم بين الاجناس (١) وقد نشأ هذا النظام من نظام الرق والولاء . كما تجسد خلال تلك المرحلة في شكلين . التوليد الجسمي ،والتوليد العقلي او بالاحرى الثقافي الذى عبر عنه "المولدون" . اما الشكل الاول فقد جاء نتيجة للاختلاط والتزاوج ،واما الشكل الثاني فانه نتيجة للتقارب والتمازج الثقافيين .

وقد ادى ذلك الاختلاط الى تقلص الحدود بين من هو عربي ومن هو فارسي في العصر العباسي الاول ،بل ان الخلفاء تباروا في تقريب مواليهم . ربما لاثابة ايمانهم بالمساواة وربما ليجازوهم على وقفتهم المساندة ابان نجاح الدعوة العباسية ولا شك ان المبالغة في ذلك الاتجاه اثارت حفيظة عدد من الناس .

عندما اولى المهدى يعقوب بن داود الوزارة ،وفوض اليه الامور كلها ،وقدمه على سائر موظفيه واقاربه كان بشار بن برد يقول :

بني امية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فاطّلبوا * خليفة الله بين الدف والعود (٢)

ورغم الالتباس الذى يمكن ان تحدثه هذه الرواية من حيث ان هذا الوزير من الموالي ، وبشار ايضا من الموالي ، اذ كيف نفسر امتعاضه من استوزار احد بني عصبيته وهو ابرز اعلام الحركة الشعوبية . رغم ذلك فان هذه الرواية وغيرها تدل على المكانة البارزة التي حضي بها الفرس في الدولة العباسية . وان العباسيين حتى مرحلة متأخرة من حكمهم كانوا حريصين على الاقتراب من حلفائهم وساعديهم في الثورة على الامويين ؛ وتثبت لنا الممارسة العملية ان تلك المكانة اوصلتهم الى اكثر المراكز حساسية في الدولة ، فكانوا في اغلب المراحل الحكام الحقيقيين الذين يديرون شؤون الدولة ،ويشرفون على كل الوظائف والموارد والسياسات . فـ(ابو سلمة الخلال) كان اول وزير عباسي ،و(ابو ايوب الورياني) اثان وزير المنصور ، و(يعقوب بن داود) كان وزير المهدى ،وكذلك البرامكة ،وجميع هؤلاء من الموالي (٣) .

---

(١) - امين (احمد) - ضحى الاسلام ج١ ص٩
(٢) - الطبرى التاريخ - ج ٨ ص ١٥٦
(٣) - الخربوطلي (علي حسني) - المهدى العباسي - ص١٠٣
* - فاطلبوا : ذكرها ابن الاثير (فالتمسوا)

ولكن تلك الحظوة صحبتها حركة خفية كانت تدب في اعماق المجتمع منبأة بحدوث صراع دام بين تيارين كبيرين كانا ينموان في المجتمع العربي الاسلامي منذ فترة الحكم الاموى . عرفت تلك الحركة "بالحركة الشعوبية" . وقد تجسد هذا الصراع في تيار فكرى . ثقافي يعبر عن طرفين متناقضين . ولا بد من الاحتراس من تعميم مفهوم "الشعوبية" ، فهو يختلف بين عصر وآخر كما يختلف في دلالاته بين طبقة واخرى .

وليس من السهل على الباحثين وصف هذه الحركة باوصاف نهائية دقيقة لتعدد العوامل السياسية والعصبوية والاجتماعية والاقتصادية في صياغتها وتحديد معالمها . ويجد الباحث في تلك الحركة ، نفسه امام خضم هائل من الآراء ، سواء منها المتعلقة بجوهر الحركة ، ولدى من خاض غمارها ، او المتعلقة بالنقد والنصوص . فالكل يدلي بدلوه حسب رأيه وطريقته في فهم الاحداث والنصوص . وكثيرا ما تحيد الاهواء بالباحثين عن التفسير الصحيح لطبيعة الشعوبية " واهدافها .

فالدورى مثلا ، رغم دراسته العميقة للجذور التاريخية للحركة الشعوبية ، (١) استحق على رأيه الإنحياز الى طرف معين بدعوى ان (الشعوبية تمثل حملة على العرب ، وانها تنطوى على نزعة ايرانية على هامش الحياة الاسلامية) (٢) . يقابل ذلك رأى آخر يصب عمليا في نفس المصب ، وهو رأى قاسم حسين في كتابه " البابكية " الذى يتحيز فيه للطرف الآخر - الايراني - بدعوى التميز الى الجماهير المنتفضة ضد بطش الدولة العباسية . وكأن جوهر "الشعوبية" كان ينصب على معالجة المسألة الاجتماعية فقط ، او انها تمثل ايديولوجية الحركة البابكية والخُرَّمية التي يعتبرها الكاتب حركة اجتماعية بالاساس .

هذان الرأيان يمثلان اختصارا لجملة من الآراء . انهما ينطلقان من افكار معاصرة ويضربان الصفح عن الحقيقة العلمية ، ويتحيزان للتبريرات العقائدية قبل كل شيء ، رغم اقرارهما بالجوانب الاخرى ، فالرأى الاول يبالغ في اعتبار ان الصراع القومي ضد العرب يمثل جوهر تلك الحركة فيبرر موقف الشعوبيين العرب ، وبالتالي موقف السلطة العربية في حالات اخذها بثأر العرب . وبالتالي يبالغ في اعتبار ان الصراع القومي

---

(١) الدورى (عبد العزيز) - الجذور التاريخية للشعوبية - بيروت ١٩٦٢

(٢) الدورى (عبد العزيز) - مقدمة في التاريخ الاقتصادى العربي ص٦٦

ضد الشعوب غير العربية واحتقارها يبرر ظهور تلك الحركة ونضالها ضد العرب، حيث يقول (وكانت هذه الحركة النامية " الشعوبية " بين افراد الطبقات المضطهدة ذات طابع تقدمي ،لانها كانت تنشد الدفاع عن كرامة الشعب ، واظهار مآثره ، ورفع الاحتقار والانتقاص من شأنـه) (١) ، هذا الرأى فيه كثير من التعميم وعدم الدقة ، لان المتصدين للشعوبية من كلا الطرفين كانوا في حقيقة الامر لا ينتمون الى الطبقات المضطهدة ـ الا فيما ندر ـ ، وانما كان الصراع يدور من حيث الدفاع عن الكرامة والتحقير والمآثر والمثالب ،بين مجموعة المثقفين اما جماهير العامة فكانت بعيدة عن ذلك المفهوم الارستقراطي سواء منها ذات النسب العربي او الفارسي ،بل انها كانت منشغلة بواقعها المعاشي الصعب ، على اننا لا ننكر انجرارها وراء ،دعايـــة الطرفين التي اتخذت من الشعر والادب اطارا للصراع .

ثم كيف يمكن لنا ان نعتبر ان ذلك (الصراع التافه) بين الكتاب العرب وغير العرب المليء (بالتلفيق والوضع والتعالي والتعصب الاعمى) يمثل البناء النظرى للممارسة الثورية لتلك الحركات والانتفاضات الاجتماعية ؟

ونحن لا نعتقد ان الافكار " الشعوبية " ،بطرفيها ، استطاعت ان تقود الجماهير الكادحة من العرب والفرس الى ميدان الصراع الفعلي ،وانما كان وضعها المعاشي المنهار والافكار الداعية الى المساواة والعدل ،وممارسات الحكام الجائرين ،ونضال القوى السياسية (المنظمة) ،هي التي جرت الجماهير الى الحركات والثورات .

ورغم حذرنا مـن تلك الآراء الاحادية ،المتحيزة ،فاننا لا نستطيع انكار تأثيــــر المنطلقات (الشعوبية) على الصراع الاجتماعي في ذلك العصر ،بل وفي عصرنـــا الراهن . لكن مانريد استبعاده ، تعميم الاسباب الاولى لظهور الحركة الشعوبية شكلا ومضمونا ، على الفترات اللاحقة دون التنبه الى التطورات التي شهدتها هـذه الحركة وتأثيراتها الايجابية والسلبية على الحياة الاجتماعية .

وينطلق تأكيدنا على الاحتراس من التعميم ، من ان المنطلقات الاساسية للشعوبيين الفرس كانت البحث عن المساواة مع الشعوب الاخرى (٢) . والقضاء على امتيازات العرب في العهد الاموى ، ورغبتهم في الاعتراف بفضلهم في نشر الاسلام والوفاء للعرب .

---

(١) عزيز (حسين قاسم) ـ البابكية ـ ص ٩٣

(٢) امين (احمد) ـ ضحى الاسلام ـ ج ١ ص ٥٥

ولكنهم تجاوزا هذا المطلب في العصر العباسي - الى احتقار العرب وامتهان مكانتهم السابقة (١) حفاظا على مركزهم الجديد في الدولة العربية.

والحقيقة ان تسمية التيار الشعوبي "بأهل التسوية" تدل على نزعة المنضوين تحت لوائه الى المساواة والعدل، "جزء هام من هذا التيار سمي اهل التسوية اى الذين يسوون بين الامم، ولا يجعلون فضلا لامة على اخرى ويمثلهم اكثر المتدينين والعلماء من العرب والعجم" (٢). ولا نعرف الزمن الدقيق الذى اطلقت عليهم فيه تلك التسمية - وهم يسمون انفسهم "اهل العدل والتسوية" حتى نتأكد من علاقتها الحقيقية بالمراحل التي مرتبها الحركة الشعوبية. الا اننا نميل الى الاعتقاد - مع بعض الباحثين - بأن "اهل التسوية" كان الاسم الاول للحركة لمناداتها بالمساواة، وذلك ماتدلنا عليه احوال الموالي في العصر الاموى.

اما تسمية "الشعوبية" فجاءت في فترة لاحقة عندما اصبحت تضم طرفي المعادلة الصراع، حينما انضم اليها اعلام من العرب، يدافعون عن هويتهم ويعززون امجادهم في مقابل الهجوم الذى شنه عليهم الكتاب الموالي، وذلك في اعقاب حصولهم على حُظوة الخلفاء العباسيين، وامتلاكهم هامشا كبيرا من حرية التعبير.

وكلمة "الشعوبية" اصلها من "الشعوب" ويعتقد انها جاءت من احتجاج الموالي بالآية الداعية الى المساواة والتقارب بين الشعوب (ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم).

ويستشهد احمد امين بحسن رأى بعضهم في ان المقصود من الشعوب في القرآن هم العجم وبالقبائل العرب (٣).

وهكذا يمكننا القول بأن الحركة الشعوبية نشأت في ظروف موضوعية فاتخذت في بداياتها شكل ايديولوجية مساواة وتعصب اقوامي. واقتصرت على الموالي فقط.

ثم تحولت في العصر العباسي الى حركة تعصب شملت العرب ايضا وفقدت بعدها (المساواتي).

واكثر مانجد لتلك الحركة تجسدا، في المجال الثقافي والسياسي.

---

(١) الجاحظ - البيان والتبيين - ج٣ص٣٨٣
(٢) امين (احمد) - ضحى الاسلام - ج١ ص٥٣
(٣) امين (احمد) - نفس المرجع - ج١ ص٥٧

(ب) المجالان الثقافي والسياسي للحركة الشعوبية

١- المجال الثقافي :

تجلى صراع الحركة الشعوبية في اهتمام العرب والموالي بابراز مآثرهم ومساوئهم ، كل على حده ، محاولين اضفاء سمات التميز على الغير . فقد تحولت من واقع الامثال والاشعار والاحاديث الشفوية لتصبح منذ بواكير العصر العباسي حركة ذات جبهة ثقافية عريضة تصدى لها الكتاب والشعراء فصاغوا افكارهم وافكار خصومهم كما ارادوا . ورغم حركة الوضع والصنعة والتشويه التي غلبت على جزء كبير من نتاج مناظراتها ، فان من اهم ايجابياتها انها اهتمت بتسجيل تاريخ الشعبين العربي والفارسي ، واضفت على ذلك التاريخ مسحة فنية واجتماعية افادت اللاحقين في معرفة حياة اسلافهم .

لقد شملت تلك الحركة العلماء العرب والفرس ، فأدى التعصب الى ازدياد الوضع والانتحال (ونكاد نجد اصبح الشعوبيين في كل مجالات الثقافة فشمل تأويل الآيات ووضع الاحاديث كما شمل انتحال الاخبار والقصص) (١) .
ولا شك ان لتبلور الحركة الثقافية عامة اثره في تنشيط الحركة الشعوبية ، وخاصة في مجال التأليف ، وممن مثلوا الاتجاه الفارسي واطنبوا في كتاباتهم :
البيروني وحمزة الاصفهاني وابو عبيدة وبشار ، ومثل الجاحظ وابن دريد وغيرهما الاتجاه العربي المدافع . ويجدر بالملاحظة ان كثيرا من المناصرين للاتجاه العربي كانوا من اصل فارسي امثال ابن قتيبة والبلاذري والزمخشري .
فابو عبيدة (٢)- واصله من يهود فارس- يمثل الفريق الاول ، ويقف موقفا يسيء الى العرب من خلال كتبه " الموالي " و " اخبار الفرس " (اوفضائل الفرس كما يسميه ابن النديم) ، ولصوص العرب " وتشمل تلك الكتب تهجما عنيفا ضد كل ماينتمي للعرب بصلة .
وعرف سعيد البختكان (٣) بعدائه الشديد للاصل العربي ، فألف كتاب " انتصاف

---

(١) نفس المرجع - ص٧٦
(٢) امين (احمد) ضحى الاسلام - ج ١ ص٦٩
(٣) امين (احمد) - ضحى الاسلام - ج١ ص٦٨

العجم من العرب" وكتاب " فضل العجم على العرب وافتخارها " .

ووضع الهيثم (١) بن عدى كتبا في المثالب منها " كتاب المثالب الصغير " ، " وكتاب المثالب الكبير و" كتاب مثالب ربيعة" و" اسماء بغايا قريش في الجاهلية"

وعرف بشار بدعوته الموالي الفرس الى نبذ ولائهم للعرب كما كان يهجو العرب في شعره ، فمن بين اقواله يخاطب عربيا يستنكر عليه نظم الشعر العربي وهو مولى فارسي فقال له : ماللموالي والشعر ؟ فانشد بشار :

أحين كسيت بعد العرى خـزا ونادمت الكرام على العقـار

تفاخر ياابن راعيـة وراع بني الاحرار حسبك من خسار

تريغ * بخطبة كسر الموالي وينسيك المكارم صيد فـار

وقال رافعا مرتبة النسب الفارسي متبرأ من الولاء :

اصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم مولى العريب فخذ بفضلك فافخر

مولاك اكرم من تميم كلهـا اهل الفعال ومن قريش المشعر (٢)

اما ابو نواس فلم تكن شعوبيته بمثل غيره ، وهذا مايدعونا الى اعتباره مجددا في الادب ناقدا لاساليب غيره في نظم الشعر واختيار مواسمه ، ولكن المؤرخين يقحمونه في اسماء الشعوبيين والواقع ان آراءه النقدية وسيرته الشخصية ومعتقداته الفكرية ، التي كانت مرفوضة اجتماعيا ، هي التي جعلت الناس يضعونه في صفوف الشعوبية الفارسية ، فكثيرا مااعتبرت (الزندقة) شعوبية ، والشعوبية زندقة ، فالمخالف ابدا متهم بشتى التهم رغم عدم انطباقها عليه .

فمن اهم اشعاره قوله :

عاج الشقي على رسم يسائلـه وعجت اسال عن خمارة البلد

يبكي على طلل الماضين من أسد لا در درك قل لي من بنو أسد

ومن تميم ؟ ومن قيس ؟ ولفهمـا ليس الاعاريب عند اللو من أحد

وقولـه :

دع الاطلال تسقيها الجنـوب وتبلى عهد جدتها الخطـوب

وخل لراكب الوجناء ارضـا تخب بها النجيبة والنجيب (٣)

---

(١) امين (احمد) - ضحى الاسلام - ج١ ص٦٨

(٢) نفس المرجع - ص ٣٩

* تريغ : تريد

(٣) - ابو نواس - الديوان - ١ -

وعن المبالغة في الافتخار بالنسب الايراني يقول الشاعر (الخريمي)

انى امرؤ من سراة الصغد السني عرقي الاعاجم جلدا اطيب الخبر (١)

يعتبر ابن قتيبة اشهر من رد على الشعوبيين الفرس في كتابه " تفضيل العرب " ، ورغم ادعائه بالتسوية بين الشعوب (٢) فان موقفه ظل ارستقراطيا متحيزا ، وتبقى دعوته الى المساواة مجرد كلام نظري او جزء في آخر كتابه ، بل ربما كان ذلك اسلوبا في التقية من بطش الموالي الذين كانوا يسيطرون على الحكم آنذاك .

ورغم تناقضه في تحديد الاساس الاجتماعي لمعتنقي الشعوبية فهو يحافظ على رأيه المنحاز الى طبقة الخاصة من الكتاب المقربين المدعين بالمحافظ على النسب والثقافة العربيين .

فهو يقول في موضع :" ولم ار في هذه الشعوبية ارسخ عداوة ، ولا اشد نصبا للعرب من السفلة ، والحشوة ، واوباش النبط وابناء اكرة القرى "الفلاحون " فاما اشراف العجم ، وذووا الاخطار منهم ، واهل الديانة فيعرفون مالهم وماعليهم ، ويرون الشرف نسبا ثابتا (٣) فهو يعفي اشراف العجم من تلك العداوة والحق انهم اكثر تحريضا عليها واشدهم بحثا وتمحيصا للانساب ، وكنا قد ذكرنا في تحليلنا لاسس التقسيم الطبقي كيف ان النسب كان يمثل بالنسبة للطبقات الارستقراطية المهيمنة احد تلك المرتكزات .

ويقول في آخر لا ان من ذهب مذهب الشعوبية " قوم تحلوا بحلية الادب فجالسوا الاشراف ، وقوما اتسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان فدخلتهم الانفة لآدابهم والغضاضة لاقدارهم من لؤم مغارسهم ، وخبث عناصرهم " (٤) ومن آثار صراع الحركة الشعوبية على المستوى الاجتماعي انها أدت الى حرص الناس في الحفاظ على عاداتهم ورغبة كل طرف في التميز (بأصوله) عن الطرف الآخر . فهذا احد الكتاب (ابوالعاصي) يدافع في رسالته عن عادات العرب وتقاليدهم فيحرص على منع عادة البخل من الانتشار بين اقاربه ، وبالتالي بين العرب ، معتقدا ان العرب اعتادوا على الكرم ، وان البخل ظاهرة غريبة ادخلها اهل فارس فتأثر لها كثير من الناس . وكان الجاحظ

---

(١) - احمد امين - نفس المرجع - ص ٦٤

(٢) نفس المرجع - ص ٥٣

(٣) نفس المرجع - ص ٦٢

(٤) نفس المرجع - ص ٦٢

يقاوم تلك العادة بشدة كلما سنحت له الفرصة ،بلسانه او بلسان غيره (١) .
ومعروف ان الجاحظ الف كتاب " البخلاء " الذي يصور فيه البخل مذهبا فارسيا بالطبيعة ، والكرم مذهبا عربيا بالطبيعة ايضا .
وعندما يتحاز ابو العاص للعرب وتظهر حميته عنيفة ،يرد عليه (ابن التوأم) محاولا التبرأ من العصبية مدافعا عن مذهبه في البخل فيقول :
" وقد وجدنا الله عاب السرف وعاب الحمية وعاب العصبية ،ووجدناه قد خص السرف بما لم " يخص به الحمية لأن ليس حب المرء لرهطه من العصبية ،ولا انفته من الضيم من حمية الجاهلية ، وانما العصبية ماجاوز الحق ، والحمية العصبية ماتعدى القصد ،فوجدنا اسم الأنفة قد يقع محمودا ومذموما ، وما وجدنا اسم العصبية ولا اسم المسرف يقع ابدا الا مذموما .." (٢) .
هذا الكلام يعبر عن تحول الصراع القائم على العصبيات الى موضوع مهم من موضوعات الادب والفكر ،وهذا ماظهر في الاسلوب والمنهج الذي اتخذه هذا المثقف في الرد على خصومه . والمتتبع لتلك النصوص يرى الطريقة الذكية التي يدافع بها هؤلاء عن مذهبهم الذي اطلقوا عليه " مذهب الاقتصاد " ومذهب " اهل الجمع والمنع " .
ان القارئ لكتاب "البخلاء" يكاد يصدق ان المشكلة التي كانت تهز العصر العباسي هي مشكلة الصراع بين البخلاء والكرماء فقط . بل ان ابداع الجاحظ ، الغني المستند الى مبدأ التقيه التي كانت تفرضها ظروف العصر السياسية ذلك الابداع، يخفي وراءه حقيقة جوهرية ذات ابعاد اجتماعية واقتصادية عميقة في تصوير مذاهب العيش وطرق الكسب ومشكلاته تصور حياة المتسولين وحياة الاغنياء . ويستعرض المواقف المختلفة التي اتخذها كتاب العصر من مشكلاته الاجتماعية ، فهو في الحقيقة صورة رائعة عن الشارع العباسي والحياة الاجتماعية جاءت في اسلوب طريف متميز . ولكن الجاحظ لم يكن صريحا في رده على " الشعوبيين" بل ان الباحثين يعتبرونه قد وقف موقفا وسطا فكتب " كتاب التسوية بين العرب والعجم " متبعا طريق المصانعة والهروب من الخطر. اما الاصمعي فقد وضع نفسه في موضع الضيم والنقمة

---

(١) الجاحظ ـ البخلاء ـ ص ١٥٤ - ١٦٩
(٢) نفس المصدر ـ ص ١٦٩

لانه حرص (على حضارته وتاريخه) فدافع بطريقته الخاصة وكان واضح الموقف فقرر ان القيادة لا تصلح الا لعربي حسن العقيدة) (١) .

هكذا كان الصراع في المجالات الثقافية فكان صراعا بين عصبيتين قوميتين في اطار ثقافي . فلم تتمكن الرابطة الاسلامية التي تبنتها الدولة العباسية عمليا ، من القضاء على الرابطة العصبية ، ولعل الشيء الملاحظ ان الروابط العصبوية الصغيرة (القبلية والعشائرية) قد تقلصت لتترك مكانها للعصبية الاقوامية . ورغم اختفاء الصراع في بدايات الدولة العباسية لوجود تحالف سياسي واجتماعي ، فان العصبيات ظلت كامنة في انتظار ما ستظهره سياسة العباسيين الجديدة ، واذا وجدت فان نشاطها لم يتجاوز المجال النظري .

فحظوة الفرس بدأت تتقلص بعد ان شملت كل الموالي ، الى حظوة للعائلات الارستقراطية - الاقطاعية خاصة (ملاك الاراضي) . فتحولت اغلب جماهير العامة من الموالي الى موقع المعارضة ، فشاركوا في الثورات على العباسيين وخاصة ثورات العلويين والخوارج . وابتعد الكثيرون عن تدعيم السلطة العباسية التي لم تحقق لهم آمالهم بعد ما شاركوا في تكوين جيشها (الجيش الخراساني) .

٢) المجال السياسي :

انقلب ذلك التعاطف الى نقمة ، زادت حدتها عندما بدأت تناقضات الارستقراطية الفارسية مع الارستقراطية العربية تبرز على السطح السياسي . واستطاعت تلك الطبقات ان تخفي حقيقة صراعها لتجر وراءها العامة ، مصورة الصراع على انه دفاع عن الانتماء الاقوامي بكل طبقاته . وقد ادى تدني مستوى الوعي الاجتماعي لدى الجماهير الى نجاح الارستقراطيين في تسويغ دعواهم مستفيدين من موقف الكتاب الذين غذوا الصراع الشعوبي بشكل او بآخر .

ان الصراع السياسي بين العرب والموالي لم يظهر الا في مؤسسات الدولة حيث كان تغلغل الفرس في وظائفها ومراتبها امرا ظاهرا . غير ان ذلك الصراع العنيف اقتصر على الفئات الصاعدة في السلطة وفي ملكية الثروة ، من الموالي . فالحظوة والصعود في سلم الوظائف مرتبطان بالخدمة والتأييد . وقد رأينا سابقا ان ذلك تم لالتقاء المصالح الطبقية بين العباسيين والاسر الفارسية " ذات النسب العريق " والدهاقين .

---

(١) - زكي (احمد كمال) - الاصمعي - ص٦ / اعلام العرب / رقم ١٨

غير ان ذلك التعاقد - الضمني على الاقل - لم يكن ليستمر ، نتيجة تغلب النزعات السياسية المستندة الى المصالح الاسرية والعشائرية فبدأت سلسلة من الصراعات على المصالح ،كانت بداياتها لصالح العباسيين ،فرغم اشراكهم المباشر لمواليهم في السلطة ،الا انهم حافظوا على طابع الخلافة الوراثي لهم وحدهم . ولم يولوا مواليهم اكثر من الوزارة ، وبالتالي فانهم حافظوا على جوهر الخلافة العباسي ، وزاد من حصانتهم ،هالة التقديس والابهة التي احاطوا بها حكمهم . وباعتبار ان الخليفة امير المؤمنين - ولاعتبارات اخرى - لم يجرأ ألدّ أعدائهم على المطالبة بالخلافة او تنحيتهم عنها . (والمقصود بالاعداء طبعا ،في داخل السلطة ، اى المعارضة الداخلية في الدولة) .

الصراع مع ابي مسلم الخراساني :

نجحت الدعوة العباسية في الوصول الى اهدافها السياسية بفضل مساعدة الموالي فاعتبروها ثورتهم التي ستحقق اهدافهم في القضاء على مخلفات الحكام الامويين ، وتحل العدل والمساواة بين المسلمين كافة ،في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فكان من الطبيعي ان يجزى العباسيون قادة اهل خراسان الذين استبسلوا في الحرب لصالحهم . لذلك عين ابو العباس ابا مسلم الخراساني واليا على خراسان ،ولكن مجد الانتصار ومكانة العز الذين تذوقهما ابو مسلم ، ادبا به الى نتائج وخيمة حيث بدأت تحرشاته منذ السنوات الاولى لقيام الدولة العباسية . ولكن نواياه الخطيرة في حب التفرد والاستقلال ، وتدخله في شؤون الاسرة العباسية ،لم تظهر الا في حكم المنصور حين (عرض على ولي العهد عيسى بن موسى ان يتعاونا سوية لتنحية الخليفة وتنصيب عيسى خليفة للمسلمين ، فأنكر عيسى ذلك وحذره من مغبة هذه الخطة وامكانية فشلها) (١) . وتبين لنا الرسائل التي كان يوجهها ابو مسلم الى الخليفة المكانة الهامة التي توصل اليها ، وتحديه الواضح للخليفة العباسي وخوف السلطة المركزية منه . ربما كان منشأ ذلك الخلاف ،تشكل رأى عام معارض لدى الموالي ،بدأ من تقييم النتائج التي آلت اليها الثورة العباسية ، والموقف الذى اتخذه العباسيون من ممارسة افكارهم ومبادئهم التي كانوا يبشرون بها الناس ويجمعونهم حولها للقضاء

---

(١) - عمر (فاروق) - العباسيون الاوائل - ص ٩٠

على الامويين . كما ظهر للموالي ان العباسيين تفردوا بالحكم واستبعدوا شركاءهم الشرعيين (العلويون) الذين لاقوا اكثر مما لاقوه من عذاب الامويين ، (بل ان العباسيين كانوا يتسترون بالتجارة ولا يظهرون) .
نحن نظن ان ابا مسلم استند الى تلك الاسس في كسب انصاره وشيعته من اهل خراسان فاعلن العصيان . ولكن الامر الاكثر وضوحا ان ابا مسلم كان مغترا بدوره في الثورة على الامويين . وزاد في تدعيم شوكته قول ابراهيم الامام (القائد الاول للدعوة العباسية) " انك رجل منا اهل البيت .فاحفظ وصيتي .."(١) ، هذا فضلا عما تضفيه القيادة العسكرية من الافراط في الطموح وحب المغامرة .
والمعروف ان ابا مسلم – بمباركة من السلطة المركزية – بدأ بتصفية وجوه الدعوة العباسية الذين تشبثوا بمبادئها الاولى واعلنوا رفضهم لسياسة العباسيين .
ويبدوا ان ذلك تم باتفاق مع الخلفاء المتنصبين في العراق . فقد قضى على سليمان بن كثير الخزامي وابنه محمد* (٢) الذى كان نقيب الدعاة وكانت له شيعة واسعة ، خاف ابو مسلم من مزاحمته فقتله متعذرا بوصية ابراهيم الامام حينما قال له " من شككت به فاقتله" . وقضى على علي بن جديع الكرماني واخيه عثمان (٣) اللذان كان لهما دور كبير في خدمة الدعوة العباسية وكسب نصرة القبائل اليمانية التي شكلت جزءا كبيرا من الجيش الخراساني .
كما قضى على ثورة شريك بن شيخ المهرى (٤) الذى ثار في مدينة بخارى ورفع شعارا سياسيا معارضا لسلطة العباسيين (ماعلى هذا اتبعنا آل محمد على ان نسفك الدماء ونعمل بغير الحق ..) ، وهو معروف بتشيعه للعلويين ، انظم اليه ولاة عرب مثل والي بخارى ووالي خوارزم ، ويقال ان ابا مسلم اسر اصحابه وجعلهم عبيدا .
هكذا تبدأ الثورة تأكل ابناءها :
بدأت تلك العلاقة بحذر شديد مع شيء من المجاملة ، فقد ارسل ابو مسلم الى ابي جعفر المنصور يهنئه بالخلافة قائلا :" انه ليس من اهلك احد اشد تعظيما

---

(١) – حمادة (محمد ماهر) – الوثائق السياسية – ص ١٩
(٢) – الطبرى – التاريخ – ج ٧ ص ٤٥٠ .
(٣) الطبرى – نفس المصدر – ص ٣١٦
(٤) الطبرى نفس المصدر – ص ٤٥٩
* وهو الذى انب المنصور بسببه ابا مسلم قبل ان يقتله فقال له :" مادعاك الى قتل سليمان بن كثير مع اثره في دعوتنا ، وهو احد نقبائنا" (الطبرى – ج٧ ص ٤٩١)

لحقك واصفي نصيحة لك ، وحرصا على مايسرك مني " * .
لكن ابا جعفر حاول منذ البداية التقليص من نفوذ خصمه الخطير ،فأرسل اليه يوليه مصر والشام ، بهدف ابعاده عن خراسان موطن انصاره وقوته ،لكنه رفض ذلك الامر واستدعاه مرة اخرى فتلكأ عن الحضور متعذرا . وبدأت سلسلة من المراسلات بين الشخصين حتى بعث اليه المنصور قائلا :" فلا تغتر بمن معك من شيعتي واهل دعوتي ،فكأنهم قد صالوا عليك بعد ان صالوا معك ان انت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة ..."(١) ، فرد عليه ابو مسلم ردا عنيفا مشككا في شرعية خلافته .."
"... ولكني ياعبد اللهبن محمد (لم يلقبه بأمير المؤمنين) كنت رجلا متأولا فيكم من القرآن آيات اوجبت لكم بها الولاية والطاعة ،فاتممت بأخوين لك (ابراهيم الامام وابو العباس) من قبل ،ثم بك من بعدهما ،فكنت لهما شيعة متأولا احسبني هاديا مهتديا ،واخطأت في التأويل ،وقدما اخطأ المتأولون ... وان اخاك السفاح ظهر في صورة مهدى وكان ضالاً فأمرني ان اجرد السيف واقتل بالظنة واقدم بالشبهة وارفع الرحمة ولا أقبل العثرة . فوترت اهل الدنيا في طاعتكم وتوطئة سلطانكم حتى عرفكم الله من جهلكم ،ثم ان الله سبحانه تداركني بالندم واستنقذني بالتوبة ."(٢) .
ويبدو ان المنصور - داهية العرب - كان يريد من خصمه ان يصل الى ذلك الموقف الذى يبرر له تصفيته ،فرد عليه واتهمه بسفك الدماء وتبذير الاموال والخروج على الدولة ، ولقبه (بالمجرم العاصي) . وختم رسالته باعلامه عن قرار عزله وتولية احد اتباعه على خراسان ،يقول الطبرى . ان ابا جعفر كتب الى ابي داود حين اتهم ابا مسلم :" ان لك امرة خراسان مابقيت " (٣) .
وهكذا انتهت حياة ذلك القائد ، الذى خدم الدعوة العباسية ،اول امرها ،اكثر من دعاتها . وبالتالي انتهى صراع الدولة العباسية مع احد خصومها البارزين نهاية مأساوية . وبعد ذلك الصراع الدامي ،بامكاننا ان نتساءل : كيف ان نهاية ابي مسلم ،القائد الخراساني الشجاع ،والداعي ،ثم الوالي ، العباسي الذى - لا ينازع ، تمت بمثل تلك السهولة دون ان تقوم اية ردة فعل من اهل خراسان - (شيعته) ؟ واذا كان الصراع السياسي في الدولة بين العباسيين والموالي

---

* الطبرى - جـ٧ ص ٤٨٧
(١) ابن كثير - البداية والنهاية - جـ ١٠ ص٦٨
(٢) ابن كثير - البداية والنهاية - جـ١٠ ص٦٨ - ٦٩
(٣) الطبرى - التاريخ - ج ٧ ص ٤٨٥

صراعا شعوبيا ، او صراعا عصبويا ، الم يكن من المفروض قيام ثورة او احتجاج - على الاقل - على مقتل ابي مسلم ، من قبل شيعته وانصاره ؟ !

الجواب على هذا السؤال تبيح به الاحداث والوقائع . اذ لم تظهر اية ردة فعل على ذلك الحدث البارز - حسب دراستنا - ، فذلك مايؤكد ان الصراع كان قائما في بنية الدولة بين قاعدة الدعوة العباسية وخلفاء دولتها ، بين وزرائها وامرائها .

ومما يؤكد لنا ان الجماهير من الموالي كانت مندمجة مع الجماهير من العرب المستقرة في شرقي الخلافة ، انها كانت تخوض صراعا من نوع آخر ، فحركات الخوارج والشيعة والبابكية فيما بعد ، ضمت في صفوفها أعدادًا واسعة من جماهير الموالي التي كانت تتحرك في اطار الرابطة الاجتماعية (الوضع الطبقي) ، والرابطة الاسلامية (الوضع السياسي الديني الداعي الى المساواة) . ذلك ماينفي ، بشكل من الاشكال ، دعوى بعض المؤرخين بان الحركة الخرمية والبابكية ثارت ضد مقتل ابي مسلم .

نكبة البرامكة :

لم يكن صراع العباسيين مع خصومهم من الموالي مقتصرا على الافراد والقيادات الفارسية بل كان يشمل العائلات [illegible] العريقة التي مثلت الارستقراطية الفارسية وتحصلت على امتيازات كبيرة (ازدياد ثروتها ومشاركتها الفعلية في الحكم) .

فقد شملت تلك الامتيازات كلا من آل برمك وآل الربيع وآل سهل وآل وهب وآل خاقان وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم (1) . إذ احتل ابناء تلك الاسر مراتب متفاوتة في الدولة العباسية ، منذ نشوئها حتى اواخر حكم المعتصم ، عندما حل النفوذ البويهي التركي محل النفوذ الفارسي .

ويعتبر عصر هارون الرشيد البداية الحقيقية للصراع بين العباسيين وحلفائهم من الارستقراطية الفارسية ، فكان صدامهم مع البرامكة مثالا جليا للصراع وتحولا كبيرا في سياستهم .

ويبدو ان الجهود التي بذلها يحي البرمكي في ايصال الرشيد للخلافة جعلت له شيئا من الدالة عليه ، فاسند اليه الرشيد معظم المناصب واطلعه على اسرار الدولة

---

(1) زيدان (جرجي) - تاريخ التمدن الاسلامي - ج ٥ ص ٢١

وقربه منه كثيرا ، فاستعان يحيى بأولاده واقربائه في ادارة الدولة وتجمعت لديهم ثروة طائلة . ولكن ذلك اثار حفيظة اعدائهم ، فحرضوه ضده وخوفوه من نقمة العامة ، حتى وصل به الامر الى قتل جعفر البرمكي ، وسجن اقربائه ، ومصادرة اموالهم وهدم منازلهم . وقد عرفت تلك الحادثة لدى المؤرخين بـ" نكبة البرامكة " .

والظاهر من الاحداث والمواقف ان الفقهاء ، وخاصة أصحاب الانتماء الحنبلي منهم ، وقفوا موقف المُحَرِّض على البرامكة وما آلوا اليه من التحكم والتفرد ، ومعروف ان كثيرا من هؤلاء وغيرهم من الكتاب والموظفين الكبار (من العرب) كانوا يمثلون انتماء اجتماعيا طبقيا معينا ، الا وهو الانتماء الارستقراطي العربي ، الذى ثار في وجه التيار الفارسي المتسلط شيئا فشيئا . وقد استطاع ذلك المذهب ان يؤثر على - سياسة الدولة تجاه البرامكة ، كما استطاع ان يجر وراءه الرأي العام الشعبي ، الذى يتعاطف بشكل كبير مع المذهب السني ، ويظهر لنا ذلك التحريض ضد البرامكة من خلال مارواه ابن العماد (الحنبلي) ان احد الاشخاص ارسل الى الرشيد قائلا :

هذا ابن يحيى قد غدا ملكا	مثلك مابينكما حد
امرك مردود الى امره	وأمره ليس له رد
ونحن نخشى انه وارث	ملكك ان غيبك اللحد (١)

الاسباب المؤدية الى نكبة البرامكة :

- من الباحثين المحدثين من يرجع تلك الاسباب الى رد الفعل الديني (٢) . ومنهم من يرجعها الى خشية العباسيين من تعاظم نفوذ آل برمك والتنافس بين الارستقراطيين العربية والايرانية ورغبة الرشيد في مصادرة اموالهم (٣) . ومن اللذين عاصروا الحدث من اعتبر ان سببها حادثة كشف العلاقة السرية بين جعفر بن يحيى البرمكي وبين العباسة اخت الرشيد (٤) . ولم يذكر ابن خلدون هذه القصة في كتابه (التاريخ) ، ولكنه اوردها في (المقدمة) للرد عليها ، حيث يقول :

---

(١) حماده (محمد ماهر) - نفس المرجع - ص١٥
(٢) بارتولد - الحضارة الاسلامية -ص٥٩ (ذكرها حسين قاسم العزيز في : البابكية -ص٩٩)
(٣) عزيز (حسين قاسم) - البابكية -ص٩٩ . ويتفق مع ابن خلدون (ص٦١)
(٤) الطبرى - التاريخ - جـ٨ ص ٢٩٤)

* ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ماينقلونه كافتي سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة اخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه ، وانه لكلفه بمكانهما من معاقرته اياهما الخمر اذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه ، وان العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها في حبه حتى واقعها (زعموا في حالة سكر) فحملت ووشي بذلك للرشيد فاستغضب وعيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وابويها وجلالها وانها بنت عبد الله بن عباس ليستبينها وبينه الا اربعة رجال هم اشراف الدين وعظماء الملة من بعده. والعباسة بنت محمد المهدى بن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي (ص) ابنة خليفة اخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته واقامة الملة ونور الوحي ... فكيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكة جده من الفرس .. واين قدر العباسة والرشيد من الناس ، وانما نكب البرامكة ماكان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم اموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على امره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في امور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم .

... فتوجه الايثار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من اقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الامراء وتسربت الى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة ، اموال الجباية ، وافاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم واسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر الممالك حتى اسفوا البطانة واحقدوا الخاصة واغصوا اهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى كان بنوا قحطبة اخوال جعفر من اعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم اواصر القرابة ، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف ــــن

الحجـــر والانفـــة . . "(١) .

ان ابن خلدون كان اكثر قدرة على استنباط الاسباب الحقيقية لنكبة البرامكـــة ، فاستبعد الاسباب الواهية ، التي اذا صح وجودها ، فانها لا تعدوا ان تكـــون الاسباب الظاهرة . وهكذا فان موقف الخليفة المفاجئ العنيف ، كان يمثل محاولة لاسترداد سلطته المفقودة وثروة دولته المهدورة . فهو يفصل لنا مظاهر الحضـــوة والامتياز التي حصل عليها البرامكة وأدت الى تفردهم بالسلطة وتحديهم للخليفـــة وكيفية رد الرشيد عليهم عندما حاول انقاذ الموقف المتدهور الذى عبر عنه المتنبـــي فيما بعد مصورا حالة الغربة التي بدأ العرب يشعرون بها اثناء سيطرة الموالي الفرس فقال بيته الشهير :

ولكن الفتـــى العربي فيهـــــا غريـــب الوجـــه واليد واللسان (٢)

هذا الموقف من البرامكة وغيرهم يبين لنا القوة التي كانت تتمتع بها الدولة في شخص الخليفة ، وكيف انه يستعمل اقصى اجراءات الشدة ، حتى مع اقرب مساعديـــه ، في حالات الخطر الذى يهدد سلطانه ، كما يبين لنا ذكاء السلطة العباســـية (دهائها السياسي) في استدراج خصومها وتصفيتهم بشكل لا يثير لها المتاعب.

---

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص ١٥ ـ ١٦

(٢) امين (احمد) ضحى الاسلام ـ ص ٦٦

الصراع بين الامين والمأمون :

الامين والمأمون ، او الفضل بن الربيع والفضل بن سهل ، كانا يمثلان قطبي الصراع السياسي داخل الدولة العباسية منذ اواخر ايام الرشيد . فكلما ذكر الامين " و" المأمون" ، ابنا الرشيد ، الا وذكر معهما " الفضلان" ، الوزيران اللذان تحيز كل منهما الى احد الاخوين ، واثارا بينهما صراعا شديدا انعكس على الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

وهكذا فان نكبة البرامكة كان لها علاقة مباشرة بالصراع الجديد بين الاخوين ، بل ان صراع الاخوين كان استمرارا للصراع القديم ، وكان الرشيد يخاف من سعي البرامكة بين الامين والمأمون ، فكان يقول : " اطعمناهم وافقروا اولادنا ، ولم تكن لاحد من اولادنا ضيعة من ضياع البرامكة " (١) . ولم يبق لابنائه شيء سوى انهما اصبحا الهوية في ايدي المتصارعين لكسب شرعية سلطتهم في المرحلة اللاحقة بعد غياب الرشيد . ولكن الامر لم يسر كما توقعه البرامكة ، اذ تم القضاء عليهم ، وحل محلهم الفضل بن سهل الذي مثل الاتجاه الفارسي المؤيد للمأمون .

كان الصراع يدور في تلك الفترة بين الطبقات المستفيدة من المراكز الادارية والسياسية الكبيرة ، والمحدثة بسبب اعادة ترتيب سياسة الاحلاف مع الفرس والاسر والقبائل العربية بعد القضاء على البرامكة .

وكان الصراع الطبقي الدائر بين رحبى الطبقات والفئات المسيطرة على الثروة والسلطة ، يتسم بسمتين اساسيتين تهيتان فرزه وتضعفان تطوره مما انعكس على تماسك البنية الاجتماعية والاقتصادية ، وهتان السمتان هما :

١- حدوث تحالف بين طبقة الاقطاع وطبقة التجار والمرابين ، تجسد في تبادل المصالح والادوار وتسهيل الاعمال العقارية والتجارية ، مما انعكس على الواقع السياسي .

وقد ادى ذلك الى استمرار "المصالحة السياسية" على الاسس التي ذكرناها سابقا (الثروة - الجاه او النسب - المشاركة في السلطة) . لكن ذلك تغير في المرحلة الموالية ، اي بعد عصر المتوكل حينما ظهر الاقطاع العسكري وسيطر على الدولة .

---

(١) العش (يوسف) - تاريخ عصر الخلافة العباسية - ص ٧٦

٢- تبلور نوع آخر من الصراع القائم بين الثنائية العصبية (عرب - فرس) ، مما ادى الى تبلور طبقتين ارستقراطيتين متميزتين تجسدتا بشكل واضح في الجهاز البيروقراطي المتضخم للدولة . واصبح التأثير على القرار السياسي هدفـــا اساسيا لكل منهما يفوق اهمية الثروة لديهما . ورغم ان بوادر هذا الصراع كانت قائمة منذ نشوء الدولة العباسية ،لكنه كان مختفيا لطبيعة التطورات الاجتماعية والسياسية ، الا انه بدأ بالتبلور من خلال ظهور ممثلين بارزين له في المجالين السياسي والثقافي .

كما ان الصراعات السياسية بين مراكز القوى في السلطة العباسية وكثرة الثورات والحروب والانشغال بمحاربة الدولة البيزنطية ، لم تترك فرصة امام قوى الاقطـــاع والتجار لتوطيد نفوذها ، لذلك فانها لم تستطع تقوية دعائمها الطبقية .

على ان قوة دور العصبيات في المجتمع العباسي ، وضعف الفرز الطبقي القائم علـى الاسس الاقتصادية ، وصراع الارستقراطيتين (العربية والفارسية) .

لم ينف وجود تشكيلة اقتصادية اجتماعية واضحة المعالم .

هذه التشكيلة تظهر لنا من خلال النظرة التاريخية (العامة) للصراع الاجتماعـي بمختلف ابعاده . وبالتالي من خلال سيرورة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية .

لقد تجسد ذلك في احتكار الدولة وممثليها (رغم اختلاف طبيعة هؤلاء الممثليـن وعلاقتهم بالارض ، باختلاف المراحل السياسية) لملكية الارض بدرجة اساسية ، وباقي قوى الانتاج ، وخضوع جماهير الفلاحين والحرفيين لعلاقات التبعية الاقطاعيـة الشرقية ، وانحلال النظام العبودي وضعف دوره ، واتساع نطاق حركات التمرد في صفوف الفلاحين (في الريف) والحرفيين وصغار التجار والعبيد (في المدن) ، وتبلور الصراع في البنى الفوقية في النشاطات المذهبية والسياسية .

كان البرامكة يمثلون احد اقطاب هذا الصراع ، تلاهم بعد ذلك وبشكل اوضح الفضل بن سهل المؤيد للمأمون (الاتجاه الفارسي) ، اما الفضل بن الربيع - وهو مولـــى فكان مؤيدا للامين (الاتجاه العربي) . وهكذا تشكل الاتجاهان : حزب العباسيين ذوي العلاقة الفارسية المتشبعة لهم ، مع الامين ، وحزب الخراسانيين ذوي العلاقة العلوية مع المأمــــون .

لقد كان القرار الذي اتخذه الرشيد بتعيين ابنية على ولاية العهد بالتتالي (الامين ثم المأمون) ، وتقسيم الدولة بينهما ،كان قد وضع بذور الشقاق والانقسام بين الاخوين وبين العصبيتين .

ونحن نعتقد أن الرشيد كان يتوقع صراعا وشيكا بين الاخوين ، ولكن اجراءاته لم تؤد الى ماكان يتوقعه من استتباب الامن وانصراف كل منهما الى تسيير شؤون الجزء الموكولة له ادارته .

ويبدو ان الكفة كانت راجحة لصالح المأمون (فقد كان اخوه الامين افسده الدلال واصابه الغرور وابطره الغنى وخانه اتباعه الذين لم يحسن اختيارهم ، والمخلصون منهم كانوا عاجزين ، ولا يوازون بانصار اخيه المأمون .) (١). اذ لم يفده اعتقاده بأنه متميز من حيث ان ابواه هاشميان عباسيان ،ولم يجن من ذلك شيئا كبيرا . الا نقمة الناس لاستهتاره وخروجه عن التزامه بالمعهود بمساعدة الفضل بن الربيع، واستفحال الفوضى في عهده ،فقد قال الشاعر معبرا عن وضع الخلافة :

اضاع الخلافة غش الوزير وفسق الامام وجهل المشير
فهذا يدوس وهذا يدار كذاك لعمرى اختلاف الأمور (٢)

اما المأمون فكان انصاره وشيعته اكثر فائدة له من اقربائه الذين خذلوه . واذا اضفنا الى ان الفرس اعتبروا الصراع صراعهم فالتفوا حول المأمون ، في حين لم يفعل العرب نفس الشيء ، امكننا ان نتنبأ بنتيجة الصراع الحتمية ، اى اهمال الامين والقضاء عليه وانتصار المأمون .

ومن بين تحديات الامين الصارخة التي صعدت الخلاف بينه وبين المأمون :

١) - طلب الامين من المأمون ان يتنازل له عن جزء من خراسان (٣)اى عن الجزء الذى عهد به الرشيد للمأمون وقد تعهد الامين على ذلك خطيا .

٢)-طلب الامين من اخيه ان يبايع لموسى بن الامين قبله (٤). رغم ان الامين تعهد بولاية العهد بعده لاخيه ، والتزم بذلك امام الرشيد .

وكان الامين يحاول اضفاء صفة الشرعية على حكمه ، والتقرب من اهل خراسان - شيعة المأمون - مريدا ان يبين لهم ان خلافه مع اخيه قضية عائلية خاصة يجب ان لا تمس العامة ،بل يرى ان من واجبه رفع الجور عن الرعية والتخفيف من اعباء الخراج

---

(١) حمادة (محمد ماهر) - الوثائق السياسية والادارية للعصر العباسي الاول - ص٥٤
(٢) الطبرى - التاريخ - ج ٨ ص ٣٩٦
(٣) الطبرى - التاريخ - ج ٨ ص ٣٧٧
(٤) الطبرى - = - ج ٨ ص ٣٧٥ ومايليها (الرسائل)

عليها . ذلك مانلاحظه من خلال وصيته لقائده الموجه للقبض على المأمون ،(امنع جندك من العبث بالرعية والغارة على اهل القرى وقطع الشجر وانتهاك النساء . . . ومن خرج اليك من جند اهل خراسان ووجوهها فأظهر اكرامه واحسن جائزتـه ، ولا تعاقب اخا بأخيه ، وضع عن اهل خراسان ربع الخراج) (١) . ولكن المأمون ايضا ، كان يحاول اظهار الامين بمظهر مغتصب الخلافة وناكث العهود . فكانت حملته الدعائية القوية تتجه في ذلك الاتجاه . وركز على جند الامين وقواده ، — فأرسل لهم رسائل يذكرهم بالعهود ، ويبين لهم ان اخاه ظالم وممتد ممـزق للمواثيق ، وقد اثرت تلك العملية في بعض قواد الامين فأجابوه (٢) .

تلك الحملات بدأت في مرحلة متأخرة من خلافهما ، اما في البداية فكان الخلاف مستورا ، تعبر عن ذلك رسائلهما المتبادلة (٣) التي لم تظهر فيها صيغ التهديد المباشر والانذار الصريح . ويظهر ان كلا الاتجاهين كانا يبديان مالا يضمرانـه ، فليس دعوة الامين المأمون بالحضور اليه بهدف استشارته والاستعانة به ، واعتذار المأمون بسبب مهامه الشاقة وحاجة خراسان الى حزمه واشرافه ، الا دليلا على تلك المواربة .

ان اجراءات الرشيد في تعيين الامين ومحاولة استفراد الاخير بالخلافة — مع ابنه — والقضاء على نفوذ المأمون ومن وراءه ، لم تكن بالامر الهين على المجتمع الذى عرف حالة يغلب عليها التعايش والتمازج الحضارى منذ ايام الامويين حتى فتـرة العباسيين الاوائل حينما توطد ذلك الاختلاط الاجتماعي في القوى الاجتماعية التي كانت بعيدة نسبيا عما يجرى من صراعات على السلطة .

فقد فقد هذا التوازن دوره في عهد الامين ، فتأثر بالصراعات السياسية التـي بدأت تأخذ بعدا طبقيا واضحا . اذ ادت نفقات الامين الخاصة ، واستهتاره بأموال الدولة ، فضلا عن انقطاع جزء كبير من ايراد الولايات الشرقية التي سيطر عليها المأمون ، ادى كل ذلك الى ظهور اختلال واضح في البناء الاجتماعي ،

---

(١) الطبـرى التاريخ — ج ٨ ص ٤٠٦
(٢) الطبـرى = — ج ٨ ص ٣٨١
(٣) الطبـرى = — ج ٨ ص ٣٧٧

فازدادت الهوة اتساعا بين الطبقات الغنية والطبقات الفقيرة ، وقد تجلى ذلك في انقسام العاصمة بغداد الى قسمين متمايزين ، احدهما ثري بقصوره ومعالمه والآخر فقير محطم . وتسجل ذلك التناقض عند استفحال الصراع بين شيعة الامين وشيعة المأمون وتجلى عند تعرض بغداد لحصار عنيف ، فالمؤرخون اظهروا لنا طبقة متميزة من فقراء المدينة ومعدميها (الرعاع والشطار والعيارين) . تلك الطبقة اندفعت تدافع عن حياتها وتقاتل دون ان تعرف لصالح من هي تقاتل ، لكن المهم بالنسبة لها هو انها لا تملك (عقارا ولا مالا) فوجدت المجال مناسبا للثورة والانتقام ، ولكنها - كما يظهر - ساندت تجار بغداد وحرفييها ، فهم في كلتا الحالتين مصدر رزقها ، فالتجار يعتمدون على هؤلاء الكادحين المعدمين في خدمات السوق اليومية ، وربما كان مصدر دفاعهم عن التجار جاء من دفاعهم عن مدينتهم بعد استلام جيش الامين فقاوموا طاهرا قائد جيش المأمون " فذلت الاجناد وتواكلت عن القتال ، الا باعة الطريق والعراة واهل السجون والاوباش والرعاع والطرارين واهل السوق " (١) . بل ربما قاتل هؤلاء لاعتقادهم ان الفتنة والفوضى " والتمرد واختلال الامن يؤدي الى خروج السجناء وحصول المحرومين على جزء مما فقدوه من لقمة العيش (وسندرس ذلك بشكل مفصل في البحث المخصص للشطار والعيارين من الفصل الثالث) .

هكذا ، وباعتراف المؤرخين فان الفقراء هم الذين دافعوا عن بغداد من فوضى الجند في الاسواق ، ولعل الموقف الطبقي الحاقد على العيارين واشباههم اربك المؤرخين في نسبة الفوضى وانتهاب الاسواق الى العيارين بدلا من ان ينسبوها الى الجند المقاتلة . على ان ذلك في حال حصوله لا يعتبر برأينا امرا سلبيا في تاريخ الفقراء المعدمين . فالطبري وغيره من الذين يسمون التجار ورجال الدولة بـ" اهل الصلاح " و" اهل الستر" ، يقفون موقفا ارستقراطيا يبرر لاتجاه الامين ، ويظهر تحيزهم حينما يصفون موقف حثالة الكادحين وصفا مبالغا فيه فيقول الطبري :" ونقب اهل السجون السجون وخرجوا منها ، وفتن الناس ، ووثب على اهل الصلاح الدعار والشطار ، فعز الفاجر ، وذل المؤمن ، واختل الصالح ، وساءت حال الناس . " (٢) .

---

(١) الطبري - التاريخ - جـ ٨ ص ٤٤٨

(٢) الطبري - جـ ٨ ص ٤٤٣

وبعد انهزام الامين لاحق طاهر انصاره في ديارهم ونهب جنده الاسواق ، يقول الطبري :" وكان محمد اعطى بنقض قصوره ومجالسه الخيزرانية بعد ظفر الفزاة الفي الف درهم ، فحرقها اصحاب طاهر كلها ، وكانت السقوف مذهبة ، وقتلوا من الفزاة* والمنتهبين بشرا كثيرا " (١)

وتظهر لنا حيثيات الصراع بين الطرفين ، الموقف الانتهازي الذى اتخذه تجار بغداد اثر هزيمة الامين ، فقد تبرأوا من قائدهم المهزوم ، كما تبرأوا من الشطار والعيارين الذين دافعوا عن مدينتهم . وهذا الموقف كان طبيعيا لانه لا يخرج عن الملامح التاريخية لسلوك طبقة التجار . يظهر لنا ذلك من خلال نص رسالتهم في طلب العفو من قائد الجيش المأموني ، ومبايعتهم المأمون وتبرأهم من الطبقات الفقيرة التي لا تملك الدور والعقار (انظر الفصل الاخير) .

ويبدو ان الموقف الرسمي (الامين) كان قد استفاد من انتفاضة العيارين وشغبهم في دفاعهم عن العاصمة . ولكن ردة الفعل التي خرجت من بين اعيان المدينة ووجهائها (وتجارها) تمثلت في تكون جماعات " المطوعة " (٢) وهم جماعات من المتطوعين الذين حاولوا تهدأة الامور واقرار الامن متخذين من دعوى " الامر بالمعروف والنهي عن المنكر " شعارا لحملتهم :

" ثم انه طاف ببغداد واسواقها وارباضها وطرقها ، ومنع كل من يخفر ويجبي المارة والمختلفة " ، كما يقول احد المتطوعة :" انا لا اعيب على السلطان شيئا ولا اعيره ، ولا اقاتله ، ولا آمره بشيء ولا أنهاه . . ولكني اقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا ما كان ، سلطانا او غيره ، والحق قائم في الناس اجمعين ، فمن بايعني على هذا قبلته ، ومن خالفني قاتلته " (٣) . تلك كانت حركة اصلاحية ، ولكنها ظهرت على مايبدو بعد هرب الامين ، ولعلها لا تختلف كثيرا عن صالح طبقة التجار .

وكانت آثار الفتنة وخيمة على بغداد ، فقد لحقها الخراب نتيجة لصراع الجيوش وتمرد العامة في الاسواق والدروب .

---

* ـ الفزاة : يبدو انها محرفة ، والاصل كما نعتقد " العراة "

(١) ـ الطبري ـ ج ٨ ص ٤٦٦
(٢) ـ الطبري التاريخ ـ ج ٨ ص ٥٥١
(٣) ـ الطبري ـ ج ٨ ص ٥٥٢

حقيقة ان كثيرا من الوقائع السياسية والظواهر الاجتماعية كانت تتكرر بشكل أو بآخر، رغم اننا لسنا مع القول بأن التاريخ يعيد نفسه ،فكل ظاهرة وكل حادثة تختلف عن سابقتها المشابهة لها ، اولاحقتها .

غير ان مايثير الانتباه في مجال بحثنا ، التشابه في الوقائع ، ولابد ان يكون لذلك التشابه دلالته المفيدة في كشف حقائق الصراع وملابساته .

ان الباحث في التاريخ السياسي العباسي ، يستغرب التحولات السياسية المفاجأة التي تعترضه خلال استعراضه الوقائع والمواقف .

فقد اصبح من العادة تحول القادة البارزين في ثورة او حركة او حزب او تيار الى اعداء بارزين لها مستقلين عنها ، وهذا ماعرف بـ (اكل الثورة ابناءها) ، وتكون نهايتهم مأساوية . على سبيل المثال نرى انه بمثل تحول ابي مسلم الخراساني من خادم امين للثورة العباسية الى عدو لدود ومنافس خطير، بمثل مانرى قائد المأمون الاول : طاهر بن الحسين ، الذي هزم الامين ونحاه عن الخلافة يتحول بعد توليته على خراسان ، الى معارض قوي للمأمون عندما اسقط اسمه من خطبته ولمح الى بغيه وجوره منذراً بالإستقلال .

اما الظاهرة الاخرى التي لاحظنا انها كانت تتكرر بين فترة واخرى ،فهي تلك العهود في تولية الخلافة ،حينما اصبح الخليفة بعد غياب سلفه ،يسندها لمن يشاء من ابنائه ومقربيه .

والحقيقة ان ذلك على اهميته ، ليس بالامر الغريب فحينما يكون الحكم فرديا استبداديا فانه يكون عرضة للمفاجأة وتجاوز اعراف الدولة وقوانينها ،اما بالنسبة لخروج قادة الحركات عن اهدافهم وابتعادهم عن حلفائهم ، فانه محكوم بمدى التطبيق والممارسة لاهداف تلك الحركات بعد تحقيق نصرها السياسي على خصومها . ولعل سيطرة النزعة الفردية والتعلق بمباهج السلطان وامجاد الانتصار ، في اطار ضعف الرقابة والتنظيم ،كانت الاسباب الكامنة وراء تلك المفاجآت .

ولا يفوتنا الانتباه الى ان الصراع الذي دار بين الاخوين ومن وراءهما كان يشوبه الالتباس والتداخل في جوهر التكتلات . يدل على ذلك موقف الشخصيات الفارسية من تأييد كلا الاتجاهين . اذ شمل الاتجاه العباسي (الامين) وجوها فارسية بارزة كالفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان ،وهما فارسيان . كما شمل الاتجاه الخراساني (المأمون) وجوها عربية بارزة كطاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين الى جانب الوجوه الفارسية من امثال الفضل بن سهل وغيره .

هكذا نستنتج ان الصراع بين الطرفين كان قائما على المصالح المادية والسياسية اكثر من قيامه على العصبية . بل ربما كان الاساس العصبي - رغم حرص الطرفين على استبعاده - يستخدم كوسيلة لكسب الاصدقاء والمشايعين ، ويظهر ذلك من خلال التشبث بمناطق النفوذ وظهور كلا الطرفين بمظهر المدافع عن الرعية ، وقد استمرت العصبية الفارسية في محاولات السيطرة والظهور بمظهر القوة بعد الضربات القوية التي تلقتها في المستوى السياسي . واخذ ذلك شكل ردة الفعل المتحدية ، يقول احد الشعراء الفرس وهو من ندماء المتوكل :

انا ابن الاكارم من نسل جم* — وحائز ارث ملوك العجم
ومحيي الذي باد من عزهم — وعفى عليه طوال القدم
وطالب اوتارهم جهرة — فمن نام عن حقهم لم انم
معي علم الكابيان** الذي — به ارتجي ان أسود الأمم
فقل لبني هاشم اجمعين — هلموا الى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرما — ح طعنا وضربا بسيف خذم
ولا كمكم الطيب آباؤنا — فما ان وفيتم بشكر النعم
فعودوا الى ارضكم بالحجاز — لأكل الضباب ، ورعي الغنم
فاني سأعلو سرير الملوك — بحد الحسام ، وصرف القلم (١)

ولكن ذلك الاتجاه لم تصدق توعداته وآماله ، لان العباسيين بدأوا في البحث عن حلفاء جدد وبدأو يسدلون الستار على الدور الفارسي في حكمهم .

---

(١) امين (احمد) - ضحى الاسلام - ج ١ ص ٦٥

* جم : جمشيد ملك الفرس

** الكابيان : حداد فارسي رفع علم الثورة .

(جـ) ظهور العصبية التركية

لقد كان الاعتماد على العصبية المؤيدة الاجراء الوحيد الذى يلجأ اليه الخلفاء في حالات الخطر التي تهدد سلطانهم . وجرت العادة ان يكون الاختيار منصبا على عصبية ناهضة قوية لم تضعفها الاهواء .
هذا مافعله المعتصم (اخو المأمون) عندما اوكلت له الخلافة ،خيل اليه انـــه سيكون في مهب الريح اذا لم يدخل سياسة الاحلاف . فكان ان اعتمد على الاتراك الذين بدأوا يمثلون مكانة هامة في جيش الخلافة .
وزاده تصميما على ذلك الموقف نسب امه التركي . غير ان اعجاب المعتصم بقـــوة الاتراك ونفاء عصبيتهم واعتماده عليهم في قيادة الجيش ومحاربة خصومه ، كـــان يجلب له بعض المتاعب . فقد كان سكان بغداد يتذمرون منهم ويتصادمون معهـــم نتيجة تصرفات الجند الفوضوية ونهبهم الاسواق واعتدائهم على الاخلاق العامة - ويبدو انهم لم يريدوا ان تتكرر معهم نتائج الصراع بين الامين والمأمون .
عند ذلك قام الخليفة بنقل مقر اقامته ، وجنده ،وحراسه ، الى خارج بغداد حيث بنى مدينة (سامراء) التي سميت (سر من رأى) . وكان ذلك الاجراء يمثـــل تحولا كبيرا في سياسة الدولة ،يؤكد تصميم الخلافة العباسية على استبدال - حلفائها بحلفاء جدد لا يمتلكون شيئا سوى القدرة على قهر الجيوش وقمع الحركـات مقابل رعاية فائقة واموال طائلة لم تتوفر للاتراك من قبل . وكانت انتفاضة بابك الخُرّمي قد بدأت منذ عصر المأمون ،ولما جاء المعتصم استفحل امرها فكان بحاجة الى جيش قوى يقمعها ، خاصة اذا عرفنا ان بقايا الجند الخراساني كانوا يتعاطفون مـــع الحركات المناوئة للسلطة العباسية في بلادهم .
اما على المستوى الاجتماعي فقد تجسد ذلك التحول في اقطاع قادة الجند الاتراك اراضي حول العاصمة الجديدة بنوا فيها القصور وحطوا عليها الرحال . فتوطـــد استقرارهم وتفردوا بالخليفة . وقد ظهر ذلك بشكل اوضح في عهد الخلفاء الذين عقبوا المعتصم حينما اصبح الاتراك الحكام الحقيقيين يولون ويعزلون من يشاؤوا .
ويجدر بالذكر ان "الاعتزال" كان الفكر الرسمي للدولة في عهد المأمون والمعتصـــم والواثق،لما جاء المتوكل رأى أن سلفهُ قد فرط في الخلافة فكادت أن تخرج من بنـــي العباس ، ورأى ان يحدّ من تدخل الاتراك باعتماده على اهل بغداد حلفاء ومعروف ان اهل بغداد ،آنذاك ، كانوا سنيين (اهل السلف) يتبعون الامام الاشعرى .

وهو اتجاه يعرف برفضه لفكر المعتزلة . يقول (ميتز) :" خرج الاشعرى على المعتزلة حوالي آخر القرن الثالث ،بعد ان كان منهم ،وبدأ يحاربهم بسلاحهم وعلى هذا نشأ في القرن الرابع الهجرى المذهب الكلامي الرسمي القائم على العلم والنظر العقلي ، وكان مذهب الاشعرى مذهبا توفيقيا " (١) . ويكون مذهب الاشاعرة مع الحنابلة اتجاه اهل السنة ، اما الذين عادوا الاشعرى ولم يعتبروه ممثلا لاهل السنة نتيجة لآرائه السابقة في الاعتزال فهم لم يتعدوا نفرا من اصحاب الحديث القدماء .

وكان اهل بغداد سنيين يرفضون فكر المعتزلة الذى سيطر عليهم بالقوة مدة طويلة ، (فكان عليه ان يحارب الاعتزال ليكسب ودهم ورضاهم ، عند ذلك رفض المتوكل فكر المعتزلة واطلق سراح المساجين من اهل السنة الذين كانوا قد اوقفوا لعدم قولهم بخلق القرآن . وابعد المعتزلة واضطهدهم بل كان يشترط في فداء الاسرى المحتجزين عند الروم ان يقر الاسير بأن القرآن غير مخلوق ، وان يقر بمخالفته لاهل العدل والتوحيد ..) (٢) . والمعروف ان المتوكل كان شديد التعصب لدينه فاضطهد اهل الذمة وابعدهم عن دواوينه وفرض عليهم شروطا اجتماعية مهينة . ويمثل اضطهاد المعتزلة (القدريون) لاهل السنة في مرحلة المأمون كان اضطهاد الاشاعرة (السنيون) للمعتزلة في مرحلة المتوكل ومن تلاه .

ونجد مرة اخرى ان الاحداث تتشابه حينما عهد المتوكل بولاية العهد الى ابنائه الصغار (المنتصر ، فالمعتز ، فالمؤيد) حينما قسم الدولة * بينهم ، وأوقع الخلاف فيهم بتحيزه للمعتز ، فتحيز الاتراك للمنتصر وكان ذلك سببا في قتل المتوكل في منتصف القرن الثالث الهجرى .

وقد تميزت تلك الفترة بكثرة الفتن والحروب بين طوائف الجند وبينهم وبين " العمال" فتوقفت الاعمال وغلت الاسعار وتعطلت الزراعة لضياع الامن وكثرة التعدى والظلم ، وزاد من ذلك البلاء ان اكثر ما احتفرته الدولة في عقودها الاولى من الترع والانهار لتسهيل الري انسد بالحروب " (٣) ، وتميز حكم البويهيين باقطاع الاراضي والقرى للجند بدلا من الرواتب (انظر مسكويه " تجارب الامم") .

---

(١) متيز (آدم)ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ج١ص٣٧٧/٣٧٨
(٢) العش (يوسف) ـ تاريخ عصر الخلافة العباسية ـ ص ١٠٥
(٣) زيدان (جرجي) ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ج٢ ص ١٢٧ (ط ١٩٠٣)
(*) أهل الذمة : المسيحيون واليهود

كما تميزت بكثرة المؤامرات التي كانت تحاك في قصور الدولة ،يتجاذبها طرفان : القواد العسكريون من جهة والكتاب والوزراء من جهة ثانية ، كما لعبت امهات الخلفاء دورا كبيرا في اذكاء ذلك الصراع .

وكان ذلك الوضع السياسي يستمد ضعفه من اضطراب الحياة الاجتماعية وكثرة الاضطرابات والقلاقل ، فخلال تلك المرحلة الطويلة من اواخر عهد المأمون ،حتى عهد الخلفاء الضعاف (المعتمد ،المعتضد ، المكتفي) ،اى منذ العقود الاولى من القرن الثالث حتى نهايته وبداية القرن الرابع ، ظهرت اكثر الثورات والحركات الاجتماعية اهمية في الدولة العباسية ، تلك الحركات التي اتخذت من سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية مبررا لعصيانها وخروجها على سلطة العباسيين ، حيث ثارت البابكية في خراسان ، وثار القرامطة في البحرين ،وثار الزنج في سواد العراق واستمرت تحرشات الشطار والعيارين في بغداد .

كان ذلك صورة موجزة عن الطريقة التي كان يجرى عليها الصراع السياسي داخل الدولة بين العباسيين انفسهم وبينهم وبين العصبية الفارسية ثم التركية ، على اننا لم نتعرض بالتفصيل في صراع الاسرة العباسية الذى يطول فيه البحث والتكرار دون ان نستفيد منه كثيرا في دراستنا هذه .

الفصــــل الثالـــــث

الصــراع الطبقي

الصـراع الطبقـي (الحركات الاجتماعية)

مقدمـــة

ليس اعتمادنا على الحركات الاجتماعية في دراستنا للصراع الطبقي سوى خطوة عملية تفرضها محاولة حصر الصراع الاجتماعي في مجموعة من الفعاليات بحسب طبيعة العلاقات والافكار .

ومن هنا فان الحديث عن الصراع الطبقي في المجتمع العربي الاسلامي ، لا يمكن ان يتم بمعزل عن الصراع في منظومة الافكار والمعتقدات او مؤثرات الانتماءات (القبلية والاقوامية) ، فتلك الافكار والمعتقدات ، تمثل في الغالب التعبير الحقيقي عن الواقع الاجتماعي وما يحصل فيه من تفاعلات . لذلك فان دراستنا للصراع الطبقي ، كشكل متميز عن اشكال الصراع الاخرى ، لابد ان تنصب على تلك الحركات الاجتماعية التي تميزت ،بشكل عام ، بالمميزات التالية :

١- البعد الاجتماعي الظاهر في المواجهة . اي ان يتسم تحركها بالاحساس بالمسألة الاجتماعية (توزيع الثروة - تقسيم العمل - ملكية وسائل الانتاج - الحرية الشخصية والاقتصاديـة ..) .

٢- البعد السياسي المتمثل في المعارضة السياسية للدولة القائمة (نظام الخلافة والامتيازات) . ويظهر ذلك البعد في الافكار والمعتقدات المطروحة من قبل الحركة كبديل .

٣- دخول تلك المعارضة الاجتماعية والسياسية في حيز الواقع ،عن طريق الفعل المعارض المتمثل في العنف والمواجهة المتمردة المنطلقة ارادياً من الاطراف غير الرسمية . ولابد ان يكون ذلك العمل المعارض منتسباً الى الوسط الاجتماعي الذى لا يشارك في السلطة ، ولا يحضى بالامتيازات ، حتى يكون عملاً شعبياً معارضاً يمكننا ان نطلق عليه لفظ .. الحركة الاجتماعية " .

على اننا نلزم انفسنا منذ البدء ، الاقرار بان تلك السمات الاساسية لم تكن متوفرة بالضرورة في كل الحركات الاجتماعية بقدر ما كانت خطوطها العامة تتحد في الحركات التي سنتعرض لها . وان بعض تلك السمات كانت تتوفر في بعض الحركات المعارضة الاخرى التي لم يتجاوز صراعها الاجتماعي مجال المواجهة السياسية والفكرية .

ولا يعني تحديدنا لتلك السمات اننا نستطيع ، منذ البداية ، الاقرار ببلوغ كل تلك الحركات مرحلة من الوعي السياسي والاجتماعي المتقدم بما يفترض تطور سبل

تنظيمها وحركتها ،فلو صح ذلك لكانت النتائج التي وصلت اليها الحركات الاجتماعية اكثر ايجابية وقدرة على تغيير الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .

ان دراستنا للصراع الطبقي في اطار الصراعات السياسية ، الدائرفي المجتمع ، قد تفرقنا في خضم هائل من الافكار والاحداث الفرعية دون ان نصل الى تلمس الصراع الطبقي الراكن في اعماق ذلك الخضم . ليس مقدورنا ،حسب مانعتقد ، الوصول الى ذلك التلمس ،الا بدراسة الاثار الفعلية للصراع في حال هيجانه ، اى في حال حصول الثورات وحركات العصيان الاجتماعي الذى ينطلق من الاحساس بالظلم والاستغلال .

ـ غير ان دراستنا لتلك الحركات الاجتماعية من خلال البحث في تأثيراتها وآليات تحركها ضد خصومها ،لن تغنينا عن التعرض للصراعات القائمة بين الطبقات العليا في المجتمع ، لان الصراع الطبقي لا يعني الصراع الدائر بين الطبقات المستغلة والطبقات المستغلة فقط ،بل انه يشمل كل الطبقات المتناحرة بما في ذلك الصراع الدائر بين الفئات الصغيرة المكونة لطبقة واحدة. وكثيرا ما تفيدنا دراسة الشكل الاخير من الصراعات الجزئية والدقيقة في التعرف على كيفية تشكل الطبقات الاجتماعية وتطورها وانحلالها ،وسيطرة الطبقات الاخرى ، او التحالفات القائمة بينها ..

ان تلمس مسيرة الصراع الطبقي لا يمكن ان تتم بالبحث عن وعي الافراد والجماعات لواقعهم فقط ،او بوصف كتاب عصرهم لمبادئهم واهدافهم واعمالهم ، وانما تتم بالاساس بتفسير متناقضات الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، اى بالصراع القائم بين قوى الانتاج وعلاقاته في المجتمع الذى تنتمي له تلك الجماعات واولئك الافراد . ومن الملاحظ ان قادة الحركات الاجتماعية كانوا يحاربون طوال عهد الدولة العربية الاسلامية بعقائد اسلامية اقتبسوها من القرآن ، والحديث النبوى ، وممارسات الخلفاء الراشدين الاوائل . كما ان تلك الحركات كانت تتحرك في اطار العقائد الباطنية ، وهذا مايفسره التلون عند بعضها والتستر والتقية عن بعضها الآخر .

لقد كانت واعية لحجم عدائها مع السلطة السياسية ،فالتجأت في العصر العباسي الى العمل السرى في البداية ، واستبقت على اختفاء ائمتها (قادتها). وتبنت بالاشتراك مع معظم الحركات السياسية فكرة (المهدى المنتظر) ، الامام المستور، الغائب عن انظار الشعب ، الذى سيأتي ليملأ الارض عدلا بعد ما ملأت جورا .

ونحن نرى ان ذلك المبدأ ، بقطع النظر عن التعبيرات التي جاء فيها (حيث ظهرت تسمية السفياني المنتظر) ، ليس سوى رمزا للطموح نحو تحقيق العدالة والمساواة بين المسلمين جميعا ، فرضته ظروف النضال السياسي والاجتماعي .

ونأتي الآن الى دراسة تلك الحركات الاجتماعية التي حددنا ، بشكل عام ، اسباب اختيارنا لها كنموذج لدراسة الصراع الطبقي في المجتمع العباسي . وسوف نتصب دراستنا على ثلاث حركات معروفة برزت الى قمة الاحداث بشكل ضاغط ، بعد مرحلة من توطد الدولة العباسية . وهي الحركة القرمطية ، وحركة الزنج وحركة الشطار والعيارين .

على ان هنالك حركات اجتماعية اخرى ، لن نتناولهما بالبحث رغم اهميتها ، اما لانها كانت بعيدة عن مركز الدولة ، او لان دراستها تطيل البحث دون اى فائدة كبيرة .

كما ان ترتيب الحركات المدروسة موضوع لدينا بحسب اهميتها الاجتماعية والتاريخية وليس بحسب تسلسلها الزمني .

المبحث الاول :   الحركة القرمطية

الوضع الاجتماعي والاقتصادى والسياسي ابان قيام الحركة القرمطية

ظهرت الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى ،اى بعد حوالي قرن كامل من قيام الدولة العباسية . وحيث كانت تلك الفترة مليئـــة بالاحداث والتطورات ،فانها تميزت باشتداد الصراعات الاجتماعية والسياســية، بفعل ظهور اطراف جديدة في البناء الاجتماعي الذى اخذ يتسع مع اتساع الدولة. كما عرفت تلك المرحلة تطورا كبيرا في مجالات العلم والثقافة ادى الى تبلور حضارة متميزة تستند الى الارث الحضارى للشعوب التي شاركت في بناء الدولة العربيـــة الاســلامية .

ولكن ذلك الامتداد الواسع ، والتطور السريع ، كانا يحملان معهما بعض التناقضات الاساسية مما عرقل استقرار الدولة العباسية . ويمكننا تلخيص تلك التناقضـــات فيما يلي :

١- اتساع الخلافة العباسية وعدم قدرة السلطة المركزية على متابعة كل مايجرى مـن تطورات في اطراف الخلافة وتلبية حاجات الشعوب التابعة لها .
فقد انعكس ذلك في ادارة تلك الاطراف التي بدأت تعج بحركات التمرد والانفصال.

٢- كما كان للحروب الدائرة بين فترة واخرى ، مع الدولة البيزنطية اثرها في اضعاف العلاقة مع تلك الاطراف .

٣- اتساع الفوارق الاجتماعية وتبلور الطبقات ذات المصالح المتناقضة . وقد اذكي ذلك انهيار أهم المنجزات الاقتصادية ،وتحول المجتمع في مصادره الاساسية الى مجتمع تجارى فقدت فيه الزراعة دورها الرئيسي ، كما ان استفحال مصاريف الدولـة وشغب الجند المأجورين في الاسواق وتعرضهم للمصالح العامة ، وانفراد التجـار والموظفين وقادة الجيش بالاموال ، ادى الى ضعف خزينة الدولة بعدما عرفـت في المرحلة السابقة ازدهارا كبيرا .
كما ادى انخفاض الخراج المضروب واستئثار " العمال " بالجباية وتحول اراضي الدولة، واراضي الفلاحين الى ضياع مقطوعة ، جلى عنها معظم مزارعيها ،الى اتســاع التناقضات الاجتماعية وازدياد الشعور بالظلم والحيف لدى الطبقات الفقيرة .

وكان ذلك الشعور ضعيفا في القرن الاول من عمر الدولة العباسية ، حيث كانت اجراءات الخلفاء الاوائل تتسم بالحزم في ضبط شؤون الدولة وتنشيط مواردها ، وتوزيع الثروة بين الناس بشكل اقرب الى المساواة . ولكن ذلك كان امرا موتورا لاختلاف سياسات الخلفاء .

وهكذا بدأت المواقف السياسية المعارضة للعباسيين تتبلور وتزداد تطورا بازدياد الفوارق ولجوء ممثلي السلطة الى البطش بمعارضيهم لحماية دولتهم .

لقد اخذ الانقسام الجديد للمجتمع العباسي في " الدور الثاني " يفرض التقسيم الاقتصادي للطبقات بديلا عن التقسيم القائم على اساس النسب والعنصر .

بدأ ذلك الانقسام يتضح ، حسبما يذهب برنارد لويس ، بانتقال الخلافة من دولة زراعية عسكرية الى امبراطورية تجارية عالمية (١) . وفي ظروف هذا التحول الخطير ، الذى عملت فيه العوامل الخارجية دورا كبيرا ، كان من الطبيعي ان يأخذ الصراع الاجتماعي منحى متسارعا ،ليزداد رسوخا وحده عندما بدأت ملامح الفوضى السياسية تبرز في بنية نظام الدولة ، حاملة معها بدايات الانهيار الاقتصاد الانتاجي الذى بدأ يترك مكانه للاقتصاد التجارى الخدماتي .

تلك الفوضى السياسية والاقتصادية ضاعفت من القهر السياسي وزادت من حدة الاستغلال مما ادى الى شعور بالضيم ورغبة في تغيير الواقع .

كما كان الرصيد النضالي التاريخي لدى قوى المعارضة يزداد متانة لما ادى اليه من تراكم في الخبرة التنظيمية وقدرة على بلورة الاهداف واختيار المواقع .

فضلا عن ذلك ،فان طبيعة المواجهة الطبقية اخذت في تلك الفترة ابعادا جديدة اتسمت بالمواجهة المباشرة . فقديما لم يكن الظلم الاجتماعي يتعدى الضريبة الملقاة على عاتق الفلاح والحرفي فيتحرر من تلك المسؤوليه بمجرد دفعها الى ممثل السلطة في القرية ، او بمجرد إظهار الولاء للخليفة . اما الآن فبعد سلسلة الصراعات السياسية والطبقية وتوالي أقوام المتلفين على السلطة همهم الوحيد الحصول على الربح السريع ، فان الفلاح اصبح اكثر تعرضا لارتفاع الاسعار والضرائب . وكانت طريق جمع الثروة لدى الموظفين والقادة تتمثل في السيطرة على مجالات التجارة والمصارف والاراضي .

وقد ادى منح قادة الجند الاقطاعات المنتبة مقابل رواتبهم ،التي عجزت الدولة عن تسديدها . إلى ضربة قاسمة للانتاج الزراعي ،ثم الصناعي ، لان اقتصاد الجند

---

(١) لويس(برنارد)- اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية - تقديم ومراجعة : خليل احمد خليل - ص٧

للخبرة الاصيلة في الانتاج ، ورغبتهم الملحة في الربح السريع ، وعدم اهتمامهم بشؤون الارض ومتطلبات الزراعة كفيل بتحقيق تلك الطعنة القاسمة في قلب الاقتصاد العباسي . ففي تلك الرغبة الملحة في الربح السريع ، من قبل الاقطاعيين العسكريين والاقطاعيين الاداريين ، والتجار الكبار ، تكمن وطأة الاستغلال الطبقي . لان العلاقة المباشرة اصبحت قوية بين العامل وصاحب العمل ، بين الفلاح والجابي ، تلك المباشرة ادت الى " الاشراف " ، وذلك الاشراف ادى الى التعايش الميداني المتواصل كي لا ينقطع الربح السريع .

ومن هنا بدأت تتكون علاقة غير متكافئة ، ضاغطة ، قائمة على اساس المصلحة بين الطرفين ، ولكنها غير متساوية ، طرفها الضعيف اداة يسخرها الطرف القوي بشكل منهك ومجحف . كذلك بدأ العامل ، او الفلاح ، يشعر بموقعه من الملكية والانتاج ، في نفس الوقت ، من العلاقة مع صاحب الملكية وصاحب الربح . ذلك ماقصدناه بقولنا : ان العلاقة اصبحت وثيقة بين الطرفين ، لرغبة سريعة في الربح من جهة ونتيجة لتطور في تقنية وسائل الانتاج من جهة اخرى .

اذن فان تلك العلاقة المباشرة ادت الى شعور بالضيم واحساس بالحيف الاقتصادى .
ولا شك ان ظهور التجمعات العمالية والفلاحية ، واستخدام اسلوب العمل الجماعي ، اثر في بلورة وعي طبقي جماعي بين تلك الفئات . وهذا ماسنتبينه لاحقا في دراستنا لحركة الزنج .

كل تلك العوامل النفسية والاجتماعية كانت العامل الذى حول الوعي الطبقي من مراحل الكمون الى مراحل الظهور ، كما كانت العامل المؤدى الى ظهور العمل التنظيمي المبكر في صفوف الحركات الاجتماعية .

ولا شك ان نظام الاصناف الذى كان عبارة عن تنظيمات (نقابية) تضم الحرفيين في تسلسل هرمي ، كان ينبئ بتطور حساري ملموس في مجال العلاقات الاجتماعية .

ولا شك انه كان يؤثر في الحركات السياسية ويتأثر بها بخاصة تلك الحركات التي ناصبت الخلافة العداء وطمحت الى تكوين نظام اجتماعي متميز .

ان عصر الحركات الاجتماعية ، هو عصر انتفاضات العامة ، كان المؤرخون يطلقون عليها مصطلحات متعددة مثل : هبات ، عصيان ، تمرد ، خروج .. الخ .

وقد تميزت المرحلة الثانية من الدولة العباسية ، مرحلة اواخر القرن الثاني الهجرى ، وما تلاها ، بميزة لم يألفها عصر الرشيد والمأمون ومن سبقهما من المؤسسين والموطدين للحكم والاقتصاد .

مرحلة انتقلت من واقع يسوده الغموض على مستوى الانتماءات الطبقية ، الى واقـــع اكثر وضوحا وانسجاما مع المعانات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها جماعات المعارضة . فقد تحولت المعارضة من وضع يغلب فيه الولاء للنسب القبلي والاقوامي الى وضع يغلب فيه الولاء للمصلحة الاجتماعية والاقتصادية . بمعنـــى آخر فقد اصبح الفرز الطبقي قائما على اساس الموقع من السلطة والثروة ، كما اضحى دور النسب ثانويا حينما استغله بعض قادة الحركات من اجل الدعاية واضفاء عنصر الشرعية على حركاتهم تجاه السلطة العباسية التي لم يبق منها ما هو عباسي ســـوى مظهرها . من هنا مثلت الحركة القرمطية ذلك الواقع الجديد بابعادها التنظيمية والاجتماعية. كما مثلت ، ببعدها الاصيل ، تتويجا للنضال السياسي الطويـــل الذى خاضته الحركة الشيعية بفروعها المختلفة منذ بدايات العصر العباسي .

ـ انه نضال مرير ، استطاعت . حركة الشيعة ، من خلاله ، ان تثبت اهميتهـــا واستمرارها بين الجماهير . فرغم محاولات العباسيين لتصفية هؤلاء الخصوم فانهم لم يستطيعوا لان الشيعة كحزب سياسي معارض استطاع التأقلم مع الواقع فغير من برامجه ووسائله بما يتناسب واستمراريته خلال مرحلة زمنية طويلة .

ورغم ان الشيعة فرضت استمراريتها بـ انشاء الدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر ، فانها لم تكتف بالتستر والهروب الى الاماكن البعيدة عن ايدى الخلفاء العباسيين ، بل انها حاولت تركيز نشاطها في قلب عاصمة الخلافة وفي الاماكن القريبة منها ، فاتخذت لذلك اساليبها الحركية الملائمة . وكان نشاط الحركة الاسماعيلية يســرى في اهم امصارها (سوريا ، العراق ـ البحرين ، اليمن) .

وينجح في كسب التأييد الشعبي . اذ استطاعت مبادئ الاسماعيلية ان تجلـــب الى صفوفهم جماهير واسعة ، من العرب والموالي ، بهرتهم سرية دعاتها وثقافتهـــم الواسعة ، وتبنيهم المستمر لفكرة (المهدي المنتظر) الذى يمثل طموح العامـــة في القيادة (الخارقة العالمة ، العادلـــة) .

٦) الحركة الاسماعيلية ترد على الفكر السني الرسمي :

لم يكن الفكر السني ـ الحنبلي في منتصف القرن الثالث بمستوى المسؤوليـــة امام ضعف الكيان العباسي واستفحال الضرر الناجم عن تصرفات الجند الاتراك . فلم

يقدم شيئا لحل الازمة المستفحلة على جميع المستويات .
بل (ان الناس فقدوا ثقتهم بعلماء السنة نظرا لتورط هؤلاء مع رجال السلطة وشغل انفسهم بقضايا التجسيم ومسائل علم الكلام (١) ، اما الدعوة الاسماعيلية فانها قدمت البديل ، فسيطرت (على مسار التفكير الاسلامي ، وعلى عقول الفلاسفة وتغلغل تأثيرهم الموجه الى جوف نظم وافكار الثورة وحركات العدالة والمساواة في بلاد الاسلام ، كما حصل لدى العامة شعور بدنو النصر ، وقرب ساعة التحرير ، وروجوا لهذا عن طريق فكرة الامام المنتظر ..) (٢) .
وليس المجال مناسبا لاستعراض المبادئ الاسماعيلية وافكارها الاجتماعية السياسية والدينية فيمكننا ان نقرأ ذلك في افكار القرامطة كفرع من فروعها . ولكننا نستطيع استشفاف قوة البديل وخطورته من خلال صداها الصارخ في كتابات خصومها من كتاب الفرق ، فمعظمها يشن هجوما لا هوادة فيه على هذه الحركة . وكثيرا ما يلتبس الامر لدى اولئك الخصوم من " اهل السنة " بين مبادئها ومبادئ غيرها من الفرق والفلسفات ." ولربما قد وجد عدد لا بأس به من الحركات المطالبة بالعدالة وذات الفكر " الراديكالي " القريب من الفكر الاسماعيلي ، ولشهرة الاسماعيلية صنفها الناس بين الحركات الاسماعيلية (٣) . ويظهر لنا ذلك الخلط خاصة في اتهامهم بالاباحية قولا وممارسة . وهو خلط واضح ، بين مبادئها ومبادئ المزدكية والخرمية يكمن في اتفاقها مع بعض تلك الحركات في رفع شعار العدالة وممارسته . غير ان ذلك لا ينفي حقيقة الصراع الايديولوجي والسياسي الذى يؤدى باعداء الاسماعيليين الى كيل السباب والقصد في التشويه .
كما حظيت الاسماعيلية باكثر قدر من الجور والاضطهاد مما اضطرها الى الاعتصام في مواطن نائية منيعة ، يعز على الخصوم اقتحامها ، واستمروا في مزاولة نشاطهم مستميتين من اجل نشر دعوتهم ، فوصفوا بالحشاشين تارة ، والزنادقة والملحدين تارة اخرى . (٤) .

---

(١) زكار (سهيل) - اخبار القرامطة - (المقدمة) ص١٨
(٢) زكار (سهيل - نفس المرجع - ص١٩
(٣) زكار (سهيل) - نفس المرجع - ص٢٠
(٤) غالب (مصطفى) - اعلام الاسماعيلية - ص٩

ولكن ركون الحركة الاسماعيلية في تلك الفترة الى العمل السرى لم يمنعها من ممارسة العمل السياسي . فقد كانت تترجم افكارها السرية في مضايقة الدولة كلما سمحت لها الظروف " فاذكو الفتن في سواد الكوفة وفي العراق العربي وبادية الشام وفي اكثر ارجاء سورية " (١) .

(ب) ظهور الحركة :

كان ظهور القرامطة في تلك الانحاء يمثل استمرارا حقيقيا لدعوة اسلافهم ، رغم الاطوار العصبية التي مرت بها العلاقة بين الحركة الام (الاسماعيلية) والحركة الناشئة (القرمطية) ، ووصولها حد المواجهة المسلحة (٢) .

ويرجح معظم الباحثين ان حركة القرامطة نشأت في سواد العراق ثم انتقلت الى الشام ومنها عادت الى العراق فالبحرين واليمن .

كان انطلاقها في العراق حوالي سنة ٢٦١ هـ الموافق لسنة ٨٧٤ م .

اما معارضتها المسلحة فقد انطلقت سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م . ثم تقلص دورها لبضع مدة من الزمن نتيجة الخلاف الذى حدث بين دعاتها والدعاة الاسماعيليين (٣) واستمرت حروب القرامطة ضد العباسيين بعد تمكنهم من تأسيس دولة مستقلة في البحرين . والثابت ان تلك الحروب استطاعت ان تنهك القوى العسكرية للدولة العباسية في أواخر القرن الثالث وبدايات القرن الرابع الهجرى .

ويعتبر حمدان قرمطه ، وهو من اهل الكوفة (٤) ، احد دعاة القرامطة الاوائل ، فلما استجاب له اناس سموا " قرامطة " و " قرمطية " (٥) .

ويوغل المؤرخون والباحثون في تفصيل الروايات المتعلقة باللقاء الذى تم بين احد الدعاة الاوائل (الحسين الاهوازى) و (حمدان) (٦) ، وكيف ان الاول دعا الثاني

---

(١) حسن (حسن ابراهيم) - تاريخ الاسلام - ج٣ ص ١٩٧

(٢) زكار (سهيل) نفس المرجع - ص ٢١

(٣) الدورى (عبد العزيز) - تاريخ العراق الاقتصادى في القرن الرابع الهجرى - ص ٧٢

(٤) لويس (برنارد) - القرامطة - ص ٨٢

(٥) العياشي (سامي) - الاسماعيليون في المرحلة القرمطية - ص ٦٧

(٦) العياشي (سامي) - نفس المرجع - ص ٦٧

للانخراط في حركته فاستجاب بفضل سماته المميزة وعلى ان ذلك مجرد صدفة أم ان حمدان كان ذا علاقة بالحركة قبل ذلك . غير ان المهم بالنسبة لنا ان الحركة انطلقت في سواد الكوفة على يد حمدان ، وان قيادته لاقت نجاحا كبيرا في صفوف الاعراب وفلاحي السواد والطبقات الفقيرة . يقول المقريزى :" حتى لم يتخلف عنه رفاعي ولا ضبيعي الا ودخل في دعوته ودان بها ، ولم يبق من بطون العرب - المتسلط بواسط بطن الا استجاب له . " (١) .

اما دعاة القرامطة الآخرون فقد نشطوا نشاطا ملحوظا في سوريا والعراق فخاضوا حروبا كثيرة وحاولوا السيطرة وتحقيق اهدافهم ، وقد استطاع يحيى بن زكرويه ، الذى قاد تحركاتهم في الشام ، ان ينجح في السيطرة على عديد من المدن السورية .

وتقترن الحركة القرمطية في البحرين باسم ابي سعيد الجنابي . وابنه أبو طاهر . ففي سنة ٢٨٧ هـ اغاروا على " هجر " واقتربوا من نواحي البصرة وهزموا جيش الخلافة .

وقد نجح ابو سعيد في ان يضم تحت لوائه سائر بلاد البحرين وما يحيط بها . على ان ابا طاهر تابع سياسة العنف بأساليب بالغة الخطورة على العباسيين حتى بلغ به الامر الى ان يغير على قوافل الحجاج ، وعلى مكة نفسها واحتبل الحجر الاسود لمدة سنوات .

وتعتبر حادثة احتجاز الحجر من اهم الاحداث البارزة في تاريخ القرامطة ، بما تمثله من تحد كبير لسياسة الدولة العباسية وايديولوجيتها السائدة .

فلمكة و" الحجر الاسود " مكانة مقدسة لدى المسلمين ، ولم يكن احد يتصور ان الصراع سيصل الى تلك الدرجة . فما الخلفيات التي كانت تكمن وراء ذلك العمل الذى وصفه المؤرخون القدامى بالشناعة ، كما كان دافعا لردود فعل خطيرة من قبل خصوم القرامطة واضدادهم ، وما النتائج التي ادى اليها ؟ .

هاجم القرامطة مكة بقيادة ابي طاهر الذى " اخذ كسوة الكعبة فقسمها بين اصحابه ، ونهب دور اهل مكة ، وخلع الحجر الاسود من البيت . . وحمله الى هجر" (٢) .

---

(١) المقريزى - المقفى (عن العباس ص ٧٣)
(٢) ابن سنان (ثابت) - اورده : زكار - اخبار القرامطة - ص ٥٣

ولا شك ان ذلك التصرف كان ينسجم مع العقلية الاسماعيلية التي ترفض مظاهر العبادة وطقوسها المألوفة ، وتعطي النصوص الشرعية ابعادا تأويلية تحاول الاستناد على العقل وتضفي على " الامام المهدى" صبغة تقديسية تجعله في مرتبة الانبياء.

على ضوء ذلك ،كما يقول سهيل زكار ،يمكن لنا (ان نفهم ماأقدم عليه القرامطة من استعراض لخصومهم واغارات على قوافل الحجاج بلغت الذروة في مهاجمة مكة سنة ٣١٧ هـ وقتل الحجاج في الحرم واقتلاع الحجر الاسود من الكعبة) (١).

ان نظرة عميقة في خبر ابن سنان السابق عن استيلاء قائد القرامطة على كسوة الكعبة، وقسمتها بين اصحابه ونهب دور اهل مكة وخلع الحجر من البيت وحمله الى عاصمتهم . لكفيلة باضفاء بعض الوضوح على خلفيات ذلك العمل .

فتقسيم الكسوة على الاتباع دليل على الرغبة في سد الحاجة ،فلا داعي حسب رأيهم ، لاكساء الكعبة بذلك القماش الثمين والناس في حاجة اليه .

كما ان نهب دور اهل مكة ، هو بالضرورة نهب لدور التجار وكبار الملاك الذين استفادوا من مواسم الحج عن طريق استغلالهم الفاحش للحجاج .

اما خلع الحجر فانه مجرد نقل ،اذ لم يتلفوه او يرموه ،بل انهم نقلوه الى عاصمتهم، والاقرب الى اعتقادنا انهم حاولوا اضفاء الشرعية على دولتهم وعاصمتهم التي سميت " دار الهجرة " ، بسلب مكة طابعها المقدس"، وقد زعموا ان هذا الحجر مغناطيسي يجذب الناس اليه من اطراف العالم ." (٢).

وعندما نستعرض تلك الحادثة يتبادر الى اذهاننا قول شهير لعمر بن الخطاب عندما كان يؤدى فريضة الحج : " والله اني لاعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا اني رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك " (٣). لقد كانت جرأة القرامطة بالغة في التعامل مع الطقوس الدينية . لكن تلك الجرأة كانت تحمل معها خطورة كبيرة على الحركة القرمطية والفكر الاسماعيلي الثوري آنذاك .

---

(١) زكار (سهيل) - اخبار القرامطة (المقدمة)ص ٢٢
(٢) خسرو (ناصر) - اخبار القرامطة - ص ١٩٧
(٣) دي خويه (ميكال يان) - القرامطة - ص ٩١

فقد شمل التنديد بأعمال القرامطة في مكة خصومهم وحلفاءهم . خصومهم من اهل السنة الذين استعملوا كل الوسائل لاظهار القرامطة بمظهر " الكفار " و " الغرباء " و " الزنادقة " . وحلفاءهم من الاسماعيليين والفاطميين ، حيث تجسد ذلك الموقف التنديدي من خلال الرسالة التي بعث بها الامام الفاطمي في المغرب الى ابي طاهر يستنكر عليه اقتلاع الحجر ويأمره برده ، ومن تلك الرسالة قوله :
" سجلت علينا في التاريخ نقطة سوداء لا تمحوها الليالي والايام ... وقد حققت على دولتنا وشيعتنا ودعاتنا اسم الكفر والزندقة والالحاد بأفعالك الشنيعة هذه .. " (١).

والجدير بالذكر ان القرامطة كانوا يقصدون من هجومهم على مكة والحجاج مضايقة السلطة العباسية ، فشكل ذلك موقفا اجتماعيا وسياسيا صلفه ابو طاهر عندما عاتبه " اصحاب السلطان " ولم يوافق على طلب الصلح معهم ، في قوله :" انا لا اغدر ولا اغرفي نفسي ، ولو أردت ذلك لامنت اصحاب السلطان ثم غدرت بهم ،لكن لا أؤمنهم، لانهم يشربون الخمر ،ويلبسون الحرير ، ويمينون السلطان الذى يحجب عنهم الرعية ،ويظلم اليتيم والارملة ،ويشرب الخمر ،ويسمع الغيان .. " (٢). بقطع النظر عن مدى التزام ابي طاهر بهذا الكلام ،فان موقفه يدل على الجرأة السياسية في مواجهة الخصوم ، والثقة بالنفس والاصرار الذى لا يفوقه خطورة الا احتجاز " الحجر " وافتسام كسوة " الكعبة " .

اننا لا نشك في تأثير حادثة مكة سلبيا على مسيرة الحركة القرمطية . يدل على ذلك انكفاءها في الجزء الذى بنت فيه دولتها ،فلم تستطع تجاوز البحرين في تحقيق النجاحات ،وساءت علاقات القرامطة بالفاطميين وبلغ ذلك درجة الصدام المسلح بين الدولتين . كما بدأ الخلاف يدب بينهم وبين قرامطة سوريا واليمن ،بل بين قرامطة البحرين انفسهم .

ونحن نعتقد ان لحادثة مكة اثرها البالغ في تأليب الرأى العام السني ضد القرامطة وخاصة فيما يتعلق بابطالهم الشرائع وممارستهم الممنوعات .

ولكن تلك التهم كانت توجه لهم قبل وقوع تلك الحادثة . فقد كان ابو سعيد يرد على اولئك الخصوم قائلا :" وقالوا انا نشترك في ازواجنا ، ويرى الاباحة،وتعطيل

---

(١) ابن سنان (ثابت) - اخبار القرامطة - ص ٥٤
(٢) الهمذاني (القاضي عبد الجبار) - اخبار القرامطة - ص ١٥٦

الشريعة ، وقد كذبوا علينا ، ونحن قوم مسلمون ، ومانحل من اتهمنا بغيرالاسلام" (١)

في هذا القول يؤكد القرامطة على لسان احد قادتهم ، انهم لا يبطلون الشريعة والاخلاق . بل انهم يرفضون تلك التهم الباطلة ، ويصرون على صلاح مذهبهم في الاسلام ، ويندون بواقع الخلافة المتردي . علما بأن هذا القول جاء على لسان احد خصومهم ممن اتهموهم بالالحاد والتسيب قولا وفعلا ، (القاضي عبد الجبار) .

ان المطلع على النصوص المتعلقة باخبار القرامطة وافكارهم ، وجلها من صياغة خصومهم ، لابد له من ان يلاحظ ان المواضيع التي ركز عليها المؤرخون وكتاب الفرق ، واسهبوا في تفصيلها ، هي تلك المتعلقة باباحة الاختلاط الجنسي وتعطيل الشرائع . بمعنى آخر فان اكثر ماتعرضوا له بالتفصيل كان يتعلق بالممارسات الاخلاقية والعقائد الدينية . ونحن لا ننفي اهمية ذلك ، ولكنهم لم يتعرضوا ، الالماما ، لنظمهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التي واجهوا بها الدولة العباسية . وكان الرحالة (ناصر خسرو) من القلائل الذين تناولوا تلك الجوانب ببعض التفصيل .

يقول احد هؤلاء الخصوم متحدثا عن دعاة القرامطة في اليمن :" وكنا (قائدان قرمطيان) مدة يتستران باقامة الشريعة ، ثم ظهر منهما الاباحة وليلة الافاضة ، واولاد الصفوة . ونكاح الامهات والاخوات والبنات والمشاركة في الزوجات ، وتعطيل الشرائع ، وشتم الانبياء عند التمكن والقدرة .. " (٢) واضح مافي تلك التهم من مبالغة وهي ان لم تكن مقصودة من اجل التشويه ، فانها نتيجة لما ورثه الكتاب " المسلمون" من التراث الساساني حول المزدكية وغيرها من المذاهب والديانات ، دون ان يفرقوا بين البيئات الاجتماعية والثقافية لمختلف الحركات .

ومعروف ان اخطر التهم التي يراد لها ان تؤثر سلبيا او ايجابيا في مجتمعات الشرق آنذاك ، هي ربط الاخلاق والشرف بالجنس . ولذلك الصقت تلك التهم الباطلة بجميع الحركات ذات المضامين الاجتماعية والاهداف الاقتصادية في الاسلام (٣) .

والثابت ان القرامطة كانوا متطرفين في آرائهم المتعلقة بالشريعة . فادى ذلك الى ظهور خصوم اشداء في التعصب والتهجم فتقلدوا السيف والقلم ليبطلوا افكار هؤلاء الخارجين عن المألوف ، الصادحين بآراء خطيرة على الدين والعادات الاجتماعية .

---

(١) الهمذاني – نفس المصدر – ص١٥٢

(٢) الهمذاني (القاضي عبد الجبار) – اخبار القرامطة – ص١٤٨

(٣) زكار (سهيل) – اخبار القرامطة (الهامش ص١٤٨)

ولا شك ان تلك الهجمات الموجهة ضدهم ، ماكان لها ان تكون بمثل تلك القسوة لولا تعنت قادة القرامطة واظهارهم لاسرار دعوتهم المتطرفة . كما ان السلوك الشاذ لبعض المندسين في الحركة او المنحرفين عليها من رجالها ، كان يجلب على الحركة الوبال . لان خصومهم استطاعوا ان ينظموا هجومهم مستفيدين من تأييد السلطة العباسية ، وثقة العامة العمياء في الكتاب والفقهاء ، اولئك الذين ضخموا اخطاء خصومهم واقوالهم واظهروا مبادءهم واعمالهم كما ارادوا .

اننا نرى ان معظم آراء القرامطة حول طقوس العبادة كانت تنطلق ، بشكل عام ، من موقف عقلي تأويلي ، وهو موقف يختلف عن الموقف التسليمي السائد ، لا يأخذ بالتفسيرات المألوفة والعادات الموروثة . وهم لا يعتقدون ان في ذلك خروجا عن جوهر الشريعة ، بل تصحيحا لها من الفهم النصي التقليدي .

فاذا ماشذبنا آراءهم التي جاءت في كتب خصومهم من السب والوضع والتشنيع لوجدنا ان كثيرا من آرائهم ينطلق من مبدأ التأويل الذي عرف بأنه مبدأ المتكلمين من المعتزلة والفلاسفة العقليين . ولنستعرض بعض مواقفهم النقدية للعبادات حتى ندلل على ذلك :

- فهم يخاطبون كل فريق يتوجهون اليه بما يوافق مستواه العقلي . (١) .
- تفسيرهم للنبوة والمعجزات " ومذهبهم في النبوات قريب من مذهب الفلاسفة ، وهو ان النبي عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق بقوة التالي قوة قدسية صافية"(٢)

ويقول خسرو : " ولكنهم يقرون بمحمد (ص) وبرسالته " (٣) .

- لابد ان يكون الامام معصوما قائما بالحق يرجع اليه في تأويل الظواهر وحل الاشكال" فلا يتصور في زمان واحد امامان بل يستظهر الامام بالدعاة " (٤) .

بمعنى انه لا يمكن ان تكون سلطتان في دولة واحدة لان ذلك يعني ان احدهما غير شرعي .

- انكارهم القيامة ، وتأويلها بأنها رمز لخروج الامام (٥) .
- استباحة الخمر : هناك تناقض في الآراء حول هذه المسألة . فمعظم الكتاب يؤكدون تحليلهم الخمر ، ولكن خسرو يقول " واذا صلى احد فانه لا يمنع ، ولكنهم

---

(١) ا[illegible] الجوزى (عبد الرحمان) – اخبار القرامطة – ص ٢٦٣
[illegible] المصدر – ص ٢٦٣
(٣) خسرو (ناصر) – اخبار القرامطة – ص ١٩٥
(٤) ابن الجوزى . نفس المصدر – ص ٢٦٤
(٥) = = نفس المصدر ص ٢٦٤

انفسهم لا يصلون ، ويجيب السلاطين من يحدثهم من الرعية برقة وتواضع ، ولا يشربون مطلقا ." (١).

- رفض الطقوس القديمة : وقد تجلـــى ذلك في احتباز" الحجر" " والكسوة" ومهاجمة الحجاج ، ففي ذلك موقف فرضه على حد تعبير احد خصومهـــم " انتزاع الرغبة والرهبة" (٢)

ويتجلى العداء للقرامطة في تلك الكلمات المترعة بالحقد والاستعلاء والخوف مـــن " عظم ضـــررهم" ، التي عبر بها ابن الجوزي في وصفهم بانهم " قوم ضعفت عقولهم وقلت بصائرهم ، وغلبت عليهم البلادة والبله ، ولم يعرفوا شيئا من العلوم ، كأهل السواد والاكراد وجفاة الاعاجم وسفهاء الاحداث ." (٣).

من الطبيعي ان تنظر طبقة " اهل القلم " التي تدين بوضعها المتفوق بعطايـــا الحكام وهباتهم ، باستعلاء لحركة قوامها المستضعفون من عمال وفلاحين وحرفيين . وكان الغزالي ، رغم تأخره عن بدايات الحركة ، اكثر هؤلاء الخصوم انسجاما مـــع موقعه الطبقي ، فقد كان واعيا لطبيعة الصراع ، فسخر معظم كتاباته لخوض تلـــك المعركة الايديولوجية - السياسية. وكان كتابه " فضائح الباطنية " ، يمثل اهم ادبيات " اهل السنة" في الرد على الفكر الباطني . ففي حديثه عن الباطنيين بمن فيهم القرامطة ، يقول : " ان هذه الدعوة لم يفتتحها منتسب الى ملـــــة ولا معتقد لِنِحْلة معتضد بنبوة ، فان ساقنا ينقاد الى الانسلال من الديـــــن كانسلال الشعرة من العجين . ولكن تشاور جماعة من المجوس والمزدكية *، وشرذمة من الثنوية الملحدين ، وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين ، وضربوا سهام الرأي في استنباط تدبير يخفف عنهم ما نابهم من استيلاء اهـــل الدين ، وينفس عنهم كربة ما دهاهم من امر المسلمين حتى اخرسوا السنتهم عـــن النطق بما هو معتقدهم من انكار الصانـــع وتكذيب الرسل ، وجحد الحشر والنشر." (٤).

ويكشف الكتاب عن موقفهم الارستقراطي حينما يحاولون نفي النسب العلوي عن دعاة القرامطة ، باسلوب يثبتون من خلاله ان عراقة النسب شرط لازم في القيادة . وهـــذا

---

(١) خسرو - نفس المصدر - ص ١٩٧

(٢) ابن الجوزي - نفس المصدر - ص ٢٦٤

(٣) ابن الجوزي - نفس المصدر - ص ٢٦٦

* ظلت فكرة الربط بين القرمطية وبين الحركات المزدكية والمانوية واليهودية مستمرة حتى لدى بعض كتاب عصرنا . انظر مثلا كتاب : شريف (محمد بديع) - الصراع بين العرب والموالي - ص ١٢٢

(٤) الغزالي (ابو حامد) - فضائح الباطنية ص ١٨ ، (ذكره سامي العياش - ص ١٨٨)

الادعاء يدخل في اطار الحملة الدعائية التي خاضها خصوم القرامطة ، فاستخدموا فيها كل امكانياتهم . لكن تلك الحملة كانت تفيدنا في كشف الطبيعة الارستقراطية لهؤلاء الخصوم ، فلننظر الى مايقوله احدهم :" وانتحالهم اليه انتحال كاذب ، وليس لهم في ذلك برهان ، واهل الشرف ينكرون ذلك فانهم لم يجدوا لهم في الشرف اسماً مذكوراً ، ولاعرفوا لهم في كتاب المشجرة نسباً مشهوراً ..." (١).

كما تمثل كتابات ابن حزم الاندلسي ، في هذا المجال نموذجاً متميزاً من حيث المحتوى والاسلوب . اذ تتوارد في نصوصه اوصاف يغلب عليها الطابع الاخلاقي والادعيـــة الدينية ، بشكل يثير الانتباه . وقد ظهر ذلك الاسلوب ، خصوصاً ، في كتابـــه " الملل والنحــــل " كما ظهر في رسائله .

فبعد ان بين ، في احدى تلك الرسائل ، خطورة القرامطة على بلاد الاســـلام وتأثيرها السلبي في توسع الدولة العباسية ".. ولم يحج قط ، ولاغزا دار الحرب ، لا هو ولا من كان بعده ..." (٢) ، يذكر اخباراً معينة تتعلق بالقرامطة ، وهي تلك الاخبار التي تفنن اسلافه في ابرازها والمبالغة في وصفها . اما هو (ابن حزم) فانه يدخل اسلوب " اللعن " بين جملة واخرى ، ويخرج بتفسير غير علمي لســـبب انهيار دولة الخلافة :" .. وفي ايامه (المقتدر) غلب الباطنية لعنهم اللـــه ، على افريقية ، واخذ القرامطة ، لعنهم الله ، مكة ، وقلعوا الحجر الاسود وحملوه الى الاحساء ، واقام عندهم اثنى وعشرين عاماً كاملة ، ثم ردوه بقوة الله عز وجل ، فابتدأت دولة الخلافة والاسلام تضعف .." (٣).

تلك اهم خصائص الحملة السنية الرسمية على القرامطة ، ابراز للاخطاء والاعمال التي تؤثر في مشاعر جمهور المسلمين ، وتغاضي عن اعمالهم الاجتماعية والسياســـية ، بل تشويه لها ، وتبرير لسياسات الخلفاء ، واستعلاء على اتباع الحركة القرمطية ، تختلط فيها الحقيقة بالخيال ، والواقع بالانتحال .

بشكل عام ، كان ذلك احد الجوانب البارزة في الصراع الاجتماعي الذى دار بيـــن القرامطة والسلطة العباسية ، بين البنية الاجتماعية التحتية (المعارضة) وبيــــن البنية الاجتماعية الفوقية (السلطة المركزية الحاكمة) .

---

(١) اليماني (محمد بن مالك) - اخبار القرامطة - ص ٢١٤
(٢) ابن حزم - الرسائل - ص ١٦٥
(٣) ابن حزم - الرسائل - ص ١٦٦

وقد ركزنا ، في ذلك ، على استعراض الصراع الفكري بين القرامطة وائمة السنة وعلمائها كوجه بارز لجملة الصراعات . لا لشيء سوى ان الصراع الفكري كان يعبر عن ابعاد الصراع الطبقي الدائر في ساحة النزاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والايديولوجية. بمعنى آخر ، استطاعت الخصومة آنذاك ان تكون معبرة عن الواقع ، برز فيها طرفان متمايزان ، كل منهما يدافع عن مصالحه ، ويجند وسائله المتاحة ، جاهدا نفســـه في ابراز ذاته والتعبير عن اهدافه. واين نحن ، في عهد الحركات الاجتماعية ، من الصراع الشعوبي (النظري) ، الذي ضللت به الارستقراطيات المتصارعة جماهير العامة ، في وقت انشدت فيه طبقات العامة والوسطى ، بفئاتها المختلفة ، الى المبادىء الاجتماعية والسياسية المنادية بالمساواة والعدل والحق .

في تلك الفترة اخذ الفرز الطبقي يزداد تبلورا ، مصحوبا بأشكال اولية من الوعـــي تنمو بنمو العلاقات الاجتماعية ، وبالتغير في اسلوب الاستغلال الاقتصادي ، حيث اصبح الجباة وممثلوا السلطة اكثر التصاقا بالفلاحين والعمال والحرفيين ، ليس مـــن حيث الاشراف عليهم وتحقيق مصالحهم ، وانما بارهاقهم بالضرائب والتحايل فـــي الاستيلاء على ممتلكاتهم ومنتوج اعمالهم .

لقد وجدت القوى الاجتماعية الثورية ، آنذاك ، في الاعتقاد سبيلا للانتقاد، الاعتقاد الصحيح ، والانتقاد للسياسة والدين الرسميان . فكان بديل القرامطة جاهـــزا ، انه بديل يرفض كل ماهو علني ، اي كل الاشكال القائمة ، التي لم تفلح في حـــل المعضلة الاجتماعية ، وبدأ واضحا انها لا تمثل الاسلام (العقيدة) ولا المسلميـــن (المجتمـــع) .

فما هو ذلك البديل ، وكيف تجسد في مجال الممارسة العملية (المجال السياســـي والاجتماعي) ؟ وماهي الطرق المتبعة لتطبيق الاهداف القرمطية ؟ .

سؤال كبير ، تتطلب الاجابة عليه دراسة مطولة لمختلف الجوانب التي ميزت مســـيرة الحركة القرمطية ، بداية من علاقاتها الاولى بالاسماعيلية ، مرورا بحروبها ضد الدولة العباسية في جميع انحائها ، وانتهاءا بتأسيس دولتها في البحرين .

ولكننا سنقتصر في الاجابة ، على دراسة النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية التي سادت لدى قرامطة البحرين كنموذج متقدم للحركة ، وتتويج لنشاطها فـــي مختلف الاقطار الاخرى .

وان نقتصر على ذلك فلأن الدراسات التاريخية استطاعت ، الى حد ما ، ان تغطـــي الجوانب الاخرى المتعلقة باخبار القرامطة وفعالياتهم .

بمعنى آخر فان التاريخ الاجتماعي السياسي للقرامطة بدأ يحضى ،في العقود الاخيرة ،باهتمام يبلغ احيانا درجة الاتفاق ، وذلك بعد دراسات كل من : لويس والدباش وعارف وزكار وغيرهم .

ومن جهة اخرى ،فان الخوض في الدراسة الفلسفية لعقائد القرامطة وتتبعها في علاقتها بالفكر الباطني خصوصا ، والفكر العربي الاسلامي عموما ، قد يخرجنا عن الهدف الذى رسمناه في هذا البحث ،وهو الدراسة السوسيولوجية التي تجعل من العلاقات والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية موضوعها الاساسي .

جـ ـ النظـــام السياســـي :

كتب القرامطة على اعلامهم الآية القرآنية التالية :

" ونريد ان نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين "(١) .

لهذا الشعار دلالات يمكننا تلخيصها فيما يلي :

١ـ استلهام القرامطة للتراث ، بفهم عميق للدين الاسلامي ينبئ بفكرة الاتصال التاريخي .

٢ـ تبنيهم لمبادئ الاسلام الداعية الى حق المستضعفين .

٣ـ تركيزهم على فكرة الامام الهادي في الحكم المثالي .

٤ـ الدلالة على ان الثوار فقراء ، او على الاقل هم محرضوا الفقراء على الثورة ضد الاغنياء .

وكان ذلك الشعار يترجم في اقوال زعمائهم ، حيث يقول الحسين الاهوازي لمّا خرج يدعو الناس في جنوب العراق ، ولقي حمدان بسواد الكوفة ، ومعه ثور ينقل عليه (فتنا [illegible]) ، " ولمّا قال للحسين . ما تريد من القرية التي سألتني عنها ؟ قال له : رفع اليّ جراب فيه علم وسر من اسرار الله ، وأمرت ان اشفي هذه القرية واغني اهلها واستنقذهم ، واملكهم املاك اصحابهم "(٢) .

لقد اقترن اسلوب التوق الى البديل الاجتماعي بتهيئة الوسائل العملية لتحقيقه وتعبئة القوى البشرية عسكريا واقتصاديا لتواجه حماة " دولة الجور " وقد مكّن ذلك الاسلوب القرامطة من بناء دولتهم في البحرين ، لكنهم لم يكتفوا بهذا الانجاز بل ظلوا يجيشون الثوار لتقويض الخلافة العباسية في كل الانحاء . وليس صحيحا ان الفعاليات العسكرية للقرامطة هي مجرد اختبار لرد الدولة العباسية والهائها عمّا يجري في المغرب (٣) . وربّما تفطن القرامطة الى ان البديل الاجتماعي لابدّ من ان يقترن عندهم ببديل سياسي ، بديل لنظام السلطة المفردة والتوارث العائلي العباسي . فقد استطاع قرامطة البحرين بناء مجتمع محلي ذو كيان سياسي مستقل ، يتخذ شكل الدولة ذات السيادة وذات النظام

---

١) القرآن الكريم ـ سورة القصص ـ آية /٥/ (وهي مذكورة في كل المصادر المعتمدة)
٢) المقريزي ـ اخبار القرامطة ص٣٢٥
٣) العياشي (سامي) ـ الاسماعيليون في المرحلة القرمطية ص٢١٦

المعز ، وأنشأوا عاصمتهم بانشاء " دار الهجرة " سنة ٢٧٧ هـ ، وهي تسمية لها دلالة دينية وسياسية[1] .

ولمعرفة النظام الذى ساد في دولة البحرين لدينا مصدران اساسيان هما " سفرنامة " لناصر خسرو و " صورة الارض"* لابن حوقل وهما رحالتان زارا البحرين .

يقول ابو سعيد الجنابي ، احد مؤسسي الدولة " يدعى الملك ويحافظ عليه ستة من ابنائي يحكمون الناس بالعدل والقسطاس ، ولا يختلفون فيما بينهم ، حتى اعود "[2] ولعل البُنُوّة هنا لا تأخذ معناها " الدموى " وانما لها علاقة بـ " التنشي' " .

ويقول ابن الاثير : " وعقد القرامطة بعد يوسف لستة نفر من اولادهم على وجه الشركة فيما بينهم لا يستبد احد منهم بشيء دون الآخر "[3] .

ويصف خسرو طريقة الحكم الجماعي فيقول : " ولهم قصر . . به تخت يجلسون هم الستة عليه ويصدروا اوامرهم بالاتفاق ، وكذلك يحكمون ، ولهم ستة وزراء "[4] . والراجح ان هؤلاء الحكام لم يضفوا على انفسهم بهارج السلطة فلم يحجبوا عنهم الرعية[5] كما فعل العباسيون . بل " يجيب السلاطين من يحدثهم من الرعية برقة وتواضع "[6] .

ولا شك ان ذلك التواضع كانت له نتائج هامة في جعل دولة البحرين تمثل (جماعة متضامنة ملتفة حول قيادتها ، تواجه الخطر الخارجي (العباسي) عن موقع معصّن جغرافيا وتماسك بشريا)[7] .

يقول برنارد لويس " فدولة القرامطة عنده (ابن حوقل) كانت من نوع الجمهورية الاوليغارسية (حكم الاقلية) . ولم يكن حاكمها مستبدا بأى حال ، بل هو رئيس جماعة متساوية ، يساوونه في الحكم مجلس مؤلف من اتباعه المقربين ، وممن تربطهم به روابط

---

١) غالب (مصطفى) ـ اعلام الاسماعيلية . ص ٤٩
* لم نتمكن من الاطلاع على هذا المصدر .
٢) خسرو (ناصر) ـ في (اخبار القرامطة) ص ١٩٦
٣) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ جـ ٧ ص ٤٨
٤) خسرو (ناصر) نفس المصدر ص ١٩٦
٥) الهمذاني (القاضي عبد الجبار) ـ نفس المصدر ص ١٥٦
٦) خسرو (ناصر) نفس المصدر ص ١٩٧
٧) العياشي (سامي) ـ الاسماعيليون في المرحلة القرمطية ـ ص ٩٦

النسب والتنشي" ، ويعرف بالعقدانية (١) . والمعروف ان مفاهيم " القرابة " و " النسب " التي ظهرت في نصوص القرامطة وما يتعلق بها ، تختلف عن المضامين السائدة آنذاك . فهي لا تستند بالضرورة الى معنى القرابة الدموية ، لان التنشي" يعني التدريب ، فتصبح التربية العقائدية بديلا للنسب وتحل محله . وقد قام خليل احمد خليل بدراسة تلك المسألة في مقدمته الهامة للتحقيق الجديد لكتاب برنارد لويس حول القرامطة ، وكان لويس قد اشار الى ذلك عندما لخص كلام ناصر خسروا فقال " ولما توفي ابو سعيد انتقلت الحكومة الى مجلس شورى مؤلف من ستة من تلاميذه حكموا بالعدل والانصاف (٢) . "

د ـ النظام الاقتصادي :

ان العبارة الشهيرة التي اطلقها قائد القرامطة " وامرت ان اشفي هذه القرية واغني اهلها واستنقذهم ، واملكهم املاك اصحابها " ، تنطوي على بعد اقتصادي في اجراءات القرامطة في البحرين . فقد انصبت مجهوداتهم على تنظيم اقتصاد الدولة وتقويته . وكانت لهم تجربة رائدة في تنظيم الملكية وتوزيع الثروة . وينطوي الاجراء القاضي بالتوزيع العادل للثروة (اباحة المال ، بالمفهوم الذي شاع عند خصومهم) ، على بعد اجتماعي خطير استطاعوا من خلاله ان يحولوا الملكيات الخاصة الى ملكية عامة . واتبعت حكومة عبدان من اجل تطبيق ذلك ، اسلوبا تدريجيا يتناسب مع الظروف التي تمر بها ، فاتبع القرامطة الخطوات المتتالية الآتية في جمع الاموال من رعاياها :

١ ـ الفطرة : ان يؤدي كل مواطن درهما عن نفسه

٢ ـ الهجرة : وهي دينار على كل شخص بالغ

---

١) لويس (برنارد) ـ اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية ـ ص ١٥٩

٢) لويس (برنارد) ـ نفس المرجع ـ ص ١٦٠

٣ـ البلغة : وهو سبعة دنانير
٤ـ الخمس : مما يمتلكون وما يكسبون ، فهو ضريبة تجبى على الملكية العين وعلى اجرة العمل في نفس الوقت . فكانت المرأة تخرج خمس ما تغزل والرجل خمس ما يكسب .
٥ـ الالفة : وتقتضي جمع اموال الشعب في موضع واحد ، وان يكونوا فيه اسوة واحدة ، فيصبح ملكية عامة[(١)]

من خلال تسلسل تلك الانظمة في تحويل الملكية الخاصة الى ملكية عامة ، يتبين لنا مدى اهتمام القادة القرامطة بذلك الاجراء وقناعتهم بأنه الطريق الوحيد لتحقيق العدل والمساواة بين الناس ، فهم بذلك يقضون على اسباب الصراع الحقيقي الذي لا ينتأ يدور بين الاغنياء والفقراء ، فقد "عرفهم (حمدان) انه لا حاجة بهم الى اموال تكون معهم ، لان الارض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم . وطالبهم بشراء السلاح واعداده[(٢)] " ، ويبدو ان القرامطة استطاعوا الى حد بعيد خلق علاقة وظيفية متوازنة بين الريف والمدينة . فنحن نختلف مع الدوري[(٣)] في قولنا بأن الدولة ، القرمطية خففت من وطأة ضغط الريف العراقي على مدينتي بغداد والبصرة ، ولم يكن القرامطة مجرد عصابات وموجات سكانية تهجم على مدن السواد فتكيل ضربات للاقتصاد ، بمعنى آخر ، فان القرامطة استطاعوا بناء مجتمع مستقر حول مدينة (الاحساء) ، وبالتالي فان الاجراءات الاقتصادية التي منحتها دولتهم للفلاحين وجماعات البدو المتنقلة ، ساعدت على استقرار عدد كبير منهم ، باستثناء تلك الفرق العسكرية التي تنظمها الدولة . ولا شك ان ذلك قد خفف من الهجرة الى الشمال ، بل اننا نعتقد ان المجتمع المستقر الجديد جلب اليه جموعا غفيرة من الحرفيين الذين وجدوا في عاصمة البحرين تأمينا لمستقبلهم . يقول ناصر خسرو " وكل غريب ينزل في هذه المدينة وله صناعة ، يعطى ما يكفيه

---

١) المقريزي ـ نفس المصدر) ص ٣٢٩ وما يليها
٢) المقريزي ـ نفس المصدر ـ ص ٣٣١
٣) الدوري (عبد العزيز) ـ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ـ ص ١٣
فهو يقول : " وكانت حركة "قرامطة البحرين مثلا رائعا في القرن الرابع لضغط البادية على العراق "

من المال حتى يشتري ما يلزم صناعته من عدد وآلات ، ويرد الى الحكام ما أخذ حين يشاء(١) . اما تلك العلاقة المتوازنة بين الريف والمدينة فقد تمثلت في توكيل الحكومة لمختار من ثقاتها في كل قرية – لجمع اموال اهل قريته من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره .

ولم تكن مهمة ممثل القرية تنطوي على طابع الاستغلال الفاحش ، كما كان الامر لدى دهاقنة العباسيين في بلاد فارس مثلا ، بل انه كان يكسو عاريهم وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع فقيرا بينهم ولا محتاجا ولا ضعيفا(٢) . ولا شك ان هذا الاسلوب في جمع الضرائب ، حيث تمثل فيه القرية وحدة انتاجية ، وتكون فيه التبعية منظمة ومحكومة بالمصلحة المتبادلة ، يمثل ميزة اساسية من ميزات اسلوب الانتاج الاسيوي * الذي يختلف اختلافا جوهريا عن الاقطاع الاوروبي في العصور الوسطى .

و" للعمل " في دولة القرامطة قيمة اقتصادية راقية . فعندما عملت الدولة على الغاء الفوارق الطبقية فانها لم تترك مقياسا قيميا يفضل به المواطن غير مقياس الجهد المبذول في العمل والدفاع . اما الاموال فانها تتجمع في خزائن الدولة ، وتتصرف في تدبير الشؤون وتوفير الامن والغذاء بحساب . كما كانت الدولة تطالب رعاياها بشراء السلاح واعداده كي يدافعوا عن دولتهم

وحول الاهمية التي اكتسبها العمل يصف المقريزي ذلك بقوله : واخذ كل رجل منهم بالانكماش في صناعته والكسب بجهده ، ليكون له الفضل في رتبته ، وجمعت المرأة كسبها من مغزلها والصبي اجرة نظارته للطير ، واتوه به ، فلم يتملك احد منهم الا سيفه وسلاحه(٣)

---

١) خسرو (ناصر) – نفس المصدر – ص ١٦٦

٢) المقريزي : – نفس المصدر ص ٢٣١

٣) = : – نفس المصدر – ص ٢٣٥

ورغم الاسلوب العسكري الذي استخدمه القرامطة في مواجهة العباسيين فانهم لم ينشغلوا عن الاهتمام بالارض، فاهتموا بتقدم الزراعة، وبذلوا جهودهم من اجل رفع انتاجيتها، وتقدم (ابو سعيد) في زراعة الارض وعمارتها (١)، وسخرت الدولة في الاعمال الزراعية جموعا كبيرة من العبيد الزنوج الذين كانوا يتبعون لها تبعية مباشرة ويقومون بتنفيذ خدماتها. ولا شك ان ذلك النوع من التبعية كان غير مألوف. يقول خسرو: "وكان لهم (حكام القرامطة) ثلاثون الف عبد زنجي وحبشي يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين". واذا تخرب بيت او طاحون احد الملاك، ولم تكن لديه القدرة على الاصلاح، امروا جماعة من عبيدهم بأن يذهبوا اليه ويصلحوا المنزل او الطاحون، ولا يطلبون من المالك شيئا. وفي الحسا مطاحن مملوكة للسلطان، تطحن الحبوب للرعية مجانا ويدفع فيها السلطان نفقات اصلاحها واجور الطحانين (٢)".

هكذا فان قرامطة البحرين استطاعوا ان يطبقوا مفهوما للعدالة الاجتماعية من خلال اعطائهم للدولة دورا مميزا، يوكل لها مهمة الاشراف المباشر على قطاعات الاقتصاد والدفاع والتنشئة الاجتماعية. كما كانت اجراءاتهم في تلك المجالات تنسجم مع طبيعة المجتمع الناشيء الذي تميزه الزراعة والحرفة.

بل ان دقة التنظيم والقدرة على استشفاف التطور عملت على ان تكون التجربة القرمطية رائدة في بنائها السياسي والاقتصادي، وفي تلك الزيادة يكمن الاشكال المثار حول ما عبر عنه بعض الباحثين ب (اسبقية التجربة القرمطية على عصرها).

ومهما تكن الاجتهادات، فان الحركة القرمطية، على ما نعتقد، استطاعت في مرحلة بناء دولتها ان تهدد مصالح الاقطاع في جنوبي العراق، كما استطاعت ان تهدد دور بغداد الاقتصادي وبعضا آخر من مدن الحجاز، وفي ذلك تهديد واضح لتجارة الدولة العباسية.

لقد إبتدأوا بتحريض الفلاحين ضد ملاك الاراضي المستغلين، واغرائهم الحرفيين للمجيء الى دولتهم. كما تمثل التهديد في خطتهم الايديولوجية (التشيع الثوري) والاقتصادية (الملكية المشتركة) الموجهة ضد الدولة العباسية، وما يمثلها في النصف الثاني من القرن الثالث والقرن الرابع، من اقطاع عسكري واداري.

---

١) المقريزي – نفس المصدر ص ٣٣٥

٢) خسرو – نفس المصدر – ص ١٩٦

وكان تمرد الفلاحين ظاهرا من خلال تقاعسهم عن العمل في اراضي الاقطاعيين، ورواية ابن سنان ذات دلالة واضحة في التعبير على ذلك . حيث ان الفلاحين اشتغلوا عن اعمالهم الزراعية "بما رسم لهم من الصلوات (في البداية) . وكان ليهيصم/ في تلك الناحية / ضياع فرأى تقصير اهل القرية عن عمارتها ، فسأل عن ذلك ، فأخبر بخبر القرمطي فأخذه وحبسه (١) "، وفي ذلك يقول لويس" وقد لا نكون مغالين لما نعرف من موقف القرامطة من الصلاة . اذا اعتبرنا الخمسين صلاة في اليوم عرقلة مقصودة لساعات العمل (٢) " .

ورغم تركيز القرامطة على الوسط الفلاحي ، فانهم ركزوا الاتصال بأهل الصناعات والحرف ، فأثرت مبادئهم في الطبقات العاملة تأثيرا قويا . ومثلما كان الفلاحون يواجهون تسلط ملاك الاقطاعات ، كان اهل الصناعات والحرف يعانون من احتكار التجار ومضاربة الصيارفة . فقد كان للتجار شأن كبير في تلك المرحلة عند ما بسطوا ايديهم على الثروة وتلاعبوا بالاموال، وجابوا البحار. ولا بدّ ان ذلك شكل عبئا كبيرا على الاقتصاد الانتاجي لدى الصناع والحرفيين مما شجعهم على تقبل الدعوة القرمطية والانضمام اليها .

وفرضت دولة القرامطة قيودا على الملكية الكبيرة ، واشرفت اشرافا مباشرا على القطاعات الانتاجية ، فزاد ذلك في توسيع مواردها .

وهذه اهم عائداتهم من الضرائب والغنائم كما اوردها دي خويه (٣):

١ـ ضريبة عقارات البحرين من ثمار الحقول والبساتين
٢ـ المكوس الثابتة على سواد الكوفة والبصرة وعلى طريق الحج
٣ـ رسوم مرور السفن المبحرة في الخليج
٤ـ الضرائب السنوية من عمان ومن الحجاج
٥ـ الغنائم النفيسة
٦ـ عائدات الجزية المفروضة على البدو
٧ـ صيد اللؤلؤ .

---

١) بن سنان (ثابت) نفس المصدر ــ ص ٨
٢) لويس (برنارد) ــ نفس المرجع × ص ١٥٠
٣) دي خويه (ميكائيل يان) ــ نفس المرجع ــ ص ١٢٥

التركيب الاجتماعي :

يقول ابن الجوزي " ونحن نرى اتباعهم خلقا كثيرا ؟ فالجواب : ان اتباعهم اصناف .

١- فمنهم قوم ضعفت عقولهم ، وقلت بصائرهم وغلبت عليهم البلادة ، والبله ، ولم يعرفوا شيئا من العلوم ، كأهل السواد والاكراد وجفاة الاعاجم وسفهاء الاحداث .

٢- ومن اتباعهم طائفة انقطعت دولة اسلافهم بدولة الاسلام كأبناء الاكاسرة والدهاقين ، واولاد المجوس ، فهؤلاء موتورون قد استكن الحقد صدورهم .

٣- ومن اتباعهم قوم لهم تطلع الى التسلط والاستيلاء ، ولكن الزمان لا يساعدهم ، فاذا رأوا طريق الظفر بمقاصدهم سارعوا .

٤- ومن اتباعهم قوم جبلوا على حب التميز عن العوام ، فزعموا انهم يطلبون الحقائق وان اكثر الخلق كالبهائم .

٥- ومن اتباعهم الملحدة والفلاسفة والثنوية الذين اعتقدوا الشرائع نواميس مؤلفة والمعجزات مخاريق مزخرفة

٦- ومن اتباعهم قوم مالوا الى عاجل اللذات ولم يكن لهم علم ولا دين " . (١)

ان هذا التصنيف الذي يستند فيه ابن الجوزي على تصنيف الغزالي في " فضائح الباطنية " يفتقر الى موقف طبقي وايديولوجي واضح . لانه لا يتأنف عن ذكر الشتم والتحقير من ناحية ، ثم انه جاء في معرض الخصومة الساخنة بين الفكر الاسماعيلي الباطني ، وبين الفكر السني الرسمي ، من ناحية اخرى

وهو تصنيف لا يستند الى الاصول الاجتماعية المرتبطة بالموقع الانتاجي ، لانه تصنيف ارستقراطي متحيز في اطار ردة الفعل التي تركز على الوصف الاخلاقي والنفسي ، وليس في اطار الدراسة المتأنية المعتمدة على الواقع كما هو .

وقد تأثر بعض كتاب عصرنا بالاتجاه المناوئ للقرامطة . فأمينة البيطار في كتابها " تاريخ العصر العباسي " تقدم لنا نص ابن الجوزي حول الفئات التي دخلت في الدعوة القرمطية ، وكأنه شيء لا يخضع للتجريح ، ثم انها لا تقابله بنصوص اخرى تستند من قريب او من بعيد على الواقع وتدل على حقيقة الانتماء الاجتماعي . وليس التصنيف

---

(١) ابن الجوزي (عبد الرحمن) ــ نفس المصدر ص ٢٦٦/٢٦٧

القائم على المستوى التعليمي او التقويم الاخلاقي الذي يعتبر (النوايا) غير المعلنة اهدافا يتحدد على اساسها ذلك الانتماء . كما يظهر ذلك التأثر من خلال استعراضها لاخبار القرامطة بشكل يوحي للقارئ ان حركتهم كانت حركة المغرضين وان قياداتها لاعلاقة لها بجماهير العامة وانما كانت تستغلها استغلالا . " سار القرامطة في تعميق نفوذهم في المناطق التابعة لهم على سياسة فرق تسد ، فاستغلوا الاوضاع الاجتماعية ، واعتمدوا على الطبقة الفقيرة الحاقدة ، واثاروها ضدّ الاغنياء " (١)

ولكننا نرى ان المادة التاريخية المتوفرة ، على قلتها ، اصبحت قادرة على مدنا بصورة واضحة تمثل التركيب الاجتماعي للقرامطة .

فالثابت ان اكثر اهل البوادي وقرى السواد كانوا يشكلون العمود الفقري في تنظيمات القرامطة ، بل ان ما يثبت التواصل بين الاسماعلية والقرامطة استمرار اعتماد الاخيرين على سكان القرى والبوادي (٢) ولكن القرامطة ضموا الى صفوفهم اهل الحرف ، وضاعة منذ ما تمكنوا من تأسيس دولتهم .

وقد انتشر القرامطة بكثرة في سواد الكوفة ، فكان معظم المنتمين من العرب ، ولكنهم لم يعيروا انتباها للتفريق الاقوامي الذي كانت تثيره الحركة الشعوبية . يقول التيزيني " إن تلك الانتفاضات عرت زيف دعاة " الشعوبية " ودعاة " العصبية العروبية " على حد سواء - فهي بتركيبها الطبقي ومنحدراتها القومية (عرب ، فرس ، اتراك) الخ) . القت ضوءا ساطعا على حقيقة خطيرة . . . وفي هذا الاطار يمكن اعتبار تلك الحركات ردا اجتماعيا وقوميا وايديولوجيا على ذينك الاتجاهين ، ردا اغناء آفاق الطريق - الحل " (٣)

وهكذا فان تنوع الاصول الاجتماعية (الاقوامية والقبلية) للمنضوين في الحركة القرمطية تؤكد طبيعتها الاجتماعية الصرفة . فمن الجدير بنا ان ننتبه بعد دراستنا للقرامطة الى انهم لم يضيعوا جهودهم في خوض الصراعات الشعوبية التي بدأت آنذاك تفقد بعدها (المساواتي) حينما تحولت الى حركة فوقية مقصورة على اهتمام الكتاب واهل السلطان . وقد بحثنا ذلك في دراستنا لظاهرة الشعوبية في الفصل الثاني .

---

١) البيطار (امينة) - تاريخ العصر العباسي - ص ٢٥٤

٢) العياشي (سامي) - الاسماعيليون . . ص ٢١٠

٣) تيزيني (طيب) - من التراث الى الثورة ط ٣ - ص ٢٢٣

لقد كانت الحالة التي وصلت اليها جماهير العامة تؤكد ذلك . وقد وصف مسكويه ذلك وصفا دقيقا ، فهم " بين هارب وجال ، وبين مظلوم صابر لا ينصف ، وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شره ويوافقه " (١)

اما الطبقات الاقطاعية والتجارية فكانت تزداد ثراء وتسلطا . فقد اتسعت الهوة بين الطبقات وبلغ التناقض الاجتماعي مداه ، فوجدت الدعوة القرمطية تربة صالحة بين جمهرة الفلاحين وعمال الارض . ولم يكن العمال والحرفيون في المدن احسن حالا من سكان الريف . فقد وقعوا ايضا في دائرة الاستغلال ، وذلك لوفرة اليد العاملة نتيجة هجرة المزارعين من المدن . وكانت طبقة العمال في المدن تتكون من الاحرار والعبيد ، كما هو الشأن بالنسبة للزراع في القرى . واولئك هم الذين وصفهم ابن الجوزي والغزالي وغيرهم بالجهال تحقيرا لشأنهم . وكان الموالي يشكلون جزءا هاما من تلك الطبقة (العامة) وخاصة في مجال الحرفة . (٢)

ان حركة القرامطة استطاعت ان تضم في صفوفها كل الفقراء والمضطهدين اقتصاديا وسياسيا وقوميا ، ممّن لحقهم الضرر من اجراءات الاتراك المتغطرسين . فقد اجتمعت العناصر التي عاشت ظروفا سيئة واحدة فشكلوا طبقة اجتماعية مغلوبة على امرها في أواخر القرن الثالث الهجري استقطبتها الدعوة القرمطية (٣)

وبالرغم من الاشارات المبالغ فيها التي تجعل من " الاعراب " و " الرعاع " بالتعبير المعاصر ، عمودا فقريا لحركة القرامطة ، فان اعتمادهم على الفلاحين في قرى السواد لا يقل أهمية من اعتمادهم على القبائل البدوية . يقول احد المؤرخين ان قائد الخليفة عندما هاجم القرامطة واخمد احدى ثوراتهم " توقف عن التنكيل بالثوار خوفا على السواد أن يخرب اذ كانوا فلاحيه وعماله " (٤)

---

١) مسكويه ـ تجارب الامم ج ٢ ، ص ٩٨
٢) العيلش (سامي ـ الاسماعيليون في المرحلة القرمطية ـ ص ١١٨
٣) إسماعيل (محمود) ـ الحركات السرية في الاسلام ـ ص ١١٥
٤) الدوري (عبد العزيز) ـ تاريخ العراق الاقتصادي ـ ص ٧٢ .

ورغم صعوبة التمييز ، فاننا نعتقد ان الاعراب مثّلوا الجناح العسكرى للدولة القرمطية مقابل جنود العباسيين (الترك والديلم) . وذلك لان الاعراب كانوا اكثر خبرة بالمنطقة من غيرهم ، ولانهم كانوا اكثر جرأة في الدفاع ، واخيرا لضعف تجربتهم في الاعمال الزراعية والتجارية والحرفية .

كما مثلت بقية العناصر جناحها الاقتصادى ـ الزراعي ـ الحرفي .

وهكذا يبطل ايضا ذلك الرأى الذى ساد لفترة طويلة بين اوساط الكتاب الذين يمثلون السلطة العباسية . مؤدى ذلك ان الحركة القرمطية حركة فارسية تهدف الى ارجاع ملك الفرس . (١) ولم يجد مروجوا ذلك الرأى الذين استفادوا من عواطف العامة العمياء ، تبريرا لتعدد العناصر المنضمة الى القرامطة ، وتنوع اصولها الاجتماعية ، بل ان الارستقراطية الفارسية نفسها وقفت موقفا مناوئا للحركة القرمطية . فهل يبقى دليل على صحة ذلك الرأى ؟ .

ولعل القاء نظرة تفصيلية على الاصول المهنية لدعاة الاسماعيليين ، والقرامطة بشكل اكثر ، تبين لنا الخلفية الحقيقية التي تكمن وراء الاختيارات الاجتماعية ، والاقتصادية لدولة القرامطة .

فمعظم هؤلاء القادة كانوا حرفيين او عمالا في مجال الزراعة ، والجدول التالي يبين ذلك .

اسماء الدعاة	الحرفة	المصدر
الحسين الاهوازى (اول داعية اسماعيلي بالكوفة	عامل يظفر ورق النخل وناطور في حراسة البساتين	الطبرى ومعظم المصادر والمراجع
حمدان قرمط	مكارى يحمل على ثور (حمال)	المقريزى ص٣ ، ابن سنان ص٧ { اخبار القرامطة
مهروية بن زكروية	ناظر نخل	المقريزى ص ٣٣٣
الداعي في قرية زابوفه	معلم صبيان	صباح السخيلي ـ الاصناف ص.
ابو سعيد الجنابي	بائع خبز	المقريزى ٣٣٤ ، ابن سنان ١٣ { دى خويه ١٩
ابو طاهر سليمان	قائد سياسي وعسكري	ـ ـ
ابو القاسم الصناديقي باليمن	نجار	المقريزى ص ٣٤٠
دعاة آخرون	بين كيال وحداد وصائغ	صباح السخيلي ـ ص٤٨

(١) الدورى (عبد العزيز) ـ تاريخ العراق الاقتصادى ص ٧٣

حينما نعود الى مختلف مصادرنا نلاحظ اجماعا على حقيقة ان القرامطة حافظوا على نظام الرقيق في مجتمعهم وجعلوا منهم اداة رئيسية للانتاج . فمجلس الدولة الذى تعرضنا له بالذكر يمتلك اعدادا هائلة من العبيد المستثمرين للعمل في مؤسسات الدولة كالزراعة والدفاع . وتلك الظاهرة تجعل من ملكية العبيد ملكية جماعية تختلف عن اشكال التبعية السائدة بشكل او بآخر .

ولا شك ان ذلك كان يمثل ثغرة في النظام الاجتماعي القرمطي الذي حرص من خلال اقوال قادته على تحقيق العدل والمساواة . اما الاحرار فيقتسمون موارد الدولة ويتمتعون ببعض الملكيات الصغيرة (١) ، بينما لا يمتلك الرقيق غير السلاح .

واذا وجدنا في التجربة القرمطية استمرارا لنظام الرق ، فاننا بالمقابل لا نجد البتة استمرارا للظواهر المتعلقة به . تلك الظواهر التي تدل على التفكك الاجتماعي والانحلال الاخلاقي اللذان يصاحبان الانحلال الاقتصادي واستفحال الترف في طبقات الخاصة . فقد استمرت ظواهر الجواري " و " الغلمان " و " الخدم " وغيرها ، في مركز الخلافة العباسية وفي قصور الاغنياء ، بينما لم تتضمن اخبار القرامطة ونظمهم شيئا من ذلك . وثبوت ذلك يدل في حقيقة الامر ، على انسجام دولة البحرين مع المبادئ الثورية التي طرحتها ، ضد مظاهر الترف والمجون التي ميزت حياة الدولة المركزية . كما اعطى القرامطة اهمية لدور المرأة في المجتمع ، فهم على الاقل عرفوا ان المدخل لتحريرها يكمن في حثها على العمل ، فأوجبوا عليها ما اوجبوه على الرجل في صعيد الانتاج . وتظهر لنا تلك الاهمية من خلال عدم اقتصار دعاتهم في التوجه الى الرجال ، بل انهم حرصوا على ان تشترك المرأة في التنظيم والحركة . ورأي العياش (٢) ، باعتقادنا ، قريب من الصحة عندما ارجع عملية اختلاء الدعاة بنساء الملتزمين الجدد ، الى ضرورة السرية التي يتطلبها العمل التنظيمي وفي ذلك التسويغ المعقول على دعوات التشهير التي تسهب في اعتبار ان الخلوة بالمرأة تعني الخلوة الجنسية .

---

١) زكار (سهيل) اخبار القرامطة ـ المقدمة ـ ص ٣٠

٢) العياش (سامي) الاسماعيليون في المرحلة القرمطية ـ ص ٢٤٦

و ـ ظاهرة التنظيم في التجربة القرمطية :

فضلا عن التنظيم العقائدي السري عند القرامطة ، فان لهم تنظيما آخر هو التنظيم الحرفي ، وهو علني . الاول موجود على مستوى الدعوة العقائدية والسياسية ، ويشمل الدعاة والقادة . اما الثاني فهو موجود على المستوى الشعبي ، وبالخصوص بين الوحدات الانتاجية

وللتنظيم السري فلسفة وتصورات بعيدة لا تكشف الا لمن ارتقى في مراتب المسؤولية والعرفان . ويستمد هذا التنظيم وجوده من التجربة الاسماعيلية ، بل انه يمثل امتدادا لهـا .

وتختلف اساليب التوجيه الى الناس عندهم باختلاف مستويات التكوين الثقافي والسياسي لدى الافراد المستجيبين . يذكر الحامدي في "كنز الولد" ان المستجيب يرتقي في المرتبة اذا كان ممّن " انتعشت صورته ، واستنارت بصيرته ، واقبل على العلم والعمل " (١) فاذا بلغ مرتبة يخلفه فيها من يتوبعنه ، وتصنف الاسماعيلية (٢) ، وكذلك القرامطة ، تلك المراتب في سلم متراتب كما يلي :

١ ـ المستجيب . ٢ ـ المستبصر ـ ٣ ـ المجتهد ـ ٤ ـ اللاحق ـ ٥ ـ الحجة ٦ ـ الامام ـ ٧ ـ النفس الكلية .

ان التدرج في هرم الدعوة هو تدرج في المسؤولية العملية بالتوازي مع التدرج في المستوى المعرفي ، ويوزع الدعاة في مجموعات يعمل كل منها في رقعة جغرافية محددة (الجزيرة)

ويمثل الامام القائد الروحي للحركة . وهو مرجعها في شتى الامور العقائدية والسياسية ، ولكن قرامطة البحرين كانوا اقل ارتباطا بالامام المستور ، بسبب العوائق السياسية والجغرافية ، الا انهم كانوا يلتزمون بالحد الادنى ، بقرارات الامام الاسماعيلي الفاطمي في المغرب ، وذلك عندما بعث الى ابي طاهر مهددا متوعدا طالبا منه ارجاع الحجر الاسود الى مكة .

---

١) العياش (سامي) نفس المرجع ـ ص ٢٠٣
٢) العياشي (سامي) ـ نفس المرجع ـ ص ٢٠٤

- عندما تقلد حمدان امر الدعوة واستقل بها، جعل مراتبها سبعا، لكل منها بلاغها حسب البناء الهرمي التنظيمي، خلافا للاسماعيلية الذين جعلوا مراتب الدعوة تسعا. فالبلاغ الاول موجه للعامة، والثاني لمن يليهم في المرتبة، والثالث لمن دخل في المذهب منذ سنة، وهكذا دواليك حتى يصل "المستجيب" الى البلاغ السابع (١) وهو الذي يتضمن اسرار المذهب وحقائقه الاساسية.

وكانت الصلة بين الدعاة في الاقاليم وطيدة ومحكمة. ويعزى الى حمدان انه استخدم الحمام الزاجل في تبادل الرسائل مع "النقباء" ولكن حمدان حرص على ان يكون معظم النقباء من اقاربه واصهاره (٢).

وتنطوي تسميتهم لاحدى المراتب بـ "المكاسر" (٣) على معنى المنازلة التي تتطلب من القائم على تلك المرتبة ان يكون قادرا على مواجهة الخصوم ومحاجتهم وتفنيد آرائهم. وبالتالي، التأثير على العامة واقناعها بأنه لا مناص الا بالدعوة الى "المهدي المنتظر" الذي يدعو اليه.

ويرى محمود اسماعيل (٤) ان مؤرخي السنة، في معرض تشويههم لمبادئ القرامطة اضافوا بعض المراحل خلال استعراضهم لمراحل العمل التنظيمي الذي يكلف به الداعي في كسب الاتباع. وتلك المراحل هي: التفرس، الموانسة، التشكيك، التعليق، الربط، التدليس، الخلع، السلخ، والتلبيس.

فهو يرى ان حالتي (التدليس والتلبيس) هما من نسج خيال الخصوم، كما يدحض زعمهم القائل بأن (الخلع) يعني توقف التابع عن التكاليف الشرعية، والواقع انه يعني توقفه عن مباشرة تعاليم مذهبه السابق بعد اعلانه الدخول في الدعوة.

اما (التشكيك) فلا ينصب على جوهر الاسلام، وانما التشكيك في مذهب الدولة والخلفاء.

وتدخل تلك المراحل في اطار "التنشئة" فالابوة الروحية للدعاة الكبار، ظاهرة ملموسة في الحياة التنظيمية، ولكن تلك الابوة لا تقوم على العلاقة الدموية، بل على التعليم.

---

١) متز (آدم) — الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ج ٢، ص ٧٠
٢) اسماعيل (محمود) الحركات السرية في الاسلام — ص ١٢٦
٣) اسماعيل (محمود) — نفس المرجع — ص ١٢٧
٤) اسماعيل (محمود) — نفس المرجع — ص ١٢٩

وقد اهتمت الدولة القرمطية بتنشئة الصبيان ورعايتهم وتعليمهم مبادئ الدعوة وفنون القتال كما كانت تربي نفوسهم وعقولهم واجسامهم على تحمل السوء ولهيبه ، ويراعون في ذلك مراحل النمو التي يمر بها تلامذتهم .

اما على المستوى الشعبي فان التنظيم اخذ ابعادا علنية لان اساس التنظيم في ذلك المستوى كان حرفيا ، تفرضه علاقات الانتاج ، وطبيعة التجمعات السكانية . فقد عملت طبيعة العمل بمهنة واحدة على تماسك العمال وترابطهم ، وتكونت لديهم تنظيمات تشبه النقابات في عصرنا . يقوم على رأسها " شيوخ " واساتذة "، يشرفون على المراتب الاخرى . وقد سميت تلك التنظيمات بـ " الاصناف " وتعتبر جمعيات الاصناف ظاهرة اجتماعية متقدمة في العصر العباسي ساهم في ابعادها تطور الحرف وازدياد دور المدينة على حساب القرية وتكتل العمال في الصناعة (١) . كما كان تسلط الجند الاتراك واغاراتهم المستمرة على الاسواق ودور الصناعة يساهم في تكوين الاصناف (٢) ، فدعت الضرورة الى التصدي لخطر الاجناد واذاهم وبطشهم بالصناع والممتلكات .

ومن غايات الاصناف الحفاظ على مستوى الصنعة والاهتمام بمصالح اعضائها والعناية بالمواد الاولية ، بالاضافة الى المحافظة على آداب الصنعة والالتزام بمسلك فضلائها والتحلي بمحكم اخلاقها ، وكان لكل صنف مراتبه التنظيمية (٣) ، فهناك شيخ الصنف او رئيسه يتلوه الاستاذ ثم التلميذ فالمبتدئ .

وكان لاستيعاب الحركة القرمطية اعدادا كبيرة من الحرفيين ، في المدن العراقية اثره الكبير في نقل تلك التجربة التنظيمية الى الاحساء وهجر وغيرها . ومما يشير الى ان فئات الصناع والحرفيين كانوا يتضررون من الطبقات الغنية في الدولة العباسية ، فيصنفون في طبقات العامة ، او الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى ، قول ابي الفضل الدمشقي في كتابه " الاشارة الى محاسن التجارة " ما يلي : " واما الصنائع العملية وهي المهن ، فقد قيل قديما الصناعة امان من الفقر وامان من الغنى . وذلك

---

١) السخيلي (صباح ابراهيم) ـ الاصناف في العصر العباسي ـ ص ٦٠
٢) اسماعيل (محمود) ـ الحركات السرية في الاسلام ص ١٩
٣) صالحة (محمد عيسى) ـ مجلة العربي ـ مقال ظاهرة الاصناف ص ٧٦

ان الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن اقامة مالا بدّ منه ، ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة او عقد نعمة . وايضا فانه مع ذلك اذا ميز الناس دخل في ادون طبقاتهم ".(١)

(ز) علاقة القرامطة بالزنج :

يتطلع الباحث في الصراع الاجتماعي ، خلال دراسته لمواد بحثه ، نحو العثور على اخبار او تحليلات تتعلق بامكانية وجود علاقة بين تلك الحركات الاجتماعية التي ظهرت في فترة زمنية واحدة او في فترات متقاربة .

ولكن ذلك التطلع سرعان ما تحد من نتائجه الكتابة التاريخية المعاصرة لتلك الحركات . فالاخبار متفرقة واكثرها مطموس ، والحديث عن العلاقات السياسية وعن مظاهر التنسيق بين الجماعات نادر .

غير ان الاستناد الى الاخبار والنصوص المتوفرة ، والاعتماد على الخلفية الطبقية والسياسية التاريخية لتلك الحركات في اطار صراعها العام مع القوى المسيطرة ، يمدنا بخيوط تلك العلاقة . فعندما نصف المعارضة على اساس مطاليبها وفعالياتها ووصولها الاجتماعية ، فاننا نستطيع تلمس تلك العلاقات رغم ندرة اخبارها الرابعة بالنهاية الى موقف السلطة السياسية الرافض للعلاقات الجمهورية ضد الدولة .

وما دمنا قد توصلنا الى ان الاهداف السياسية والبنى الاجتماعية ، بالنسبة لحركتي القرامطة والزنج ، لا تختلف من حيث صيغها العامة . فاننا نعلق الامل على العلاقة الفعلية في مجال التنسيق والتعاون ، اذ ان عدو الحركتين واحد .

فعلى المستوى الموضوعي كان للحركتين تأثيرهما المتبادل في بعضهما ، وفي السلطة السياسية . ومن بين الاسباب التي يسرت نمو حركة القرامطة ينبغي ان نذكر ثورة الزنج (٢) (التي نكبت بها بلاد البصرة لمدة خمس عشرة سنة) . ونتيجة للفوضى السياسية والاقتصادية في جنوب العراق (٣) ، تمكنت الدعوة القرمطية من تنظيم المستجيبين وضمهم الى صفوفها مستفيدة من وضعهم الاجتماعي المتردي ، واستطاعت ان تبني

---

١) الدوري : الدوري – تاريخ العراق الاقتصادي .. ص ٦٣

٢) دي خويه – القرامطة ص ٣٣

٣) المقريزي – في اخبار القرامطة – ص ٣٣٣

مجتمع الالفة " وتؤسس دولة مستقلة . كما ادت مبادئ المساواة والعدالة التي رفعتها تلك الحركات منفردة الى تأجج العامة في المدن والارياف .

ومن جهة اخرى ادى اخفاق ثورة الزنج في تحقيق النصر على جيوش الدولة الى انضمام فلول الزنج المتمردين الى قرامطة العراق والبحرين (١) .

اما على المستوى الذاتي ، فان العلاقة كانت ضعيفة للاسباب التالية :

١- في الفترة التي اشتد فيها ساعد ثورة الزنج ، كانت الحركة القرمطية لا تزال تتخذ من العمل السري اسلوبها الوحيد في الحركة ، ولم تتوصل بعد الى بناء دولة ومجتمع مستقرين .

٢- ان حركة الزنج لم تهتم بالابعاد الايديولوجية والسياسية لتحركاتها فاصطبغت حركتها بالتمرد العفوي .

٣- ان التنظيم في حركة الزنج كان ضعيفا ، فقد اثر ضعف الوعي السياسي والاجتماعي في جدوى تحركاتها العنيفة ، وهذا ما ظهر في اقتصار حركتهم على الزنوج

٤- ان قائد الزنج كان يدعي لنفسه النسب العلوي ، وذلك يثير قادة القرامطة لانهم يدعون انه نسبهم .

٥- انهماك كل من الحركتين في تحصين ذاتها ومواجهة خصومها .

٦- ان فكرة العمل الجماعي في جوهر الوعي السياسي ، في العصر العباسي كانت لا تزال جنينية ، ما عدا الخبرة السياسية التي ميزت المعارضة الشيعية في فروعها الاسماعيلية .

رغم كل ذلك ، فان من الوقائع ما يثبت ان قادة القرامطة عملوا على الاتصال بقادة الزنج . ويذكر المقريزي في - اتعاظ الحنفا " ان احد دعاة القرامطة " صار الى صاحب الزنج لما ظهر على السلطان ، وقال له : ورائي مائة الف ضارب سيف اعينك (٢) بهم . فلم يلتفت الى قوله ، ولم يجد فيه مطمعا ، فرجع وعظم بعد ذلك في السواد "

---

١) الخربوطلي (علي حسني) - ١٠ ثورات في الاسلام - ص ١٩٠

٢) المقريزي - في اخبار القرامطة - ص ٣٣٣

ويروى الطبرى ذلك بشكل مغاير، فيقول: "قال لي قرمط: صرت الى صاحب الزنج، ووصلت اليه وقلت له: اني على مذهب ورائي مئة الف ضارب سيف فناظرني، فان اتفقنا على المذهب ملت بمن معي اليك، وان تكن الاخرى انصرفت عنك. وقلت له: تعطيني الامان؟ ففعل. قال: فناظرته الى الظهر فتبين لي في آخر مناظرتي اياه انه على خلاف امري، وقام الى الصلاة، فانسللت فمضيت خارجا من مدينته وصرت الى سواد الكوفة."(1)

تلك الروايات تثبت ان القرامطة احسوا بضرورة التحالف مع الزنج فناظروهم وتشاوروا معهم حول امكانية العمل المشترك، في عاصمة الزنج وكلام القائد القرمطي يثبت درجة كبيرة من الاحساس بأهمية تضافر الجهود ضد الخصوم. وقد تجلى ذلك الاحساس الواعي في قوله "فان اتفقنا على المذهب ملت بمن معي اليك"، معنى ذلك ان القرامطة يعطون اولوية للجانب الايديولوجي في تلك العلاقة. اما في حال الاختلاف فانه سينصرف عنه، حيث لم يفكر في محاربته او الاستيلاء على مدينته، رغم قوة جيش القرامطة. كما ان ذلك يدل على الوعي بأن الزنج يمثلون حليفا موضوعيا للقرامطة، وجانبا مهما في بعدهم الاجتماعي البشرى. ونحن نعلم انه عندما قضى جيش الخلافة على حركة الزنج، وقتل واسر قادتها، كان ملجأ الزنوج المتبقين الحركة القرمطية التي فتحت لهم ابواب الانضمام الى صفوفها وضمنت لهم العمل وقامت بحمايتهم.

وكان بالامكان ان يتقارب القائدان اكثر من ذلك. لان كلا منهما كان يدعي الانتساب الى (علي). لكن رغبتهما في توطيد العلاقة، كما يبدو لم تكن تعطي اهمية للالتقاء في النسب، مما يوحي باقرار الطرفين ان الاستناد الى النسب العلوى ما هو الا مسألة دعائية تقتضيها ظروف العمل السياسي.

يرى الدورى ان السبب الرئيسي في فشل حركتي الزنج والقرامطة في التعاون ضد العباسيين يكمن في عدم وجود برنامج: تضادى اجتماعي شامل لدى الزنج(2) تلك النتيجة التي توصل لها الدورى في دراساته التاريخية الاقتصادية المتعلقة

---

1) دى خويه _ القرامطة .. ص ٣٣
2) الدورى _ تاريخ العراق الاقتصادى ص ٧١

بالمجتمع العباسي ، تمثل حقيقة تاريخية ولكنها غير كافية ، باعتقادنا ، في الاشارة الى مجمل الاسباب الرئيسية الكامنة وراء انعدام التحالف بين الحركتين . ولا يعني التحالف هنا مجرد اللقاء على برنامج ذي مهمات مرحلية تتمثل في اسقاط الحكم العباسي ، بقدر ما يعني ايضا الالتحام الكلي او الانضمام ، او استيعاب احد الحركتين (الاقوى) للاخرى .

افلم يكن بالامكان استفادة الحركة القرمطية ، ذات التجربة التنظيمية ، والموروث النضالي الضخم ، من نقمة فئات الزنج وتمردهم الواضح على الاقطاع ؟ . الم يكن بالامكان تحويل تلك الحركات الطبقية العفوية الساخطة الى تحرك اجتماعي ذو ابعاد سياسية ، عن طريق السعي نحو ضم الزنوج في صفوف الحركة ، حتى تكون الحركات الاجتماعية اكثر انسجاما مع اهدافها الاجتماعية والسياسية ؟ .

لعل البعض يبرر ذلك بسعي قائد قرامطة العراق نحو طرح العلاقة التحالفية وحصول انحراف ، فتصبح المسألة مسألة حادثة منفردة ، أو مسألة من الاسبق الى طرح العلاقة ، لكن المسألة اعمق من ذلك ، ونحن لا نعتقد ان تلك الحادثة كانت كافية . وكأنما هنالك حقائق اخرى خفية تتعلق بعلاقات الزنج والقرامطة .

المبحث الثاني

حركة الزنج

ـ الوضع الاقتصادى والاجتماعي والسياسي ابان قيام ثورة الزنج :

بعد ان قمنا بدراسة الحركة القرمطية ، وانتهينا الى ان العوامل الذاتية انتهت بفشل العلاقة بينها وبين الزنج ، نأتي الى دراسة حركة الزنج في فعالياتها ومطالبها وابعادها الاجتماعية الطبقية .

ولكننا سوف لن نكرر التفصيل في الحديث عن الوضع الاقتصادى والسياسي ابان ثورات الزنج ، لاننا تعرضنا لذلك في الفصول السابقة ، وسوف نبدأ مباشرة بتحليل الاسباب المؤدية الى قيام تلك الحركة ، ودراسة البنية الداخلية للزنج ، والنتائج التي ادت اليها حركتهم ، وسوف يتم التعرض الى البنية الاقتصادية والاجتماعية في خضم ذلك التحليل .

يقول قائد ثورة الزنج (علي بن محمد) واصفا حياة الترف والبذخ التي يعيشها خلفاء بني العباس في عهده .

لهف نفسي على قصور ببغداد ... وما قد حوته من كل عاص

وخمور هناك تشرب جهرا ... ورجال على المعاصي حراص (المعاصي) (*)

لست بابن الفواطم الزهر ان لم ... اقحم الخيل بين تلك العراص (١)

لعل المدخل الاول لاغلب اشكال المعارضة الاجتماعية ـ التاريخية ، ينصب على نقد حياة الحكام ، حينما تكون مظاهر الترف والمجون محور الحديث اليومي الذى يثير اشمئزاز الطبقات الفقيرة ونقمتها . ثم لا يلبث ان يصبح ، ذلك النقد ، سلاحا في ايدى قادة المعارضة يحرضون به جماهير العامة . فهذا قائد الزنج يصف للناس فحش الحكام وركونهم الى ممارسة الممنوعات وتفننهم في بناء القصور وجمع المنافقين ، عوضا عن

(*) العراص : ج عرصة ، وهي ساحة الدار

(١) علبي (احمد) ـ ثورة الزنج ص ٣٤

الجري على سياسة العدل والانصاف ،والالتزام بالاخلاق الاجتماعية وعدم التعدي على الرعية . فهو يعلن للجميع ،انه سيعمل على اقتحام تلك القصور ،لقطع الفساد عنها ،وذلك بشكل يتحدى به الحكام وبطانتهم . فقصورهم التي تمنع عن العامة ،وتنهك فيها الحرمات والحريات ،لن تنفعهم بهارجها وهالات تحصينها ، حينما يدخل فيها الثوار خصومهم للقصاص من حكام الجور .

ويعتبر هذا القائد ،شأن كل القادة الذين انتحلوا النسب العلوي في حركاتهم الثورية ،ان ذلك يدخل ضمن مهمة الثأر للشيعة التي ناضلت نضالا مريرا . فهو ليس من بني علي اذا استسلم لذلك الواقع ،بل انه يعتبر ان شرف النسب يرد تشريف حباه به القدر ،اما الدفاع عليه فانه يرتبط بالالتزام بالدفاع عن حركة الشيعة الثورية ،التي اصبحت بفضل تجربتها السياسية ومخزونها الاجتماعي المعارض ،رمزا لكل المضطهدين . بمعنى آخر ،ليس من الشيعة من يرى استبداد الحكام ولا يشجبه وارتكاب المعاصي ولا يمقته ،ويرى الرجال على البغي ولا يغرقه .

اما المدخل الاقتصادي المعارض فيشمل مضض الزنوج كفئة في طبقة العامة ، من استيلاء الاتراك على الفيء واستفحال الفقر ،وشدة الاستغلال ،وكثرة اعتداءات جند الدولة العباسية عليهم عوضا عن حمايتهم . كما يشمل فقدانهم الثقة في آمال التحرر والكسب ،التي كان يعدهم بها ملاكهم .

وقد عبر قائدهم عن ذلك المضض وتلك النقمة ،مشيرا الى تصميمه على مواجهة الواقع ومحاولة تغييره ،فقال :

فما بال عجم الترك تقسم فيئنا ونحن لديها في البلاد شهودها
فأقسم لا ذقت القراح وان اذق فبلغة عيش او يباد عميدها (١)

تميزت المرحلة التي مهدت لقيام ثورة الزنج ورافقتها ،بنفوذ العنصر التركي في السلطة العباسية . فقد شكلت اجراءات المعتصم في جلب الاتراك تحولا في السياسة العباسية ، وفي تركيبة جيشها الذي اصبح يغلب عليه طابع الارتزاق . فعرفت تلك المرحلة

---

(١) علي (احمد) ـ نفس المرجع ص ٣٤

بكثرة الانقلابات والحركات السياسية والعسكرية ،فاستحال الخلفاء الى بيادق يحركهم القادة والوزراء كما يشاؤون . وامست الدولة تعيش وضعا متدهورا وكان لسان الشعب يلهج بما قاله الشاعر العلوي الثائر (دعبل)

خليفة مات لم يحزن له احد | وآخر قام ،لم يفرح به احد
فمر ذاك ومر الشوم يتبعه | وقام ذاك فقام النحس والنكد (١)

كما عرفت أواسط القرن الثالث الهجري بازدياد دور الاقطاع الذي تحول في غالبيته الى اقطاع عسكري ،يسيره القادة العسكريون الاتراك ،بمساعدة جباة الخراج وممثلي السلطة ،في الاقطاعات (٢). وفي مجال دراستنا ،في الفصل الاول للنظام الاقتصادي في الدولة السياسية ،رأينا الكيفية التي توطد بها الاقطاع العسكري ، ورأينا مختلف انواع الاقطاعات من حيث اصولها العقارية والملكية . فكان من بينها نظام الاحياء ،اي ان يأخذ احد ارضا مواتا فيجلب لها الماء او يبني عليها ويفلحها ، فتصبح له .

وكانت ضياع البصرة حيث كان الزنج يعملون ،تعتبر من الاراضي الموات التي احياها بعض الاقطاعيين قبل مجيء الاتراك . واستمر العمل من اجل استصلاحها وتجفيفها ،وزاد الاعتماد على العبيد المجلوبين من شرق افريقيا . وقد ترافقت تلك الحاجة الى عمال اقوياء في تلك السباخ ،مع ازدياد دور التجارة في تلك المرحلة . فأموال التجار الطائلة ،وخبرتهم بالطرق والاسواق ،مكنتاهم من حل تلك المعضلة دون ان يكلفهم ذلك خسارة تذكر .

فقاموا باشتراء العبيد باثمان رخيصة ،وباعوهم لملاك الاراضي في البصرة وتجارها ممن كان همهم البحث عن الايدي العاملة الرخيصة

---

١) علبي (احمد) ـ نفس المرجع ص ٦٠

٢) انظر مسكويه ـ تجارب الامم ـ ج ٢ ص ٩٦

(آ) الحالة الاجتماعية للزنج

ترجع الاصول السكانية لفئات الزنج الى افريقيا الشرقية . وكانت منطقة زنجبار (ومنها كلمة زنج) هي الممول الرئيسي للخلافة العباسية بالعبيد .(١)

وقام تجار الرقيق الذين تمرسوا بتعاليم الاسلام عرض الحائط ، وجعلوا من بغداد محطة كبرى لتلك التجارة الوضيعة ، الرابحة ، التي دعوها (النخاسة) بجلب جماعات العبيد .(٢)

ورغم دور تجار الرقيق البارز في جلب العبيد الى سواد العراق ، فان نظام الجزية شكل موردا آخر في جلب تلك العناصر من البلاد التابعة . وكان ثمن العبد في اسواق النخاسين " في منتصف القرن الثالث لا يتجاوز مائتي درهم .(٣)

وكدليل على اهمية العبيد الزنوج في المسابات التجارية آنذاك ، فصّل الجاحظ في احدى رسائله الايجابيات التي تكمن وراء امتلاكهم واستخدامهم .

غير ان تلك الفئات القادمة بشكل جماعي لم تبد في انتظارها ظروفا معيشية واحدة ، فالقسم الذي استخدم في خدمة القصور ، وفي الحراسة يختلف في حياته عن القسم المستخدم في الزراعة . ولا شك ان طبيعة تلك الاعمال اثرت في الطبائع النفسية والاجتماعية للعبيد ، لان واقع الخدمة في القصور والبيوتات وما يتبعه من الاحتكاك باحوال الترف ويسر المعيشة ، يؤدي الى زوال الخشونة ، وضعف العصبية (بالتعبير الخلدوني) ، بينما يتطلب العمل في فلاحة الارض ، وانشاء السدود وكسح السباخ بذل الجهد العضلي ، فيترتب على ذلك شعور بالغبن الاجتماعي ، فضلاً عن ان الاحتكاك بالاخرين ممن يقومون بنفس العمل ، يؤدي الى اتحاد الشعور الاجتماعي فتقوى العصبية ويتبلور الوعي بوحدة المصير ، مصير العمال الزراعيين . وفي ذلك الاطار تبرز النقمة المشتركة على المستغلين اولياء الامر ، فتكون وحدة الاعمال طريقا لوحدة المشاعر والاحاسيس ، ويؤدي ذلك الى الاحساس بالقدرة على المجابهة . وفي تلك الظروف نشأت حركة الزنج .

---

١) عاقل (نبيه) — مجلة دراسات تاريخية " ملامح الصراع الطبقي في التاريخ العربي " ع٦ ص٩عدد
٢) علبي (احمد) — نفس المرجع — ص ٧٥
٣) ميتز (آدم) — نفس المرجع — جـ ١ ص ٢٢٤

عمل الزنج على شكل جماعات في نواحي البصرة بمقسة تمتد فيها المستنقعات :
من جراء البثوق والفيضانات التي حدثت عند ادنى نهري دجلة والفرات .
وتنحصر مهمتهم في تجفيف تلك المستنقعات وازالة الطبقة الملحية عن الارض ، وكانوا
ينقلون " الشورج " او الملح ، بواسطة البغال (١) الى حيث يفرغ ويباع ، اما تجار
الشورج فيسمون بالشورجيين*. وكان لهؤلاء التجار غلمان ، وهم من اوائل الذين
انتزعهم علي بن محمد من وكلائهم وضمهم الى ثورته ، يقول الطبري " ووجد اصحاب
صاحب الزنج ستمائة غلام من غلمان الشورجيين هناك ، فأخذوهم ، وقتلوا وكلاءهم " (٢)

عمل الزنوج في استخراج الدبس من التمر فمنهم من كانوا يسمون بغلمان -
الدباسين والتمارين* ، ومنهم من كان يعمل في بيوت دهقان في البصرة (٣) .
اشتغل الزنوج في كسح السباخ وردم المستنقعات بشروط معيشية لا يحتملها بشر ،
فقد كانوا يحشرون في مخيمات يبلغ عدد افراد كل منها بين ٥٠٠ و ٥٠٠٠ شخص ،
وكانوا يقيمون في اكواخ فقيرة صنعت من القصب واوراق النخيل (٤) . فكانوا عرضة
للامراض الفتاكة فهم يعملون في المستنقعات بين الاملاح . كما كانوا يتعرضون الى عوامل
نفسية شديدة الوطأة ، فلم يكونوا ذوي زوجات واولاد بل كانوا على هيئة الشطار
عزابا (٥)

ويرى احد الدارسين ان حركة الزنج تمثل ثورة الفلاحين على نظام الاقطاع ثورة
على طبقة العناصر الاجنبية للاقطاعات الواسعة ، يعمل فيها هؤلاء الفلاحون بالسخرة "
اذ اصبحوا رقيق الارض (٦) .

ومهما يكن الخلاف في التسمية فان هناك اجماعا على ان غالبية الزنوج هم من

---

١) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ـ ج ٩ ص ٤١٦
٢) الطبري ـ نفس المصدر ـ ج ٩ ص ٤٣٠
٣) علبي (احمد) نفس المرجع ص ٧٩
٤) عاقل (نبيه) ـ مجلة دراسات تاريخية ـ ص ٩٦ عدد ٣
٥) علبي احمد) ـ نفس المرجع عن شرح منهج البلاغة لابن ابي حديد ج ٨ ص ١١١
٦) الخربوطلي (علي حسين) ١٠ ثورات في الاسلام ص ١٧٢
* يسم ابن الاثير " السورجيين " ج ٥ ص ٣٤٧
* يسميهم ابن الاثير " الدباشين " ج ٥ ص ٣٤٦

العبيد المجلوبين للعمل في مستنقعات البصرة ، والعبيد الآبقين المتمردين على ملاكهم . لذلك فان القول بانها ثورة الفلاحين ليس دقيقا لان دوافع ثورة الزنج لا تقتصر في ابعادها على التمرد على الظلم في العمل الزراعي ، وانما كذلك كانت قضيتهم تحمل بعدا اجتماعيا آخر ، هو التحرر من التفرقة العنصرية والتبعية العبودية .

(ب) السياسة والشعارات

يعتبر الباحثون ان لحركة الخوارج اثرها الواضح في ثورة الزنج (١) ، وخاصة فيما يتعلق باقبال الزنوج على مبادئ المساواة و (الديمقراطية) التي ميّزت النظرة السياسية والاجتماعية للخوارج .

ورغم ان قائد الزنج ادعى الانتساب الى علي وفاطمة (٢) فانه لم يجهر بالمذهب الشيعي وانما جهر بعقائد المذهب الخارجي (٣) .

ومما يؤكد ما ذهبنا اليه ان النسب العلوي كان بالنسبة لعلي بن محمد مجرد مناورة لاضفاء الشرعية على دعوته في اوساط القبائل العربية والمعارضة الشيعية ، ويذكر ابن الاثير ان صاحب الزنج كان يتلون في الانتساب وان نسبه كان يتغير من وقت لآخر (٤) .

وقد علل (نولدكه) تلك الدعوة الغريبة في هذه العبارة فقال : " لقد بلغ من معرفة هذا الزعيم الثائر بميول اصحابه انه تظاهر بالدعوة الى مذهب الخوارج الذي يلائم ميولهم الديمقراطية اكثر من مذهب الشيعة ، وان كان هو قد افتخر بأنه من نسل علي وفاطمة ، لما ينطوي عليه المذهب الشيعي من التوريث الذي يلائم عقول مواطنيه " (٥)

ويبدو ان تلك الالعوبة الدعائية التي اتبعها قائد الزنج لم تكن خفية على

---

١) ابن خلدون – التاريخ – جـ ٣ ص ٣٠٢
٢) المسعودي – مروج الذهب جـ ٤ – ص ١٩٤
٣) حسن (حسن ابراهيم) – تاريخ الاسلام – جـ ٣ ص ٢١٠
٤) ابن الاثير – الكامل في التاريخ – جـ ٥ ص ٣٦٢
٥) حسن (حسن ابراهيم) – نفس المرجع جـ ٣ ص ٢١٠

على خصومه ، ذلك ما تفسره حملتهم لكشف ميوله الحقيقية ، وبحثهم في اصله ونسبه اكثر من بحثهم في اصول اتباعه واسباب ثورتهم . (١) ومن الاوصاف التي اطلقوها عليه " دعي آل ابي طالب " و " الخبيث " و " اللعين " و " الخائن " ، و " عدو الله " (٢)

بدأ الزنج بالدعوة الى تطبيق احكام الاسلام في المساواة ، فاستشهدوا بالآية " انما المؤمنون اخوة " (٣) وبالحديث " شر الناس من اكل وحده ومنع رفده وضرب عبده "

ويظهر لنا ذلك البعد في الرواية القائلة بأن (صاحب الزنج) اتخذ في مدينته التي سماها " المختارة " منبرا كان يصعد عليه ، ويسب عثمان وعليا ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة ، على الرغم من انتسابه الى علي (٤) . رغم ذلك فانه لا ينتمي عليا الا من حيث النسب ، لكنه لا يتبنى سياسته . وفي ذلك دليل واضح على الموقف الرافض لسياسة الخلفاء الذين تلو (عمر) ، والذين اتصفت عهودهم بالظلم والابتعاد عن المبادئ العادلة التي جاء بها اسلام الشيخين (ابو بكر وعمر)

ومن جهة اخرى، تبدو لنا نوايا الزنج الثائرين ، شديدة الحرص على احلال المساواة ، والاقتصاص من الظالمين من خلال الشعار الذي رفعته حركتهم ، انها حركة تتخذ من الدين الاسلامي اطارا لها ، وهي لم تشذ عن اطار الحركات الاجتماعية والسياسية والدينية التي ارادت الاصلاح . يدل على ذلك انهم اختاروا ان يكتبوا على راياتهم الآية " ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم " (٥)

وقد أوّل قائد الزنج تلك الاية (بأن المؤمنين ، وقد إشتروا انفسهم لم يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية (٦)) ، واختيار ذلك الشعار ينم عن تأثر الزنج بالخوارج الذين

---

١) الطبري — التاريخ — ج ٩ ص ٤٣٧ — ٤٩٢
٢) ابن خلدون — التاريخ — ج ٣ ص ٣١٦
٣) انظر الخربوطلي — نفس المرجع السابق — ص ١٨٤
٤) حسن (حسن ابراهيم) — نفس المرجع — ج ٣ ص ١١٢
٥) القرآن الكريم — الآية ١١١ — سورة التوبة
٦) حسن (حسن ابراهيم) — نفس المرجع — ج ٣ ص ٣٧٦

سموا انفسهم " الشراة " وتلك الآية هي نفس الآية التي اتخذها الخوارج والازارقة شعارا لهم .

اجتمعت الى قائد الزنج جموع غفيرة من غلمان الدباسين والشورجيين يقول ابن الاثير " وما زال يدعو غلمان اهل البصرة ويقبلون اليه للخلاص من الرق والتعب فاجتمع عنده منهم خلق كثير ، فخطبهم ووعدهم ان يقودهم ويملكهم الاموال وحلف لهم بالايمان ان لا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئا من الاحسان الا اتى به اليهم ، فأتاه مواليهم وبذلوا على كل عبد خمسة دنانير ليسلم اليه عبده . "

ولا شك ان تمرد العبيد شكل خسارة كبيرة لدى ملاكهم القدامى . لذلك فاوضوه على استرجاعهم مقابل المال . ولكنه " بطح اصحابهم وامر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم " وكالوا لكل سيد خمسمائة سوط دون ان يلبي رغبتهم ، ثم اطلق سبيلهم (الملاك) . ولم يزل هذا شأنه ، " يجتمع اليه السودان ، ويبين لهم بذلك انه يريد ان (يحررهم) بالفعل ، فهو " يريد ان يرفع اقدارهم ويملكهم العبيد والاموال . . " ولا يخفى ما لهذه الاجراءات من ذكاء ، لان صاحب الزنج يريد ان يشعر العبيد بقدرتهم على ان يصبحوا اسيادا ، وقد زاد من تأكيد ذلك انه " كان يجعل القواد فيهم منهم " (١)

كما حاول قائد الزنج الاستفادة من الصراعات القبلية في البصرة فحاول استغلالها لتقوية حركته على حساب تلك النزاعات . فعند قدومه " وافق ذلك فتنة اهل البصرة بالبلالية والسعدية (قبيلتان) ، وطمع في احدى الطائفتين ان تميل اليه " (٢) ، ولكنه لم يستفد من ذلك الا في مجال اطلاق سراح اهله واتباعه الذين كانوا قد سجنوا بالبصرة .

---

١) ابن الاثير ـ نفس المصدر ـ ج ٥ ص ٣٤٧ / ٣٤٨
٢) ابن الاثير ـ نفس المصدر ـ ج ٥ ص ٣٤٧

(جـ) اسلوب الحركة في التمرد على الدولـة :

١- الاتصال بالعبيد العاملين في اراضي الاقطاع ، وفي جيش الخلافة ، وبث روح التمرد فيهم .

٢- الايعاز للعبيد بالتنكيل بملاكهم الذين تمردوا عليهم ، وذلك في إطار التعبئة النفسية للحركة

٣- تجميع الزنوج عن طريق اتباع الحركة في شبه معسكرات متنقلة

٤- توزيعهم على شكل فرق في الطرقات والاماكن المأهولة وغير المأهولة بين الاحراج وغابات النخيل توزيعا يمكّنهم من ضرب جيش الخليفة على شكل كمائن .

٥- التمركز في اهم الطرقات نوحوا, دور البريد لقطع التموين والاتصال عن المواقع التي يتمركز بها الجيش العباسي ومؤيدوه .

٦- تحصين المراكز والمدن التي يستقر بها الزنج لجعلها بين المستنقعات والترع وبناء الاسوار حول مركز حكمهم " المختارة "

٧- غزو المدن الكبيرة والاستيلاء على الاموال والمتاع واسر الاولاد والنساء ، وقتل الرجال الذين يحاربونهم . وتحاول فرق الزنج عدم الالتحام بجيش الخلافة ، فتكون هجوماتهم مفاجئة وسريعة تتبع اسلوب الكر والفر .

٨- الاستفادة من موقعهم الاستراتيجي في البحرين وسواد العراق واقترابهـــم من معابر الخليج حيث تمر سفن الحجيج والتجار . فكانت تلك السفن تمثل مصدرا هاما من مصادر قوة اسطولهم الحربي وخزينة دولتهم .

ولئن كانت تلك الخطط قد تكونت من خلال المواجهة وفي خضم الاحداث ، فانهـــا استطاعت ان تشكل خطرا كبيرا على سيطرة الدولة على المناطق التي شملها الصراع .

كما يظهر من خلال تلك الصراعات العسكرية ان قادة الزنج لم يهتموا ببلـــورة برنامجهم الاجتماعي ، لان الاحداث كانت تلهيهم عن مهمة التنظيم ، وبناء المؤسسات وصياغة الافكار .

لذلك فاننا لا نرى في الادبيات والاخبار التي وصلتنا غير ما كنا استعرضناه من اقوال نادرة وافكار منتشرة بين صفوف الزنج ، كان الفضل الاكبر في صياغتها لقائدهم علي بن محمد .

ولنتصور كيف ان تلك الحركة كادت ان تكون قاصمة لظهر الخلافة العباسية . فقد توصل عدد المقاتلين في صفوف الحركة عند ما كانت تواجه جيش الموفق (القائد العباسي) ، حوالي ٣٠٠ الف مقاتل في مدينة " المختارة " لوحدها (١) . وهذا الرقم مهما بولغ فيه ، يدل على امتداد الحركة الواسع في المستوى السكاني ، وهو رقم هائل اذا ما قورن بعدد السكان الاجمالي في جنوبي العراق آنذاك .

لكن النزعة الفوضوية التي طبعت الحركة في قمة مواجهتها ادت الى تقلص الابعاد الاجتماعية لحركتهم . وقد زاد من شدة تلك النزعة ، افتقار قيادة الزنج الى برنامج ثوري يصوغ تطلعاتهم واهدافهم ، قادر على التلاؤم مع مجريات الاحداث من خلال رسم سياسات الحركة .

لقد انطلقت حركة الزنج من واقع الالم والاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي بين مستنقعات البصرة وسهولها ، فكانت بدايتها موفقة ، انسجمت فيها اهدافها مع افعالها ، واستطاعت ان تلحق خسارة كبيرة بالاقطاع كما انها مثلت باجراءاتها الاولية تحديا صارخا للواقع الاجتماعي .

انه من الطبيعي ان تفقد مثل تلك الحركات طابعها الطبقي الانساني عندما تحيد بها قياداتها عن الطريق الذي ارتسمته الحركة لنفسها منذ البداية . فليس الطريق آمنا ، بل هو مشوب بالمخاطر . وكم يكون الانحراف سهلا ، والضياع ممكنا والتراجع جذابا ، اذا كان الوعي الاجتماعي والسياسي ضعيفا ، واذا كانت تلك المهمة موكولة الى قيادة مركزية ثابتة لا تربطها بجماهير الحركة سوى خيوط باهتة .

ذلك ما نرى ، انه حدث لحركة الزنج ، لاننا لا نجد علاقة واضحة في العلاقة الهرمية بين القادة والاتباع . ولم يتأت ذلك الغموض من تنظيم سري الذي عرفته

---

(١) ابن الاثير : نفس المصدر - ج ٦ ص ٣٢

الحركتان القرمطية والاسماعيلية ، ولكن غموض مصدره انعدام الخبرة التنظيمية واستفحال الفوضى والجهل في صفوف الزنج . ولعلّ من المؤشرات التي تؤيد ما ذهبنا اليه في هذا المجال ، اننا لا نجد في مختلف الكتابات المتعلقة بثورة الزنج اية اشارة الى بعض المراتب في المسؤوليات والنشاطات ، في حين اننا نجد كثيرا من المبالغة في التركيز على دور (قائد الزنج) او (صاحب الزنج) ... الخ .

ومن جهة ثانية فان سرعة الاحداث وتصميم العباسيين على القضاء على ثورة الزنج بشدة ، لم يتركا مهلة لتنظيم صفوف الزنج وتمكينهم من بناء مجتمع محلي مستقر ، له انظمته الخاصة .

وفترات " الحرب الاهلية " المتبادلة الممتدة نحو خمسة عشر سنة متواصلة ، كفيلة بالقضاء على الطابع الطبقي الانساني في الحركة ، وطمس جذورها الاجتماعية . فقد عملت هجومات الزنج العنيفة على المدن والقرى ورحلات الحجيج على افقاد الحركة بعدها الاجتماعي (الثوري ، خاصة عندما نكلوا بسكان البصرة ، وهدموا عمرانها وعندما استباحوا الرق في مجتمع الزنج . كل ذلك كفيل بتبيان السلبيات والثغرات . على ان الثغرات التي ذكرناها ، لا يمكن ان تفقد حركة الزنج اهميتها التاريخية الاجتماعية ، لان ثوراتها كانت بالاساس ، تنطلق من واقع المعارضة للدولة والتمرد على الواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي يهيمن عليه ملاك الاراضي الكبار والتجار .

ويكفي تلك الحركة ان قاعدتها النضالية والاجتماعية المشتّتة ، استطاعت ان تكون احدى الدعائم الاساسية التي اخرجت الحركة القرمطية فيما بعد ، الى حيز الفعل المعارض الضاغط .

(د) آثار ثورة الزنج

ادت ثورة الزنج الوعدة نتائج خطيرة على الدولة والمجتمع . ويمكننا تلخيص ذلك في النقاط التالية :

- سيطرة الزنج على رقعة كبيرة من الارض تمتد بين الاهواز وواسط ، وتهدد العاصمة (سرمن رأى)
- الحاق الضرر الاقتصادي بتلك الرقعة الحساسة في الانتاج ، فقد تعطلت الزراعة في الاراضي المروية .
- ارهاق الفلاحين المستقرين في جنوبي العراق ، لانهم اضطروا الى تمويل الجيشين في آن واحد ، والا تعرضوا للنهب والاعتداء . وكان قائد العباسيين قد نكل بالقبائل البدوية لانها لم ترتدع عن تموين الزنج .
- غلاء الاسعار المفرط الذى نكب به العراق والحجاز في عام ٢٦٠ هـ ، فاذا كر الحنطة يبلغ مائة وخمسين دينارا (١)
- تضرر التجارة من خلال تعطل المواصلات النهرية طوال تلك الحروب .

يقول زيدان : " ومما زاد البلاء جسامة ان اكثر ما احتفره الخلفاء المصلحون في اوائل الدولة العباسية من الترع والانهر لري الارض ، وتسهيل الاستغلال انسد بالحروب ، لان المحاربين كثيرا ما كانوا يضطرون الى سد الانهر ليمنعوا سفن الاعداء من المرور فيها (٢) ". وكان لاختلال الامن اثره في انكماش الحركة التجارية . ومصادرة اموال التجار الكبار المخبأة ، فخلال الهجوم على البصرة طلب قائد الزنج من اصحابه الاستيلاء على الكنوز المدفونة حتى "يسكن الناس ويظهر المستخفي ومن قد عرف بكثرة المال فاذا ظهروا اخذوا بالدلالة على ما دفنوا واخفوا من اموالهم (٣) "

- تدمير مدينة البصرة والقضاء على معالمها الاقتصادية والثقافية ، وقد لاقت اعمال الاحراق والتنكيل التي قام بها الزنج ادانة عامة .

---

١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ط ١ ص ٣٦٤
٢) زيدان (جرجي) ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ج ٢ ـ ص ١٢٨
٣) انظر علبي (احمد) ثورة الزنج ص ١٠٢

ويبدو ان صاحب الزنج نفسه كان نادما على تورط جيشه في تلك الحادثة الاليمة فقام بعزل القائد المسؤول على اعمال التدمير ، وربما كان ذلك لامتصاص النقمة الشعبية المنصبة على تلك الاعمال . (١)

كما لاقى تدمير البصرة صدى في شعر الشعراء وخاصة لدى ابن الرومي حينما اصبحت قصيدته الرثائية تردد على السنة العامة والخاصة ، ومن تلك القصيدة قوله :

لهف نفسي عليك يا قرحة البلدان ، لهفا يبقى على الاعوام
بينما اهلها بأحسن حال إذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليل اذا راح مدلهم الظلام
اين ضوضاء ذلك الخلق فيها اين اسواقها ذوات الزحام ؟
اين فلك فيها ، وفلك اليها منشئات في البحر كالاعلام
اين تلك القصور والدور فيها اين ذاك البنيان ذو الاحكام
بُدِّلَتْ تلكم القصور تلالا من رماد ومن تراب ركام (٢)

---

١) ابن الاثير ــ الكامل في التاريخ ــ جـ ٥ ص ٣٦٢
٢) انظر حسن (حسن ابراهيم) تاريخ الاسلام ــ جـ ٣ ، ص ٢٦١ ــ ط ٦

المبحث الثالث

حركة الشطار والعيارين

الوضع الاجتماعي والاقتصادي ابان ظهور الحركة :

تأتي هذه الحركة ايضا نتيجة طبيعية للتفاوت الاقتصادي وما ادى اليه من تمايز طبقي في الدولة العباسية .

وقد تركزت تحركات الشطار والعيارين في المدن العباسية ، وبالتحديد في عاصمة الخلافة ، حيث تميز المجتمع البغدادي بتعقد حياته وامتداد سكانه وتطور عمرانه .

و " الشطار والعيارون " هم الفئة الفقيرة وطبقة العامة المحرومة ، ففي بغداد بلغت حياة الترف درجة لا توصف في طبقة الخاصة ، حيث كانت قصور الخلفاء والولاة وقواد الجند والامراء والتجار ، تضج ، " بأجمل الرياش وانفس التحف وحولها البرك والحدائق الغناء ، حيث الولائم الكبيرة التي تحتوي على الوان كثيرة هائلة من مفاخر الطعام ومجالس المنادمة والشراب ، واجمل الجواري واحذقهن في الموسيقا والغناء .. "(١) . واصبحت عاصمة الرشيد ، بغداد " الف ليلة وليلة " ، بغداد العصر الذهبي " ، عاصمة ، عالمية تأتيها اموال الخراج والجزية والغنائم من كل صوب ، واحتلت مكانة راقية في التجارة العالمية ، حتى اضحت مركزا تجاريا وحضاريا كبيرا يتوافد اليها التجار من كل صوب . ومن الطبيعي ان يكون ذلك الازدهار الحضاري القائم على قوة الدولة ونشاط الحركة التجارية والمالية ، في مجتمع طبقي ، متلازما مع ازدياد الفقر والحاجة في صفوف طبقة العامة . في مدن كهذه ، بدأت تنشأ تجمعات بشرية فقيرة يطحنها غلاء المعيشة ويمزقها الجهل والعوز . تجذبها بهارج المدينة من سكون القرى والبوادي ، آملة في الحصول على اعمال مستحدثة ، او حتى في بقايا تلك الموائد وعطايا السلطان .

---

١) النجار (محمد رجب) - حكايات الشطار والعيارين - ص ٨٨
في التراث العربي

ولكنها لم تجد امامها غير الاعمال المهينة ، وزاد فقرها بعد ان تركت اعمالها الزراعية في الريف ، فاستحالت حياة الكثيرين الى فراغ قاتل وتسكع مستمر ، فسيطرت البطالة وازداد الفقر .

كان وضع الجماعات المهاجرة الى المدن شبيهاً بوضع الجماعات التي تهاجر الى المدن الكبيرة ، في عصرنا ، راغبة في الحصول على عمل بالصناعة ، مبهورة بزخرف الحياة وكثرة الربح ورفاه العيش في المدينة . تترك تلك الجماعات اعمالها الاصلية في الزراعة ، ولكنها لا تلبث ان تجد بيوت الصفيح والقصدير في انتظارها تلك الاحياء ، الملأى بشتى الامراض ، تشكل حزاماً سكانياً يحيط بالمدن ، فيزيد فقرها بازدياد عددها ، ولا تستطيع تحسين اوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ، وتبقى تعيش على هامش المجتمع بقطاع وعمالها الجهل والعوز والحاجة . وليس غريباً ان يلتجأ افراد من تلك الجماعات الى حياة الاجرام والتسكع بعد ان فقدوا الامل في تحسين احوالهم وسد رمقهم .

كذلك تقريباً كانت الاحوال الاجتماعية لجماعات الشطار والعيارين ، التي ظهرت في حاضرة الخلافة العباسية ، منذ اواخر القرن الثاني الهجري ، واستمرت حتى اواخر القرن الخامس بشكل ملموس . وقد استطاعت تلك الجماعات ان تشكل عبر معاناتها الطويلة حركة منظمة لها اهدافها الاجتماعية الخالصة .

ومن الاسباب الرئيسية التي ادت الى تعميق التناقض الاجتماعي تكدس الثروة عند فئة محدودة جداً من المجتمع ، وانتقال المجتمع والدولة من طور زراعي منتج الى طور تجاري حرفي (١) .

وقد رأينا كيف ان الصراع بين الارستقراطيتين العربية والاجنبية (الفارسية بشكل اكبر) ادى الى الرغبة في الحصول على الربح السريع ، فعطلت الزراعة وَوُظِّفت الاموال في التجارة والحرف ، وحل الاقطاع العسكري محل الاقطاع المدني المستمر المنتج .

ولكن توظيف الاموال في التجارة والحرف لم يؤد الا الى فقدان جماعات العمال الزراعيين لاعمالهم ومصادر عيشهم . فهي لا تملك المال للتجارة ولا الخبرة للعمل في

---

١) لويس (برنارد) – اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية – ص ١٩١

الحرف ،فتحولت الى المدن ودخلت سوق البطالة ، والاعمال الرخيصة .

ومن جهة اخرى فان الصراعات بين الطبقة الارستقراطية التي جسدها الصراع بين الامين والمأمون ،ادت الى تخريب الاقتصاد ،وتفتيت المجتمع ،وانعدام الامن والاستقرار ،فازدادت مصاريف الخلفاء وتجمعت حولهم بطانة المرتزقة من العسكريين والشعراء والخدم والحرس والعيون امام تلك المتناقضات الاجتماعية الحادة التي افرزها النشاط التجاري الهائل ،والصراع على تكديس الثروة ،وامتلاك الاقطاعات ،ونسف رعاية مصالح الزراعة وخدمات المواطنين ،قامت العامة بعدة انتفاضات وكان اشهرها واكثرها قدرة على التنظيم والاستمرار حركة الشطار والعيارين التي ركزت نشاطها على اعاقة النشاط التجاري في الدولة العباسية ،كما تلازم ذلك مع رفض التسلط الاجنبي .

(آ) ظهور الحركـــــة :

ظهر الشطار والعيارون على مسرح الاحداث اثناء حصار بغداد الاول سنة — ١٩٧هـ/ ٨١٢م على شكل جماعات مسلحة .

ثم ظهروا بشكل جماعات كبيرة منظمة في حصار بغداد الثاني سنة ٢٥١ هـ/ سنة ٨٦٥م

ثم ظهرت حركتهم وكانت اعلبعودا في سنة ٣٦١هـ، ٩٧١م(١) وفي سنـــة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م تسلطوا على بغداد ،فنهبوا سكانها وعينوا عريفا في كل محلـــة .

وفــــي سنـــة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٠م نهبوا بغداد وكان بينهم كثير من العلويين والعباسيين الذين ثاروا ضد التغلب البويهي (٢) ،وهي الحركة التي اطلق عليها اسم " فتنة العامة) .

---

١) فهد (بدري محمد) — العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري — ص ٢٨٧

٢) الدوري (عبد العزيز) — تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع — ص ٦٨

لئن اختلفت التسميات المتعلقة بهؤلاء المتمردين ، فان المراد واحد . والمفارق الوحيد الجدير بالاهتمام ، انها (التسميات) تفيدنا في تسليط الضوء على الفئات المنضوية تحت لواء الحركة .

فالشطار و" العيارون " و " الزعار " و " اللصوص " و " السفلة " و " الدعار " و " الطرارين و " الذعار ، و " الفجرة " و " السوقة " . . الخ ما هي سوى تسميات متعددة لجماعات وحدت بينها الحالة الاجتماعية المتردية فالتجأت الى العنف والحيلة .

ولكننا نلاحظ ان كثيرا من تلك التسميات ما هو الا نوع من الوصف الذي وصفه خصومهم ، فيه من المبالغة والتشويه الشيء الكثير وهي في النهاية تسميات الصقت بالشطار والعيارين نتيجة الموقف الطبقي الذي اتخذوه من نظام المجتمع. فكانت صادرة عن موقف طبقي ايضا ، وهذا ما لابد للباحث من ان ينتبه اليه في دراسته لحركات العامة ، التي إفتقدت اخبارها الى التأريخ الحلمي ، لانها لم تكن تمتلك الوسائل الكفيلة بالرد ، على المستوى النظري ، على اعدائها الطبقيين الذين كانوا يسيطرون على الدولة بأقنيتها المختلفة .

وما دامت تلك الاوصاف لا تعبر عن حقيقة حركة الشطار والعيارين ، وطبيعة اعمالها ، فانها بالضرورة لا ترتبط بجوهر الجماعات التي اطلقت عليها . والشيء النادر ، الذي وصلنا في ثنايا بعض الكتب ، من اقوال عارمة لبعض افراد جماعاتهم ، وغيرها من الاخبار المقنعة ، يثبت لنا وجوب التنبه لما ذكرناه من الخلط في التسميات .

فمفهوم " اللصوصية " مفهوم واسع يختلف باختلاف فهمنا لعلاقة السارق والمسروق ، اي من السبب او الدافع الذي ينطلق منه الفاعل في فعله ذاك . ونحن نعلم ان مفاهيم القيم الاخلاقية ، كما هي القيم نفسها ، لا تمتلك معنى ستاتيكيا ، بل هي ابدا متجددة متغيرة ، تختلف باختلاف المكان والزمان ، وبالتالي باختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ومما يدل على ان ذلك الوصف ينطلق من موقف طبقي اخلاقي ، ان بعض المؤرخين في معرض هجومهم على العامة ، يصفون اتباعها باللصوص . فأساءوا فهـــم (او التعبير عن) حركة الشطار والعيارين ، وبالغوا في تضخيم الجوانب السلبية في حركاتهم .

ففي المرحلة التي اشتد فيها الصراع بين " الامين والمأمون " ، بلغ عدد العيارين المتمردين في يوم واحد مائة الف عيار (١) . وهذا الرقم الذي تواضع عليه القصص الشعبي حول الابطال الشعبيين امثال " دليلة والمحتالة " و " علي الزيبق " وغيرهما ، يدل على ان المسألة لم تكن مسألة عصابات !

فهل يعقل ان يكون مثل هذا العدد الكبير من عامة بغداد لصوصا بالمعنى المتعارف عليه ؟ ام ان هؤلاء العامة الذين توسلوا بالتلصص والتشطر والعيـارة والزعارة ، كانوا متمردين ، اتخذوا من الاساليب (غير القانونية) مظهرا اجتماعيـا لتحركهم المتمارض لدولة العسكريين والتجار ؟ .

ومن جهة اخرى فان المقارنة بين ذلك العدد الهائل من " اللصوص " في العاصمـة العباسية ، وبين اعداد " اللصوص " بالمعنى الحديث في المجتمعات المتقدمة في اساليب الضبط والاحصاء ، كفيلة ببيان ان كلمة (اللصوص) لم تكن تدل في استعمالها هنا على المعنى المتداول ، وانما كان استعمالها لغرض التشويه وقطع الطريق على الشطـار والعيارين من ان ينالوا من استقرار الدولة والمجتمع آنذاك

فمما لاشك فيه ان ذلك الجمهور الغفير كان يشمل المشاركين في الانتفاضة بالاسواق ضد التجار وفي دروب العاصمة ، وعلى مشارفها ضد جيشي المأمون والمعتز .

هؤلاء " الشطار والعيارون " هم المعدمون من الفقراء والجياع والعاطلين عن العمل الذين طحنهم الفقر واعوزتهم الحاجة ، وسوء تدبير الحكام وغياب القانون . لذلـك كانت البطولة خارج القانون هي اسلوبهم في المعارضة ، (فهم جميعا في حالة صراع مع هذا المجتمع الذي لفظهم ، فكان ان رفضوا واقعهم المرير ، وتمردوا على مجتمعهم

---

(١) النجار (محمد رجب) – حكايات الشطار والعيارين – ص ١٥

وحاولوا الثورة عليه ،رغم انعدام التكافوء بين كفتي الصراع ،لكن حسبهم من وراء ذلك اعلان تمردهم على بعض طبقاته ،والثورة على القائمين عليه ،لينالوا باسلوب غير شرعي ما يتصورون انه حق شرعي لهم . (١)

ومن خلال التسميات التي اطلقت على تلك الجماعات يتبين لنا جانب آخر من حياتها الاجتماعية . جانب ساهم في توحيد صفوفها ،واتساع اتباعها ،وفاعلية اعمالها .

إنه جانب القيمة الاجتماعية القائمة على " الفروسية " فمعظم المنضوين تحت لواء هذه الحركة هم من المقاتلين والمصارعين والفتيان الاقوياء ،الشجاعة صفة لازمة لهم ،حياتهم تتميز بكثرة التنقل والقلق الناتج عن نشاط الشباب والطواف بلا عمل .

يقول المسعودي :

واحد منهم يشد على الفيـــــــــــي عريان ماله إزار (٢)

ويقول الفتي اذا طعن الطعنـــــــــــة : خذها من الفتى العيار

ومن صفاتهم مناصرة الضعيف واعالة المحتاج ،والتضحية بالنفس والتمرد على النظـــام الاجتماعية التي لا تلائم طباعهم . وهم شديدوا الولع بالمغامرة واحتقار الخصـــوم والثأر منهم ،يستخدمون الاحتيال لتنفيذ خططهم . وقد صور القصص الشعبـــي كثيرا من صفاتهم عن طريق ذكر اخبارهم ومغامرات ابطالهم .

ولا شك ان كثيرا من تلك الشيم كانت تحظى باعجاب العامة التي سارعت الى الاستنجـاد بالشطار والعيارين كلما هددها خطر خارجي ،فانضمت اليهم اعدادا كبيرة منهـــا خلال تحركاتهم .

---

١) النجار (محمد رجب ــ نفس المرجع ــ ص ٩

٢) المسعودي ــ مروج الذهب ــ جـ ٣ ــ ص ٤١٥

الهدف الاجتماعي :

مما تجدر ملاحظته ، ان حركة الشطار والعيارين كانت تنصب في اغلب فعالياتها على مهاجمة التجار والاستيلاء على اموال الاغنياء . فاستخدمت طرق الاحتيال والقوة ، وقطع الطريق ، واثارة الفوضى في الاسواق وطرق التجارة .

ولا شك ان ذلك اثر تأثيرا كبيرا على مردود التجارة ، فقد كونوا فرقا مسلحة تهاجم القوافل وتجبي منها الاموال . ثم يقومون بتوزيع ذلك على اتباعهم . ويعتبر ذلك المصدر المالي مورد حياتهم الوحيد .

ان في اعماق تلك الحركة مبادئ انسانية نبيلة . ففضلا عن قيم المروءة والتضحية التي اتصف بها اتباعها ، نجدها تنطلق من منطلق اجتماعي اقتصادي هادف . فقد اتخذ قادة الحركة المتمرسون باعمال الشطارة ، من ثروات الموسرين واموال التجار هدفا لغاراتهم . وهم يعلنون للملأ انهم مستمرون في خططهم ، متخذين من انعدام العدل والمساواة في المال والخطوة هدفا اساسيا . وقد جاء ذلك على السنة قادتهم . ونفهم من خلال اقوالهم واخبارهم انهم لا يعترفون بالدولة القائمة ، لذلك خرجوا عن طاعتها ، واعتبروا انفسهم مسؤولين على حياتهم لانهم يمثلون المستضعفين من الامة في المدن ، فجردوا سيوفهم للاقتصاص من خصومهم واحرابهم كلما سنحت لهم الفرصة .

يقول ابن سيار الكردي رئيس احدى تلك الجماعات ، حين برر عمله "ان هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لانهم منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت اموالهم بذلك مستهلكة ، واللصوص فقراء اليها فاذا اخذوا اموالهم ، وان كره التجار اخذها ، كان ذلك لهم مباحا لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم يستحقون اخذ الزكاة شاء ارباب الاموال او كرهوا " .(١)

---

(١) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ـ ج ٢ ص ٣٣١

ويقول ابن حمدون ، (وهو احد الذين اعيو السلطان سنة ٣٢٢ هـ ، مخاطبا احد التجار ، " .. لعن الله السلطان الذى احوجنا الى هذا ، فانه قصد استقطاع ارزاقنا فاحتجنا الى هذا الفعل ، ولسنا فيما نفعل ارتكاب امر عظيم مما يرتكبه السلطان ..." (٢) (١)

ويقول ابو عثمان الخياط ، وهو زعيم لفئة " اللصوص " ومثار بارع ونبع الاسس العرفية والاخلاقية ، التي ينبغي لاتباعه ان يتعهدوها : " ما سرقت جارا ، وان كان عدوا ، ولا كريما ولا كافأت غادرا بغدره " ، ومن وصاياه لاصحابه : اضمنوا لي ثلاثا اضمن لكم السلامة .

" لا تسرقوا الجيران واتقوا الحرم ولا تكونوا اكثر من شريك مناصف وان كنتم اولى بما في ايديهم لكذبهم وغشهم وتركهم اخراج الزكاة وجحودهم الودائع " (٣)

وقال بعض من قادة هؤلاء : " اللص احسن حالا من الحاكم المرتشي والقاضي الذى يأكل اموال اليتامى ." (٤)

توضح لنا تلك الاقوال وغيرها ، الاهمية الاجتماعية لهذه الحركة ، بل انها تمثل دليلا على تقدم الوعي الاجتماعي الذى بلغ حدا كبيرا في فترة القرن الرابع الهجرى . ومن تلك العبارات القليلة والاخبار المتفرقة نستنتج اهدافا عظيمة يمكننا تلخيصها فيما يلي :

١ـ يمثل التجار هدفا اولا للشطار والعيارين ، لانهم يمنعون الزكاة ويحتكرون الاموال فهم خارجون على النظام فحق استحلال اموالهم شاؤوا ام كرهوا .

٢ـ تمثل الدولة القائمة ، بنظر هؤلاء المتمردين ، عدوا آخر لان السلطان هو الذى احوجهم الى اتخاذ ذلك الاسلوب للحصول على المال ، وهو الذى يرعى التجار ويسقط ارزاق الفقراء . فليس ما يرتكبه الحكام من ظلم وجور واهمال بأقل مما يفعله الشطار والعيارون .

٣ـ يطلب قادة الحركة اتباعهم باحترام المبادئ ، وعدم الخروج على الخطط المرسومة فيرفضون الاستيلاء على الاموال جميعها ويكتفون بالمشاركة مناصفة في اموال التجار رغم قناعتهم بأن تلك الاموال اولى ان تكون في ايدى الفقراء لانهم ابعد عن الغش والكذب والمنع والجحود .

١) مسكويه ـ تجارب الامم ـ ج ٢ ص ٥١
٢) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ـ ج ٢ ص ٣٢٣
٣) الاصفهاني (الراغب) ـ محاضرات الادباء ـ ج ٢ ص ١٩١
٤) الاصفهاني (الراغب) ـ نفس المصدر ـ ج ٣ ص ١٩١

(ب) انتفاضات الشطار والعيارين :

تجمع معظم المصادر على ان الشطار والعيارين بدأوا يبرزون على ساحة الاحداث الاجتماعية الخطيرة ، في اواخر القرن الثاني ، وبدايات القرن الثالث الهجريين • فقد بدأت تلك الظاهرة تلفت نظر المؤرخين بداية بما اصطلح على تسميته " الفتنة بين الامين والمأمون " • ويبدو ان اغلب الدراسات التي تناولت هذه الحركة بالبحث انجرت الى قبول المقدمات التي وضعها اغلب المؤرخين في تفسير الصراع بين (الاخوين) على انه مجرد صراع بين عصبيتين (عربية وفارسية) •

ومن الطبيعي ان يذهب اغلب المؤرخين القدامى ذلك المذهب لان التأريخ كان تأريخا نخبويا للملوك والاسر العريقة والدول الشهيرة ، لذلك وضعت الحركات الاجتماعية والانتفاضات العامة ، في هامش الاحداث التاريخية ، بل ان اخبارها صيغت بشكل يجعل منها بالضرورة تابعا لاحد اطراف الصراع في الدولة • ومن اولئك الدارسين من يعتبر ان وقوف الشطار والعيارين الى جانب الامين كان يرمي الى الدفاع عن شرعية الخلافة وعروبتها ضد النفوذ الفارسي (١)

لا جدال في ان عيارى بغداد ثاروا مع الامين لمواجهة الجند الخراساني ، فهذه واقعة تاريخية لا سبيل لنكرانها ، لكن هل يلزم ذلك القول بأن الحرب الشرسة بين الاخوين كانت ذات طابع " قومي " فقط •

ان البحث في اصول الشطار والعيارين الاجتماعية والطبقية بالتحديد ، كفيلة بالدلالة على ان تلك الحركة كان يدفعها وضعها الاقتصادى المتردى ، وان ثورتها موجهة ضد النظام الاجتماعي بأسره ، وليس ضد عنصر من العناصر •

---

١) انظر النجار (محمد رجب) ... نفس المرجع ــ ص ٣٧

— صحيح ان حركة الشطار كانت في بعض ملامحها حركة وطنية ترفض التدخل الاجنبي ولكن ذلك لا يعني ان تركيبه اتباعها كانت عربية خالصة بل انها شملت العرب والفرس والاكراد وغيرهم • وهذا ما سنلاحظه خلال تعرضنا لدراسة تركيبهم الاجتماعي •

ومما يؤكد ان طابع الحركة كان اجتماعيا بالاساس، اننا لا نجد تفسيرا مقنعا لدى المدافعين عن ذلك الموقف، يسوغ لنا تصرفات الشطار والعيارين المدمرة، لاسواق بغداد الغربيـــة دون ان يستندوا في حركاتهم الى التقسيمات السكانية القائمة على النسب • فمناصرة الامين لا تقتضي حسب رأينا تدمير جزء من بغداد، واشاعة الفوضى في العاصمة، بل يقتضي التعرض الى المناطق التي يتواجد فيها جيش المأمون • ثم لماذا يهاجمون التجار وهم يمثلون جزءاً من سكان بغداد، وانصار الامين (في البداية) وفيهم العرب ؟•

ان الحرب التي استمرت فترة طويلة بين جيش المأمون والامين ما هي سوى نتيجة للتناقضات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي سبقت تلك المرحلة • ولم يكن الصراع السياسي في الاسرة الحاكمة بمعزل عن الصراعات الطبقية التي كانت رحاها تدور في البنية الاجتماعية بأكملهـــا • فقد تضررت العامة بفئاتها المختلفة، من اجراءات الخلفاء واستهتارهم بمصالحها الحيويـــة • ولم يكن من صالح الطبقات الفقيرة تأييد أحد الطرفين بشكل صريح، لذلك ثارت العامة في بغداد وحاولت الاستفادة من صراع الجيشين، فوجهت قواها في وقت واحد ضد الجيش الخراسانـــي " الغريب " عن بغداد، وضد اثرياء العاصمة وتجارها وقوادها ممن احتكروا الاموال وافشـــوا الفساد " ونقب اهل السجون، وخرجوا منها، وفتن الناس وساءت احوالهم، ووثب الشطـــار على اهل الصلاح "(١)

---

١) ابن الاثير — نفس المصدر — ج ٦ ص ٢٦٨/٢٦٩

ومعروف ما لمصطلح " اهل الصلاح " عند ابن الاثير و " اهل الستر " عند المسعودى من دلالة على الموقف الارستقراطي المساند للتجار في محنتهم وتضررهم من الشطار •

ولم يبدو الامر ملفتا للانتباه عندما يبين لنا الطبرى ان الجيوش المتصارعة ذ لت وتواكلت الاجناد عن القتال بعد ان انهكتها الحرب ، وبقي القادة العسكريون والتجار ينتظرون مصير الاحداث لاتخاذ موقف يناسب مصالحهم • اما العامة فانها وجدت الفرصة مناسبة للثأر من خصومها نتيجة الحرمان الذى كبلوها به • ونظرا لرواية الطبرى ان الاساس الاجتماعي للمتقضين كان واحدا ، فهم يكونون طبقة المسحوقين في النظام الاجتماعي القائم على التفــــاوت •

لذلك كانوا اكثر عزما وقدرة على مواصلة القتال • لان استمرار الواقع على حاله سوف لن يغير من حالتهم المعيشية • وهم لا يملكون شيئا يخشون فقدانه • يقول الطبرى " وذلت الاجناد ، وتواكلت عن القتال ، الا باعة الطريق والعراة ، واهل السجون ، والاوباش والرعاع ، والطرارين ، واهل السوق"(١) ، فهؤلاء هم الآفة " على حد تعبيراصحاب دلالامر لانهم لا يتوانون عن قتالهم (٢)

وتبين لنا القصيدة التي كان يرددها " فتيان بغداد ، آنذاك ، الرؤى الانسانيـة لحركة الشطار والعيارين • وهي دليل يبين لنا ان هناك خلطا لدى المؤرخين في نسبة اعمال الشغب والتدمير الى الشطار والعيارين ، في حين ان تلك الاعمال الشنيعة من عمادة الجند ، ففي القصيدة دليل على استنكار العامة لما حل ببغداد •

ومن تلك الابيات قولهم

---

١) الطبرى ــ التاريخ ــ ج ٨ ص٤٤٨
٢) الطبرى ــ التاريخ ، ج ٨ ، ص٤٥٧

بكيت دما على بغداد لما | فقدت غضارة العيش الانيق
تبدلنا هموما من سرور | ومن سعة تبدلنا بضيق
اصابتنا من الحساد عين | فافنت اهلها بالمنجنيق
فقوم احرقوا بالنار قسرا | ونائحة تنوح على الغريق
فلا ولد يقيم على ابيه | وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما انس من شيء تولى | فاني ذاكر دار الرقيق (١)

ومعروف ان سلاح المنجنيق ، آنذاك ، لا تمتلكه الا الجيوش وهي اسلحة جيش المأمون • اما الشطار والعيارون فلا يملكون من السلاح غير ادوات بسيطة كالرماح •

ليس له مال سوى مطرد | مطرده في كفه رأس مال (٢)

فالتسابق الى نهب بغداد كان من قبل جندي المأمون والامين • مرة بأمر من طاهر بن الحسين (قائد جيش المأمون) ، ومرة من الامين ويذكر لنا الطبري والسيوطي نماذج من اوامر الامين نفسه ، بحرق الاسواق وسلب الناس ونهبهم ، بينما يغرق نفسه في العبث (٣) •

كما كان الموقف الطبقي واضحا من خلال الحملة الدعائية الارستقراطية التي شنها شعراء المأمون ضد العياريين ، وقد تجلت تلك الحملة في ازدراء اصولهم الاجتماعية الطبقية والاستخفاف باسلحتهم ولباسهم وتفريغ نضالهم من كل معنى نبيل •

يقول عمرو العتري (الوراق)

وقعة السبت يوم درب الحجارة | قطعت قطعة من النظارة
ذاك من بعد ما تفانوا ولكن | اهلكتهم غوغاؤنا بالحجارة
تقدم الشورجين للقتل عمدا | قال اني لكم اريد الامارة

---

١) الطبري ـ التاريخ ج ٨ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧
٢) الطبري ـ التاريخ ج ٨ ص ٤٦٠
٣) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص ٢٩٩ والطبري ـ التاريخ ج ٨ ص ٤٦٣

فطلقاه كل لص مريب   عمر السجن دهره بالشطارة

فتولوا عنهم وكانوا قديما   يحسنون الضراب في كل غارة

هؤلاء مثل هؤلاء لديما   ليس يرعون حق جار وجاره

كل من كان خامة صار رأسا   من نعيم في عيشه وغضاره

حامل في يمينه كل يوم   مطردا فوق رأسه طياره

أخرجته من بيتها أم سوء   طلبت التهاب امه العياره (١)

وهذه ابيات اخرى يحاول فيها نفس الشاعر ان يبين ان تمرد الشطارة والعيارين ما هو الا ضرب من " البطش والطمع " فيقول :

قلت لمطعون وفيه روحه لم تهد

من انت ياويلك يا   مسكين من محمد

فقال لا من نسب   كان ولا من بلد

لم اره قط ولم   اجد له من صفد

وقال لا للفتى قاتلت ولا للرشد

الا لشيء عاجل   يصير منه في يدي (٢)

ويقول نفس الخصم :

ضربوا طبلهم فسار الهيم   كل صاحب القناة والساعدين

يا قتيلا بالقاع ملقى على الشط   هواه بطلبي الجاهليين

ما الذي في يديك انت اذا ما   اصطلح الناس انت بالخلتين

او وزير ام قائد بل بعيد   انت من ذين موضع الفرقدين

كم بصير غدا بعينين كي يبصر ما حالهم فعاد بعين

ليس يعدو ما يريدون ما بعد   رأسهم سوى الناظرين (٣)

١ـ الطبري ـ التاريخ ـ ج ٨ ص ٤٦٣، ٤٦٤

٢ـ الطبري ـ التاريخ ـ ج ٨ ص ٤٦٢

٣ـ الطبري ـ التاريخ ج ٨ ص ٤٦٦، ٤٦٧

وفي ذلك اعتراف بتعاطف العامة من الشطار والعيارين (البيت الاول)

وبيان لقدرتهم الخارقة في القتال ، كما ان في تلك الابيات اشارة واضحة الى موضع جماعات

الشطار والعيارين من الصراع بين الامين والمأمون ، وانهم لا يستفيدون من مناصرة احد

الطرفين ولا يطمعون الى الاستيلاء على الحكم •

والراجح ان فكرة الدفاع عن بغداد ضد الهجوم الاجنبي (الخراساني) كانت الوسيلة

التحريضية التي اعتمدها الامين واتباعه من اجل استغلال الامكانيات البشرية والدافعية

التي يتمتع بها الشطار والعيارون •

ولا شك ان الامين استطاع تحقيق غرضه عندما كسب الى جانبه تلك الجماعات التي قاتلت

بضراوة ، ليس لانه الخليفة الشرعي اولانه عربي ، كما اعتقد بعض الكتاب ، وانما لان الظروف

التي تمر بها حركتهم كانت تقتضي ذلك الموقف • فالعاصمة مهددة والعامة مهددة اكثر واتباع

الامين اقل شراسة من اتباع المأمون الذين تميز سلوكهم بالنهب والسلب • لذلك اتبع العيارون

سياسة تحييد الخصوم (الثانويين) وحرب المواقع •

يقول المسعودى " وثارت العراة ذات يوم في نحو مائة الف بالرماح والقصب والطرادات من

القراطيس على روؤسها ، ولفخوا في بوقات القصب وقرون البقر ، ونهضوا مع غيرهم من المحمدية

(اتباع محمد الامين) وزحفوا نحو المأمونية (اتباع المأمون) [١] ، وقد استعان " المستعينين "

في حربه ضد "المعتز" سنة ٢٥١ هـ بالعياريين وفرق لهم الاموال وجعل عليهم عريفا [٢]

ولنا في الاحداث اللاحقة بعد القرن الرابع شواهد على استعانة الدولة بجماعات الشطار

والعيارين والاستفادة بقياداتهم التي استطاعت ان تكسب تعاطف العامة ، حتى ان احد

الخلفاء (استنجد بعلي الزيبق لاخماد الفتنة التي حدثت في بغداد سنة ٤٤٣هـ بين

السنة والشيعة • وتعاون كبير العيارين " البرجمي " مع السلطان سنة ٤٢١هـ في الاشراف [٣]

على بغداد وجمع في يده الامر [٤]

١) المسعودى = مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٩

٢) زيدان (جرجي) ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ جـ ٥ ص ٤٥

٣) النجار (محمد رجب) ـ حكايات الشطار والعيارين •• ص ١٤

٤) العش (يوسف) تاريخ عصر الخلافة العباسية ـ ص ١٩٧

ورغم العون الذي كان يقدمه الشطار والعيارون للسلطان فانهم كانوا يتعرضون للمؤامرات ومعروف تاريخيا ، ان من طبع التجار الخداع والتواطؤ في سبيل مصالحهم الطبقية والشخصية . فهم دائما مع من تكون كفته راجحة .

بعد انسحاب رجال الامين سلخ التجار الطاعة عنه وتبرأوا منه واظهروا الطاعة للمأمون الذي بات نصره وشيكا . وهكذا كان من الطبيعي ان يتبرأوا من جماعات الشطار والعيارين ، فتواطأوا ضدهم لصالح طاهر (قائد المأمون) .ففي رسالتهم تبرأوا من هؤلاء " السفلة " الذين ليس " لهم بالكرخ دور ولا عقار ، وانما هم بين طرار وسواط وطاف واهل سجون . وانما مأواهم الحمامات والمساجد ، والتجار منهم انما هم باعة الطريق يتجرون في محقرات البيوع ، قد ضاقت بهم طرق المسلمين ... وما لنا بهم يدان ولا طاقة ، ولا نملك لانفسنا منهم شيئا ، وان بعضنا يرفع الحجر عن الطريق ، لما جاء فيه من الحديث عن النبي (ص) ، فكيف لو اقتدرنا على من في اقامته عن الطريق ، وتخليده السجن ، وتنفيه عن البلاد ، وحسم الشر والشغب ، ونفي الزعارة والطر والسرق وصلاح الدين والدنيا و اصلحه ان يبارك لنا احد "(١).

قطع الشر والشغب ، في نظر التجار ، يتم بالقضاء على المعدمين وزيادة تشريد هم ، بادخالهم السجن وتهجيرهم عن البلاد وتتجلى نظرتهم الارستقراطية في اعتبارهم ان حق المواطنة يتحدد بملكية الدور والعقار ، وتقلد الاعمال التجارية الكبيرة ، حتى انهم بينوا جشعهم وكشفوا تعاليهم حينما تبرأوا من باعة الطريق لانهم " يتجرون في محقرات البيوع " .

والحقيقة انهم حينما يقولون لقائد المأمون ، ان طرق المسلمين قد ضاقت بهؤلاء الباعة ، انما يريدون تصفيتهم من الاسواق ، وقطع المضايقات التي يشكلونها على تجارتهم .

---

١) الطبري -- التاريخ -- ص٨ ص٦٧ ٤ -- ٤٦٨

ولا تلبث انتفاضات العامة ، التي قادها الشطار والعيارون ان تعود بعد فترة من الهدوء النسبي ينصرف فيها الشطار الى البحث عن الاعمال واقتطاع الاموال من التجار • وفي ذلك دليل على اصرارهم على الانتقام من الطبقة الغنية التي تآمرت ضدهم للتخلص منهم •

اذا استثنينا مرحلة حكم المأمون والمعتصم (حكم المعتزلة) التي تميزت بانتعاش الحياة الاقتصادية والثقافية ، فان المرحلة التي عقبتها تعبرت ببعض التناقضات التي حملتها التجربة " المأمونية " وما صحبها من الاجراءات المبنية على ردات الفعل والانتقام من الخصوم الفكريين والسياسين • وهكذا لم يكتب للتوجه العقلاني المساواتي في الدولة العباسية ان يستقر •

واستنجد بعض الخلفاء اللاحقون بالعامة ، التي ينتمي اغلبها الى " اهل السنة " فاستفادوا من تأييدها بدعوى انهم يمثلون الاسلام الصحيح • ولكن البعض الاخر كان يستنجد بالعناصر التركية للقضاء على هيمنة العناصر الفارسية في دولتهم • وما لبث هؤلاء الخلفاء الجدد ان سيطروا على مقدرات الدولة ، فكانت الاستعانة بهم تحمل معهم خطرا كبيرا ، ليس على الوضع السياسي فقط بل على الحالة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع بأسره .

ولم تكن امكانيات الاتراك والبويهيين قادرة الا على ازدياد تفاقم الوضع واستفحال التناقضات في البنى الاجتماعية والاقتصادية • لانهم لا يمتلكون الخبرة في السياسة والاقتصاد بل كان هدفهم الوحيد يتمثل في الحصول على الثروة بالشكل السريع الذى لا يكلفهم جهدا • لذلك كان استخدامهم في الجيش ومنحهم الاقطاعات بدلا من الرواتب ، يجلب الدمار للأرض ويضرة الفلاحين في الفقر •

هكذا كان الوضع الاجتماعي والاقتصادي يزداد سوءاً • فكان لابدّ من ان تصحبه ردود فعل عنيفة ضد المتنفذين في السلطة والملكية ، وكانت اشهر ردات الفعل تلك الحركات الاجتماعية المنظمة كالتي خبرها الزنج والقرامطة في سواد العراق او التي اعلنتها البابكية في سواد خراسان والخوارج (١) في المغرب العربي • ولم تكن اوضاع المدينة بأحسن حالا من اوضاع الريف • لان اقتصاد المدينة كان يقوم آنذاك ، بدرجة اساسية على المنتوجات الزراعية حتى ان اغلب الحرف والصناعات في المدن كانت تستمد استمراريتها من استمرار الانتاج الزراعي • ومن جهة اخرى فان ضعف الاستقرار في الريف وما صحبه من ضعف في النشاط الزراعي اثر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالمدينة ، من حيث استيراد المحاصيل والمواد الاولية وتوزيع السلع المدينية في الاسواق الكاسدة •

وكانت فئة العامة في المدن شديدة التذمر من تدني مستوى المعيشة • فما لبثت الروح الثورية في حركة الشطار والعيارين ان اشتعلت من جديد ، في تلك البيئة لنفس الاسباب التي ذكرناها وظهرت نشاطاتهم بشكل خاص عندما وقعت الحرب بين المعتز (الذي عينه الاتراك) وبين المستعين (الهارب من سامراء الى بغداد) • فالتحم عياروا بغداد وشطارها بقوة المستعين عندما حوصرت بغداد (٢) • ومن بين اعمالهم ان العامة بقيادة فرق الشطار والعيارين تمكنت ، في سنة ٢٦١ هـ من تحطيم شبابيك قصر الخلافة بغية الوصول الى الخليفة (٣) يقول ابن الاثير " وظهر في تلك الفتنة عدة قواد من العيارين تقسموا السلطة في بغداد "(٤) ويقول التوحيدي " حصل لنا من العيارين قواد ، واشهرهم ابن كبرويه ، وابو الدود ، وابو الذباب ، واسود الزبد وابو الارضة ، وابو النوابح ، وفشت الخارة واتصل النهب وتوالى الحريق ، حتى لم يصل الماء الى ...

---

١) انظر كتاب قاسم عزيز : البابكية
٢) العش (يوسف) تاريخ عصر الخلافة العباسية ... ص ١١٨
٣) العش (يوسف) نفس المرجع ... ص ٨١

د جلة «اهل الكرخ »(١)

(ب) التركيـب الاجتماعـي :

يسمح لنا التحليـل السوسيولوجي بأن نفترض ان العدد الهائل من الشطار والعيارين الذى بلغ عددهم حوالي مائة الف في احدى انتفاضاتهم ، لم يكن يشمـل ذوى الاصول العربية فقط •

ذلك ان المجتمع المديني البغدادى لم يكن خاضعا آنذاك للتقسيم السكاني القائم على اصول العصبيات (الاقوامية) ، بقدر ما كانت الحالة الاجتماعية هي التي تحـدد الخارطة السكانية • فاغلب حوادث العيارين وتحركاتهم كانت تقع في الجانب الغربـي من بغداد ، وهو الحي الذى يسكنه الموسرون • فمن جملة ما احرقته العامة بقيادة الشطار والعيارين " محلة الكرخ " يقول المؤرخون انها كانت معدن التجار •(٢) اما العامة فكانت تقطن الجانب الشرقي ، ومعظم اهل السنة فيه ، واما فئـات الشطار والعيارين ، التي تنتمي الى العامة فكانت تقيم في غالبيتها بذلك الجانب • ونتيجة لفقرهم المدقع ، كان الشطار والعيارين يتخذون من المساجد والحمامـات مكانا للنوم والراحة • وفي النهار ينتشرون في الاسواق والدروب •

ان الحالة الاجتماعية للشطار والعيارين كانت تدل على ان تكوين جماعاتهـم لم يخضع الى اسس الانتماء الى العرب او الى الفرس او غيرهم لوجود قادة من اصـول مختلفة ، في حركتهم ، امثال ابن كبرويه وتيلويه والبرجمي وغيرهم • فقد وحـدت بينهم حياتهم المتردية واهدافهم في التمرد على التجار وذوى السلطان •

ومن المؤسف ان كل اخبار الشطار والعيارين نستقيها من كتابات خصومهم • فقـد كان بالامكان التعرف على اصولهم الاجتماعية واعمالهم بشكل افضل ، لو ان بعضـا منهم ترك لنا شيئا عن ذلك ، على اننا لا ننفي الطابع الفوضوي الذى ميز حركتهـم وفقدانها للاهداف السياسية ، وابتعادها عن مجال التنظير • بالاضافـة الى ذلك فان السبيل الوحيد الذى اتخذته العامة للحفاظ على اخبار الشطار والعيارين واقوالهم لا يتجاوز تسجيل الجوانب الغريبة والطريفة من فعالياتهم •

---

١) التوحيدى (ابو حيان) ـ الامتاع والمؤانسة ـ ج ٣ ـ ص ١٥٩ ـ ١٦٠

٢) ابن الاثير ـ الكامل ـ ج ٧ ص ٤٥

وقد احاط القصاص الشعبيون والرواة حكاياتهم باسلوب يعتمد التحوير في تلك الاخبار بالنقص والزيادة ، بما يتلاءم مع عناصر التشويق والاثارة في فن القصص الشعبي • وذلك مما يجعلهم يركزون على سير " الابطال " ويخلطون بين شخصية واخرى ، فتصبح امكانية الاستفادة العلمية من ذلك ضئيلة •

لقد رأينا في رسالة تجار بغداد ، الى قائد المأمون تبرأ من الشطار والعيارين وتحريضا عليهم ووصفا لعلاقتهم بهم • ولكننا ايضا ، نلمس صدقا في التعبير عن تركيبة العيارين ، فهم ينطلقون من منطلق طبقي لا غبار عليه " ليس لهم بالكرخ دور ولا عقار وانما هم بين طرار وسواط ونطاف واهل سجون ، وانما مأواهم الحمامات والمساجد ، والتجار منهم انما هم باعة الطريق ، يتجرون في محقرات البيوع ، قد ضاقت بهم طرق المسلمين •• انهم على حد ذلك التصنيف يتكونون من مجموعات العاملين في الاسواق من حمالين وعتالين وباعة متجولين ونظار ، وغيرها من الاعمال الموقتة ، بالاضافة الى العاطلين عن العمل المتسكعين في اسواق الكرخ ودروب بغداد ، وجماعات " اللصوص " الذين اعيتهم البحث عن العمل فوجدوا في سرقة الموسرين طريقا وسبيلا ، وهؤلاء اكثر تمركزا خارج بغداد " وقد عبر عنهم الغزالي بقوله " اما اللصوص فمنهم من يطلب اعوانا ويكون في يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالاعراب والاكراد ، واما الضعفاء منهم فيفزعون الى الحيل اما بالنقب او التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة ، واما ان يكون طرارا او سلالا الى غير ذلك من انواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الافكار المصروفة الى استنباطها •• "(1)

والعيار على حد تعبير الناس هو (الفتى الذى لا يزنى ولا يكذب ويحفظ الحريم ولا يهتك

---

1) الغزالي ـــ احياء علوم الدين ـــ ج ٣ ص ١٩٧

ستر امرأة ، وهو ان احال السرقة فلا يسرق الا المترفين ، واذا قطع الطريق وعرض له رجل فقير فهو يتركه يسير بسلام ، واذا عرض له رجل متوسط في الغنى اقتسم معه المال شطرا بشطر (*) ، واذا لجأ احدهم اليه اجاره وحماه (١)

على ان جرجي زيدان يميز بين فئتي الشطار والعيارين ، فالشطار عنده (اكثر انتشارا في المملكة الاسلامية (٢) . ونحن نرى ان شيوع التسمية في المرحلة اللاحقة هو الذي جعل زيدان يعممها دون ان يبين ان الشطار والعيارين في مرحلة نشوء حركتهم وحتى وقت متأخر ، كانوا يمثلون رشيئا واحدا . فالفرق في شيوع التسمية " شطار " لا يتعلق بجوهر الحركة من حيث تركيبتها واهدافها ، ثم اننا لا نجد تفريقا جديرا بالملاحظة لدى المؤرخين وفقهاء اللغة يدلنا على ان " الشطار " والعيارين " يمثلون فرقتين متمايزتين اجتماعيا او تاريخيا .

ان نظام الشطار والعيارين في العراق شبيه بانظمة الفتوة في الشام والاحداث في حلب والزعار والحرافيش في مصر ، وذلك في اخلاق المروءة .

ونجد كثيرا من الخلط لدى طائفة من الباحثين ، بين ظاهرة الشطار والعيارين وظاهرة الفتوة " قال الترمذي : الفتوة ان تكون خصم نفسك لربك ، وقال المحاسبي : الفتوة ان تنصف ولا تنصف . وقال الجنيد : الفتوة كف الاذى وبذل الندى وترك الشكوى . وقال الشيباني : الفتوة الصدق عند الامتحان والرفق عند الجفاء ، والبذل عند الفاقة ... وقال احمد بن حنبل : الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى (٣) ...

---

*) لعل تسمية " الشطار " جاءت من ان احدهم يقسم اموال الاغنياء شطرا بشطر اي نصفا بنصف .

١) العش (يوسف) ـ نفس المرجع ص ١٩٦

٢) زيدان (جرجي) ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ جـ ٥ ص ٤٦

٣) ابن المعمار البغدادي الحنبلي ـ كتاب الفتوة ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤

تلك اقوال تدل على ان الفتوة ، في معناها العام ، " طريقة " للاخلاق الاجتماعية ، تقوم على التدين والامر بالمعروف ، والصبر على الالم والحرمان ، والمروءة . وهي " فرقة قريبة من احدى فروع الصوفية " (١) ، التي غلت نقية وملتزمة بتطبيق نظامها الاخلاقي والاجتماعي .

اما الشطار فلم يتركوا الشكوى ، ولم يكونوا خصوم انفسهم ، بل كانوا خصوم الطبقة الغنية ، وخصوم الحكام ، كما انهم اتبعوا اسلوب العنف في حياتهم . ومن جهة اخرى فان دراسة الاصول الاجتماعية للحركتين ، كما هو الحال بالنسبة لعاداتهما واخلاقهما الاجتماعية ، تدل على ان الاساس الطبقي لكلتاهما لم يكن واحدا .

فالفتوة نظام اجتماعي يشمل بشكل خاص ، عددا من الشبان من طبقات مختلفة . فقد تفتي ابناء التجار والخلفاء والامراء وغيرهم يقول مصطفى جواد :

" روى ابو الفرج الاصفهاني ، ان علي بن الجهم كان يعاشر جماعة من فتيان بغداد لما اطلق من حبسه ، ورد من النفي ، وكانت تلك الجماعة تألف الفتيان .. في منزل رجل اسمه الفضل يسكن بالكرخ ، وكان من ارباب القيان (٢) " تلك الرواية وغيرها تدل على ان الفتيان غير الشطار والعيارين فالفتيان يجتمعون للسهر في مجالس الشراب والغناء (موطن تجار بغداد) ، وذلك يدل على ان حالتهم الاقتصادية جيدة ، وهذا ما يتنافى مع ما توصلنا اليه من ان الشطار والعيارين ينتمون الى الفئات الفقيرة ، الباحثة عن لقمة العيش ، المعادية لاغنياء بغداد .

وحسب رأينا ، فان الفتوة (في العصر العباسي) كانت شبيهة بظاهرة الفروسية في اوربا في القرون الوسطى حينما كانت مرتبطة بطابقة النبلاء (Les Nobles)

---

١) ابن المعمار البغدادي ـ نفس المصدر ص ١٥٠

٢) ابن المعمار ـ نفس المصدر (المقدمة ص ٢٠)

واذا كان الدارسون الاجتماعيون يرون في ظاهرة الصعاليك والطرفاء ، التعبير الحي عن التفكك والانهيار الذى اصاب العلاقات الاجتماعية والاقتصادية داخل بنية القبيلة العربية في " العصر الجاهلي " وعصر الاسلام الاول . فاننا نعتبر ان حركة الشطار والعيارين كانت تتميز بنفس المستوى ، في التعبير عن التفكك الاجتماعي الذى اصاب المجتمع العباسي .

(د) التنظيم :

كانت حركة الشطار والعيارين ذات تنظيم هرمي يترأسه " الامير " وكانت لهم شروط خاصة في الانتماء اليهم . لكل عشرة منهم " عريف " ولكل عشرة عرفاء " نقيب " ولكل عشرة نقباء " قائد " ولكل عشرة قواد " امير " (١)

يقول المسعودى : " ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده ، فالعريف له اناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة ، وكذلك النقيب والقائد والامير .. " (٢)

والملاحظ ان المؤرخين لم يمدونا ، عن تنظيمات الشطار والعيارين بما يزيد عن تنظيمهم العسكرى ، خلال عملياتهم القتالية .

رغم ذلك فان تلك المراتب ، على اختلافها ، تدل على ان حركتهم كانت منظمة ، وان قياداتهم كانت تحظى باحترامهم .

ففي الحصار الاول لبغداد سمي تنظيمهم العسكرى بـ " كتائب الهرش " (٣) وكان تركيز الحركة على عنصر الشباب جليا ، لان طبيعة اعمالها تتطلب النشاط الجسماني والقدرة على الكر والفر . لذلك كانوا ينتحون جانبها بالشباب الذين يتوسمون فيهم القدرة على تحمل اعمال حركتهم ، والقناعة بمضامينها . ويبدو ان الفتيان كانوا يمثلون

---

١) المسعودى – مروج الذهب – جـ ٣ ص ٤١١ ، ٤١٢
٢) المسعودى – نفس المصدر والصفحة
٣) ابن الاثير – الكامل – جـ ٥ ص ١٥٨

بالنسبة للشطار والعيارين ، هامشا لحركتهم ، لما يتميز به الفتيان من حب المغامرة واخلاق الفروسية .

يقول الجاحظ : " وان الشطار ليخلو احدهم بالغلام الغرير فيقول له لا يكون الغلام فتى ابدا حتى يصادق فتى / والا فهو تكش ، والتكش عندهم الذي لم يؤد به فتى ولم يخرجه / ، فما الماء العذب البارد بأسرع في طباع العطشان من كلمته ، اذا كان للغلام ادنى هوى في الفتوة (١)

يسمي ابن الاثير جماعة الشطار والعيارين المنظمة " ابناء النبوية " وقد ظهرت تلك الجماعات في اواخر القرن الرابع حينما اصبح لهم في كل حرب امير وفي كل محلة مقدم ، واشتد امرهم بذلك النظام فجبوا الاموال وفرضوا الضرائب . (٢)

---

١) الجاحظ ــ الحيوان ــ جـ ١ ص ١٦٨
٢) فهد (بدري محمد) ــ العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ــ ص ٢٩١

الخاتمـــــــــــــــــة

" خلاصة البحــــث "

========

===

===

لدراسة الصراع الاجتماعي في المجتمع العباسي قمنا بتقسيم البحث الى مدخل منهجي وثلاث فصول . اما المدخل فهو عبارة عن تمهيد وضحنا فيه اهمية الدراسات الاجتماعية التاريخية . وبيّنا ان العلاقة بين علمي التاريخ والاجتماع علاقة متينة وتاريخية . وذكرنا المنطلقات التي تنطلق منها دراستنا ومنها محاولة المشاركة في الجهد المبذول من قبل الباحثين العرب في تحديد بنية المجتمع العربي القديم والحديث ، وتفسير الاحداث والظواهر التي يشهدها وذلك بهدف تفسيره وتطويره نحو الافضل بتجاوز مشكلات التخلف والتجزئة . ثم بينا السبل المتبعة لتحقيق ذلك الهدف والاشكالات التي تعترض الباحثين .

ثم عرّجنا على علاقة الدراسة الاجتماعية - التاريخية بمسألة الموضوعية فالموضوعية مسألة منهجية ضرورية فهمًا لصانة للعلوم الانسانية لكي تتجاوز بعض المزالق وبيّنا موقفنا من تلك المسألة حيث ان تحقيقها لابدّ ان يلزم الباحث في اطار العلوم الانسانية ، بالتحيز للحقيقة العلمية ، والمنفعة الانسانية في نفس الوقت .

ثم لخّصنا الصعوبات الاساسية التي تعترض البحث الاجتماعي التاريخي في الوطن العربي . وانتهينا من ذلك المدخل الى تحديد شامل لعدد من المفاهيم الاساسية في البحث .

اما فصول الرسالة فانها تنقسم ملخصة الى ما يلي :

= <u>الفصل الاول</u> : البنى الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العباسي . فالحديث عن تلك البنى باعتبارها متكاملة يغدو امرا نسبيا والعلاقة بينها اكيدة . كما ان الخوض في بحث تلك البنى يعتبر امرا ضروريا ، وذلك بهدف تجاوز الصادرات النظرية التي تتهرب من دراسة تطور التشكيلة الاجتماعية في المجتمع العربي الاسلامي .

وكما يقول المثل العربي " مالا يدرك جله لا يترك كله " فان التطور الكمي والكيفي في الدراسات المتعلقة بتلك البنى الاقتصادية والاجتماعية كفيل بالوصول الى تحديد واضح المعالم .

ان استخدامنا للمنهج العلمي التاريخي مكننا من التعرف على اهم التغيرات في بنية المجتمع العباسي ، وكيفيات حدوثها .

اما ذلك التغير الاجتماعي فقد كان مشروطا بـ : التطور الموضوعي والتطور الذاتي الخاضع بشكل من الاشكال لاجراءات الخلفاء التي اثرت تأثيرا ايجابيا (في المرحلة الاولى) وسلبيا (في المرحلة الثانية) من الحقبة العباسية .

واعتمدنا التعرف على النظم الاقتصادية والاجتماعية من خلال وضع العلاقات الاجتماعية والانتاجية في انساق رئيسية غاضين الطرف عما كان هامشيا في الظواهر والعلاقات الجزئية المنفصلة .

ووجدنا ان الدولة العباسية ، اعتمدت منذ نشأتها على وضع نظام للجباية تشرف عن طريقه اشرافا مباشرا على كل الاراضي والرعايا . كما اعتنت بزيادة مواردها المالية فاهتمت بالزراعة والصناعة والحرفة والتجارة مما ادى الى تضخم اجهزتها . وتوطدت الملكيات الاقطاعية الكبيرة الخاضعة مباشرة لاشراف الدولة المركزية . وقد ادى التطور الاقتصادي في المدن الى غلاء الاسعار واحتدام التناقض بين من يملكون ومن لا يملكون . فظهرت فئة التجار ، فئة مالية قوية ، حصلت على اعفاء من بعض الضرائب .

وتوصلنا الى ان علاقات التبادل والتوزيع لم تكن متكافئة . كما ان ميزانية الدولة كانت غير مستقرة الموارد ، لتأثرها بالاوضاع السياسية والاجتماعية العامة وسياسة الخلفاء الشخصية . وقد عرضنا بعض الجداول التي تبين خراج الارض العائد الى الدولة وذلك لنبين اهمية التطور في الانتاج الزراعي ومردوده

على الخزينة وكيف ان ذلك التطور لم يكن مطردا بفعل العوامل المستجدة والاحداث وبينا كيف ان الدولة تسعى نحو ضبط سياستها في المجال الاقتصادى عن طريق اهتمامها بالتشريع الاقتصادى . وقد ظهر ذلك من خلال كتاب " الخراج " للقاضي ابي يوسف صاحب ابي حنيفة الذى الفه للرشيد داعيا فيه الى الاصلاح .

وقسمنا انواع الاراضي بحسب الضريبة وهي نوعان :

الخراجية (وهي ما افتتح عنوة مثل السواد وغيره وفيه تفصيل)
العشرية (وهي التي اسلم عليها اهلها وارض الحج والعرب وفيها تفصيل)

اما الاشكال الرئيسية للملكية العقارية فهي :

١ـ الاقطاع ، ٢ ـ الاراضي المستصلحة ، ٣ ـ الشراء ، ٤ـ الالجار ، ٥ـ الوقف ، ٦ـ المشاع ، ٧ـ الالجاء .

وكانت الملكية العقارية خاضعة للتبدل المستمر نتيجة تدخل الدولة وشيوع المصادرة والبيع والايجار وغيرها .

وقد تركزت تلك الملكية في صفوف الارستقراطيات العربية (وجهاء العرب وافراد الاسر الحاكمة) والفارسية (رجال الدولة الفرس والدهاقون) والتركية (القادة العسكريون والامراء)

- وقد ميزنا نوعين من الاقطاع :

اقطاع ادارى (بيروقراطي) توطد في الفترة الاولى واقطاع عسكرى ـ توطد في الفترة الثانية .

ولاحظنا ان الاقطاع العسكرى كان يجلب معه الدمار على الاقتصاد والسياسة

لان ابعاده لم تكن انتاجية ، نتيجة طبيعته الجشعة (حب الربح السريع) ، وتبعيته للعناصر الاجنبية غير المستقرة ولا الخبيرة بطبيعة الارض .

ووجدنا ان كتاب تجارب الامم لمسكويه يمدنا بمادة كافية فيما يتعلق بالحالة الاقتصادية في مرحلة سيطرة الاقطاع العسكري .

- خصائص التشكيلة الاجتماعية في المرحلة العباسية (بشكل عام)

١- غياب الملكية الخاصة للارض بمعنى الحرية المطلقة في التصرف (كالتوريث) ما عدا الملكيات الكبيرة الخاضعة الى عدد محدود من رجال الدولة واقارب الخليفة ، وهي وان بدأت خاصة ودائمة فان الخليفة يمتلك الحق في مصادرتها كما حدث لبعض الوزراء .

٢- ابتعاد الملاك الكبار عن الارض :

٣- اشراف الدولة المباشر على اعمال الري .

٤- تمتع الفلاحين العاملين في الارض بنوع من الاستقلالية النسبية اذ انهم لا يقطعون مع الارض .

٥- ظهور أشكال من العمل الزراعي التعاوني في القرى ، ودفعهم الضرائب بشكل مشترك لممثلي الدولة ، وتسويقهم المشترك للانتاج . ولا تتدخل الدولة في شؤونهم الا في الحالات التي تهدد مصالحها .

٦- الارواء الاصطناعي .

- ان تلك الخصائص التي ميزت التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية طوال المرحلة المدروسة ، تجعلنا نرفض بوعي مبدئي ، الآراء التي تجعل من نموذج الاقطاع الاوروبي اساسا مطابقا للاقطاع العربي " الشرقي " الاسيوي " . هذا النمط الخراجي " في الانتاج فيه من الفوارق والخصائص ما يميزه ، وقد رأينا دور الدولة

المركزية والظروف الطبيعية في توطيد ذلك النظام الانتاجي .

ومن جهة اخرى فان الحديث عن تداخل في التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع العباسي يصبح امرا مستبعدا لان نظم الانتاج المتعددة وتداخلها ليس سوى حركة طبيعية تشكل ملمحا من ملامح التغير الاجتماعي ، وهي على تعددها ، لا تمثل تشكيلات متعددة ، لانه مفهوم " التشكيلة " ابعد غورا واكثر تعقيدا من مفهوم " النظام " الجزئي الخاضع للتلاشي والتفكك السريع حينما لا يجد اسسا موضوعية كافية لتدعيم استمراره بجانب النظم الانتاجية الاخرى .

واستنادا الى ان تاريخنا القديم لم توجد فيه الملكية الخاصة التي كانت متحررة من المصادرة والغرائب ، أليس من الجدير التنبيه الى اهمية تلك النتيجة والمقدمة في نفس الوقت في عملية التغير الاجتماعي في المجتمع العربي المعاصر . وخاصة في عمليات التحويل الاشتراكي في مجال الزراعة . هذه النتيجة تبطل ابطالا علميا تاريخيا ، ادعاءات خصوم التحويل الاشتراكي القائلة بالابقاء على الملكية الخاصة الصغيرة للارض بدعوى ان نفسية الفلاح العربي تعاملت مع الارض كملكية خاصة لمدة زمنية طويلة ، فليس من السهل ان يتقبل عملية الاصلاح الزراعي . ولا بدّ للمهتمين بالتنمية الاشتراكية في مجتمعنا ان يراعوا هذه المسألة وهذا التميز الذى يكاد يتفرد به تاريخنا الاجتماعي والاقتصادى .

— مفهوم البنية الاجتماعية وأسس المركز الاجتماعي :

وقد قسمناها الى قسمين : الاساس الطبقي القائم على الموقع من الثروة والسلطة . والاساس الاجتماعي القائم على النسب والشرف .

وقد اعتمدنا ذلك ليس لانهما يمثلان معا النموذج الامثل في تقسيم البنية الاجتماعية ، وانما لانهما كانا يمثلان النموذجين الاساسيين المعتمدين في المجتمع العباسي وبدأنا ذلك بالحديث عن البنية الاجتماعية التي قامت عليها " الثورة العباسية " وناقشنا ذلك المفهوم ، والخلفية الاجتماعية الاولى للنظام الجديد . ثم قمنا

بمناقشة مقارنة بين مفهومي " التركيب الاجتماعي " و " التراتب الاجتماعي " ، وتوصلنا الى تفضيل الاول في مجال دراستنا لانه يمتلك قدرة تحليلية للمجتمعات التاريخية ويلائم منطلقنا في دراسة الصراع الاجتماعي .

ثم استعرضنا بعض المفاهيم المتعلقة بالتركيب والصراع في الوحدة الاجتماعية المدروسة . ووجدنا ان المجتمع العباسي عرف نظام الطبقات .

وتغدو مهمتنا في رصد كيفية حدوث الفرز الطبقي شاقة ، لذلك نبهنا الى اننا حينما نتحدث عن بدايات ونهايات ، وتحولات في جوهر الطبقات والفئات الاجتماعية فليس ذلك سوى نوع من التعميم الذي يستند الى النظرة الجدلية التاريخية ، وهو جهد كبير ، رغم عموميته فهو لا يفقد طابعه العلمي .

- ١ التقسيم الطبقي :

ويقوم على اسس محددة تتلخص في مستوى الدخل (الثروة) والمكانة الاجتماعية (درجة القرابة من السلطة) . وهما مؤشران مترابطان ، ووجدنا ان ابن خلدون يقسم الطبقات على ذلك الاساس المزدوج .

ثم قسمنا المجتمع العباسي منذ قيام الدولة في بغداد وحتى نهاية القرن الرابع الهجري الى ثلاثة انواع من الطبقات وهي : [الخاصة، الوسطى ، العامة] واشرنا مرة اخرى ان ان ذلك التقسيم خاضع للتعميم يمثل خضوعه لاجتهاد الباحث المستند الى المصادر

فالتركيب الطبقي العباسي هو عبارة عن سلم قمته طبقة الحكام والاشراف وكبار التجار تتلوها درجات متوسطة يحتلها الموظفون والدهاقون وقادة الجيش والكتاب الموالون واصحاب الصناعات والحرف ، وينتهي اسفله بطبقة الفلاحين والعمال والعبيد وحثالة العامة ، من الشطار والعيارين والفتيان والعاطلين عن العمل .

وكانت الفئات الاجتماعية متحركة ابدا ، وخاصة الطبقة الوسطى لانتقالها بين مكانة اجتماعية واخرى ، ولتغير احوالها المعيشية .

وخلال دراستنا لذلك قمنا باستعراض بعض الآراء السائدة للعصر المدروس في تصنيف الطبقات الاجتماعية وخاصة تصنيف الغزالي وتصنيف اخوان الصفا للصنائع .

ومن بين الاشارات الهامة التي تعرضنا لها بالدرس ،ان العبيد كفئة من فئات طبقة العامة ،لم يكن وضعهم الاجتماعي بأسوأ مما كانت عليه نفس الفئات من المجتمعات الاخرى القديمة والمعاصرة . فرغم انهم كانوا محرومين من الملكية الخاصة ،وبعضهم كان خاضعا للاعمال الشاقة ،فانهم كانوا اكثر حظا من غيرهم (العبيد) من حيث التشريعات المتعلقة باهليتهم والامكانيات التي توفرت لتحريرهم كما ان مشاركتهم الثقافية والدينية كانت تشكل مدخلا لنشوء الوعي في صفوفهم ودخولهم صفوف المعارضة .

٢ـ التقسيم القائم على النسب:

وهو التقسيم الخاضع للانتماءات الاقوامية ،والقبلية . ووجدنا ان المجتمع انقسم الى شقين في اعتماد ذلك التقسيم . فالعرب اعتمدوا على اثبات النسب من خلال العراقة في الانتماء الى اجدادهم من الهاشميين وقريش . . والموالي من خلال علاقتهم بالاسلام ورسوخهم في الولاء للدولة على حد تعبير ابن خلدون .

ولكن ذلك التقسيم بدا نسبيا في القرنين الثالث والرابع عندما اشتدت الاحوال الاقتصادية والاجتماعية سوءا في طبقة العامة ما عدا ما كان يدور بين اطراف الحركة الشعوبية ،من صراع فكري ـ ثقافي .

ـ الفصل الثاني : الصراع السياسي

١ـ النقد الاجتماعي والسياسي يرفد الصراع السياسي :

يعتبر الكاتبان : ابو حيان التوحيدي وابو العلاء المعري خير من عبر عن الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في اواسط العصر العباسي . ويعتبر موقفهما النقدي

اشكال التدهور الحياة الاجتماعية ، فاستشهدنا بنماذج صريحة من اقوالهما الادبية

وتوصلنا الى ان نقد الكتاب كان ينصب على ظواهر الفساد السياسي (الرشوة الاستبداد ، الظلم ..) والاجتماعي (التفرقة ، التعصب ، الترف ، الفقر ، التزلف ، الغلاء ، المصادرة ، الاقطاع ، زيف النقد ، تضاعف الخراج ، تفطرس الجند ، انحراف الشرطة) .

فذلك يدل على ان المثقفين لم يكونوا جميعا بمعزل عما يجري في عصرهم من احداث فليس باستطاعتنا الا التأكيد على حقيقة التفاعل بين الكتاب ومجتمعهم بقطع النظر عن التفاوت بين تأثر كاتب وآخر سلبا او ايجابا .

ثم قمنا باستقراء لبعض المواقف النقدية المعارضة من خلال الاقوال المتداولة شعرا ونثرا ، ووجدنا ان معظمها ينصب على نقد جور الحكام وتسلط جباة الخراج واستغلالهم ، ويطالب بتحقيق المساواة بين جميع العناصر المكونة للمجتمع .

فالموالي الخراسانيون الذين كانوا وقود الثورة العباسية وحلفاءها لم يلبثوا ان تحولوا الى صفوف المعارضة ، لان العباسيين لم يفوا بوعودهم واكتفوا بتقريب الاسر الفارسية الارستقراطية التي عانى الموالي في بلاد فارس وخراسان من تسلطها قرونا طويلة .

كما لاحظنا ان الحكم العباسي بدأ يتحول الى نظام يستند الى الحكم الالهي فضلا عن التوريث واستشهدنا في ذلك بأقوال المنصور . وقد ادى ذلك الى تمركز الدولة واستفحال الاستبداد فيها بشكل يجعل من معارضة سياسة الخلفاء امرا مستحيلا .

وقد زاد في تعميق القطيعة مع الناس اجراءات الهيبة والتعالي التي احاطوا بها انفسهم ، وتفشي ظاهرة التزلف وما صحبها من المجاراة والطمع ، فتكونت فئة واسعة من الشعراء والكتاب والندماء والخدم وكانت محاولة تحقيق التوازن التي اتبعها بعض الخلفاء (المهدي مثلا) وانشاء ديوان المظالم ، تنم على خطوة

زكية في سبيل تدعيم الدولة والاسساك بعد ميزان القوى الذى بدأ بالتصدع . ولكن تلك الاجراءات لم تتوفر لها ضمانة الاستقرار بعد غياب ذلك الخليفة .

٢- الصراع بين الدولة والمعارضة :

ومهدنا لذلك بالحديث عن دور الشعر العربي في بلورة آراء المعارضة ونشر افكارها بين الناس . لان الشعر بما يتميز به من صور بليغة ، واساليب موثرة يتشوق لها الانسان العربي منذ القديم ، كان يمثل الواجهة الاعلامية والدعائية للافكار السياسية والاجتماعية ، بمثل ما كان يمثل الديوان الذى تسجل فيه الاحداث والمواقف التاريخية ليسهل حفظها وترديدها .

ثم تحدثنا عن بدايات الصراع السياسي منذ معركة صفين ، ونبهنا في مجرى استعراضنا لمختلف الاتجاهات التي استمر وجودها حتى العصر العباسي ، الا ان هناك صعوبة تعترض الباحث تتمثل في الاخبار المتعلقة بالخلافات السياسية واحد هيبة ترتبط بموقف المورخين وكتاب الفرق المتحيز الى طرف دون آخر فتختلط الحقيقة بالوضع والوصف الحطي بالوصف الاخلاقي والخيالي .

وتوصلنا الى بعض الحقائق المتعلقة بطبيعة الصراع وهي :

١- ن جوهر الخلاف كان يدور حول مسألة الخلافة (الحكم)

٢- تسم الصراع لدى بعض الاطراف المعارضة بالبعد الاجتماعي

٣- اتسم بالعنف والعنف المضاد .

٤- اتسم الصراع مع السلطة بالانقطاع

٥- لم يكن الصراع متكافئا لقوة الدولة وحزمها في الرد على المعارضة

٦- لم يكن الصراع منظما ، حيث كانت المواجهة تتم بشكل مفرق مرتبط ببعض الزعامات ومن جهة اخرى لم تظهر اشكال من التحالف بين اتجاهات المعارضة . ويررنا ذلك بسعي كل الاطراف نحو الحصول على الحكم ، واعتقادها بانها اولى من غيرها بالخلافة

بعض من سمات المعارضة :

١- انها كانت اكثر التزاما بتعاليم الاسلام في المستوى النظري على الاقل ،
حيث اخذت المعارضة السياسية شكلا دينيا

٢- تبنيها لقضايا العدالة والمساواة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر

٣- غلبة الروح العقلانية على آرائها الاعتقادية واعتمادها على التأويل في
تبرير مبادئها .

٤- اعتمادها على العمل السري

٥- انعدام فكرة العمل الجماعي بين احزاب المعارضة

وتعرضنا الى نماذج من مواقف العلماء المعارضين ، وبيّنا جرأتهم في نقد السلطان وامتناعهم عن التعاون معه ودعوتهم للاصلاح (مالك ، ابو حنيفة ، ابن المقفع) . وقمنا بدراسة موجزة للفكر الاجتماعي والسياسي عند الفارابي ، وردنا على الرأي القائل بأنه لم يأت بجديد غير نقله لفلسفة اليونان (افلاطون) ، فالمهم بالنسبة لنا ان فكره يعتبر تطورا طبيعيا للفكر الانساني ، كما ان صياغته كانت منسجمة مع المجتمع والحضارة اللذان ينتمي اليهما .

وقمنا باستعراض لدور الجمعيات العلمية والثقافية في توطيد التقدم العلمي والاجتماعي فجسدت جمعية اخوان الصفا ذلك، وتعدته بما كونت لنفسها اهدافا سياسية اصلاحية واتبعت اسلوبا سريا في حركتها ووجدنا ان فكرة الحرية والاختيار احتلت مكانا بارزا في الصراع الفكري لدى مختلف التيارات تقريبا . كما ركزنا على فترة ازدهار الفكر العقلاني الذي عبرت عنه فرقة المعتزلة التي توصلت الى السيطرة على مؤسسات الدولة ، ولكنها اتبعت اسلوبا عنيفا في الرد على الخصوم السياسيين والايديولوجيين . وفي اطار ذلك الصراع اشتد عود المعارضة السنية (للمعتزلة والعقلانيين) ، وادى ذلك الى سقوط دولة المعتزلة " وتعرضهم لمحنة كبيرة .

وكانت مشكلة خلق القرآن تمثل المبدأ الاساسي الذي دار حوله ذلك الصراع . وهكذا اسهم قادة المعتزلة السياسيين في خلق معارضتهم بايديهم وتحولا اغلب جماهير العامة الى اعداء لحركتهم لانهم كانوا اكثر عزوفا عن مبادئ الاعتزال . وتحدثنا عن المعارضة الاموية بشكل موجز ، لان دورها الاجتماعي والسياسي لم يكن ذا اهمية كبيرة .

ثم انتقلنا للبحث في اهم قوى المعارضة السياسية التي واجهها العباسيون فأكدنا على الدور البارز الذي احتله حزبا " الخوارج " و " الشيعة " فبحثنا في تسميتهم ونشأتهم وعقائدهم واهدافهم وفعالياتهم وعلاقاتهم بالنظام العباسي ، وفرقهم ، فقرأنا في مبادئ الخوارج نزعة ديمقراطية طرحت كبديل للنزعة الارستقراطية . وقرأنا في حركة محمد ذي النفس الزكية في الحجاز تطورا جديدا للحركة الشيعية الثورية . لما وصلت اليه من تهديد للدولة القائمة وقدرتها على ان تلفحولها جماهير العامة المحدمة في مكان ثورتها حتى اصبحت الحركة العلوية في ذلك الوقت ، تمثل رمزا للمعارضة واملا في حكم جديد يحقق العدل والمساواة بين الناس، اكثر من تعبيرها عن حق العلويين بالخلافة .

وكانت الحرب بين الطرفين (العباسي والعلوي) تسبق بحرب كلامية ، فاستعرضنا الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد .

٣ــ الصراع بين العباسيين والموالي :

وقد تجسد هذا الصراع في مظاهر مختلفة مثل :

١ــ الصراع بين ابي مسلم الخراساني والمنصور

٢ــ الصراع بين البرامكة والرشيد

٣ــ الصراع بين الامين والمأمون .

وكان لذلك الصراع خلفياته الاجتماعية الطبقية والسياسية والعنصرية والثقافية . اما جوهره فلم يكن في حقيقة الامر تناقضا او صراعا قوميا " كما يغلب على الاراء

المعاصرة . بل كان نوعا من التعصب للعنصر ، لاسباب موضوعية وذاتية . وهذا ما جعلنا نميز بين شكلين اتخذتهما الحركة الشعوبية "على امتداد العصر العباسي . فقد اخذت في شكلها الاول (زمنيا) بعدا اجتماعيا ينادي بالمساواة بين العرب والموالين منذ العصر الاموي . اما في شكلها الثاني فان الشعوبية اقتصرت على الجوانب السياسية والثقافية من الصراع بين العناصر العربية والفارسية . كما انها نشطت في طبقة الخاصة بين الارستقراطيين المتنازعين على السلطة (العربية والفارسية) . كما شمل نشاطها الكتاب والمثقفين الذين تفننوا واجتهدوا في اعطاء ذلك الصراع ابعادا خطيرة في توجيه اهتمامات الثقافة آنذاك .

وقد بينّا الجوانب السلبية والايجابية التي ادت اليها الحركة الشعوبية فمن بين ايجابياتها ان الرغبة في ابراز العراقة والحضارة لدى كل من الطرفين حفزت الكتاب على البحث في تاريخ الاقوام وتسجيله والحفاظ عليه .

بعد ذلك تحدثنا عن الصراع بين العباسيين والاتراك بعد ان اعتمد عليهم الخلفاء الضعاف كبديل للعصبية الفارسية . ولم يكن الاعتماد عليهم سوى طريقا لتقهقر الدولة وكثرة المشاكل الاجتماعية والسياسية . وكان موقف العامة الرافض للتدخل الاجنبي المتسلط يؤدي تدريجيا الى تغير في موقف الخلفاء العباسيين من الاتراك ، ولكن الفرصة كانت قد فاتت فلم يبق من الحكم بايديهم آنذاك ، غير اسمائهم .

ـ الفصل الثالث : الحركات الاجتماعية ـ الصراع الطبقي

قبل التعرف الى نتائج هذا الفصل لابدّ لنا من الاشارة الى الملاحظات التالية :

١ ـ ان اعتمادنا على دراسة الحركة القرمطية وحركة الزنج والشطار في المجتمع العباسي لا يعني صرف الانظار عن الحركات الاجتماعية التي قامت في ارجاء اخرى من الخلافة العباسية . فحركات البابكية في شرقي الخلافة ، والخوارج والعلويون في مغربها والقرامطة في اليمن وغيرها ، كانت تشكل خطرا كبيرا على الدولة وتساهم في احداث بعض التغيرات في النظام الاجتماعي والسياسي .

٢ـ ان استمرار الحركات الاجتماعية وتتاليها في الارجاء البعيدة من مركز الخلافة ، واستمرار تهديدها ، كان يشجع عليه البعد عن المركز مما شجع المعارضين على الهجرة الى الاماكن البعيدة والجهر بدعوتهم بمأمن من جيش الخلافة وعيونها . وقد شكل ذلك السبب مفترقا في طريقة النضال لدى المعارضة المحيطة بالمركز وداخله (الباطنية ، السرية) ، وبين المعارضة في الاطراف (العلنية ، الصدامية) .

٣ـ ان معظم الدراسات الحديثة التي تناولت الحركة القرمطية لم تخرج عن اطار الدراسة التاريخية والتوثيقية والفلسفية ، فجاء معظمها كمحاولة جادة لمسح الغبار عن المصادر الباطنية المغمورة من اثر طابع السرية الذي اكتنف الحركة الاسماعيلية عموما ، او لابراز التاريخ الاجتماعي العربي لان فيه من التجارب الثورية " الاشتراكية " ما يمكن استلهامه وتبنيه كتجربة رائدة (لدى بعض الدارسين) .
ولكن ما تفتقده المكتبة العربية الى الآن ، ان تلك الدراسات الوثائقية المستجدة ، لم تظهر بالشكل الواجب ظهوره ، بأن تتعمق في مبادئ الحركة وتربط بين احداثها وتقارن بينها وبين الحركات الاخرى ، في اطار السياق التاريخي للحركة وفي ضوء المفاهيم السوسيولوجية العلمية . ولا يسعنا في هذا الاطار الا الاشارة الى الدراسة الغنية التي قام بها سامي العياشي (الاسماعيليون في المرحلة القرمطية) التي تجاوز فيها السرد التاريخي الى الدراسة الاجتماعية التحليلية . ولا بدّ ايضا من الاشارة الى المجهود المبذول في اطار الدراسات التاريخية التي قام بها كل من : برنارد لويس وسهيل زكار وتامر عارف ولكن . هناك مواقف تقويمية لاعلمية لا بد من الاشارة لها ـ وهي المواقف العدمية التي تنظر الى حركة القرامطة على انها حركة مروق وزندقة فتكيل لها التهم والنعوت ، او التي تنظر الى الحركة الزنجية من منطلق طبقي عنصري ، لا يختلف عن موقف طبقة الخاصة المعاصرة للزنج ، او من منطلق اقوامي يدعون ان الزنوج غرباء عن المجتمع العربي الاسلامي ، وانهم شعب همجي مغرض ، وكذلك ما تنظر به الى الشطار والعيارين على انهم مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق جردوا سيوفهم لافشاء الفوضى والاعتداء على الناس .

ـ وتأتي الحركات الاجتماعية نتيجة طبيعية للتفاوت الاقتصادي وما ادى اليه من تمايز طبقي في المجتمع العباسي .

ومن الاسس التي وضعناها لتحديد الحركات الاجتماعية الداخلة في بحثنا البعد السياسي المعارض والوضع الاقتصادي المتدهور للمشاركين في الحركة . ومن سائل يسأل : ان حركتي الشطار والعيارين لم تكن ذات بعد سياسي ؟

في الحقيقة ان المعارضة على مستوى النظام الاجتماعي يفترض ان تكون بالضرورة غالبا معارضة للنظام السياسي المسؤول على النظام الاجتماعي . وهذا ما يقتضي منا القول بأن حركة الشطار والعيارين كانت موجهة ضد الدولة العباسية ، طالما هي موجهة ضد التجار والاغنياء وما دامت التجارة تمثل ، في فترة ظهور دور العطار ، موردا اقتصاديا اساسيا للدولة ، فان هذه الحركة المتمردة استطاعت ان ترهق اجهزة الدولة الاقتصادية والادارية والعسكرية حينما هددت طرق تجارتها وهاجمت مواليها ، بل ان الامر بلغ بهم الى مهاجمة قصور الخلفاء ودور الشرطة .

ومن الملاحظ ان قادة الحركات الاجتماعية كانوا يحاربون طوال الفترة المدروسة بعقائد اسلامية ، اقتبسوها من القرآن والسنة . كما كانت تتحرك في اطار العقائد الباطنية وتتخذ من العمل السري اسلوبا لتحركها .

وقد تبنت تلك الحركات الاجتماعية بالاشتراك مع معظم الحركات السياسية والفكرية فكرة " الامام المنتظر " . وينطوي ذلك المبدأ على بعد تأويلي سيكولوجي ، لان كل حركة ، وكذلك كل انسان يحمل مهديه معه ، وهو الصورة الشخصية المثالية ، النموذجية لنفسه كما يجب ان يكون ، وقد ظهرت تلك الفكرة في الثقافة الاوروبية اللاحقة عند بعض المفكرين امثال سان سيمون عندما كان ينتظر صديقه الاشتراكي المثالي وامثال الشاعر الفرنسي ألفريد دي ميسي .

وتوصلنا الى ان القرنين الثالث والرابع الهجريين هما قرنا الحركات الاجتماعية المنظمة . وهي مرحلة بدأ فيها الفرز الطبقي في المجتمع العباسي يأخذ ابعاده

الواضحة . وبدأ الانسجام يظهر بين الاهداف المطروحة على المستوى النظري مع المعاناة الاجتماعية والاقتصادية لجماهير العامة . واصبح الولاء القائم على المصلحة الاجتماعية الطبقية يقوم مقام الولاء للقبيلة والقوم والعشيرة ، فاضحى النسب مجرد عنصر يستغله قادة الحركات الاجتماعية لاضفاء الشرعية على تحركاتهم المعارضة .

ومن اهم خصائص الحملة الرسمية على الحركات الاجتماعية انها تبالغ في ابراز مواقفها المعادية التي صاغتها بشكل يثير مشاعر جمهور المسلمين . وغضت الطرف عن اعمالهم الاجتماعية والسياسية ، بل انها شوهتها . ووقفت موقفا ارستقراطيا تميز بالنظرة الناقدة الى مبادئهم وسيرتهم السياسية واخلاقهم الاجتماعية ، فاختلطت الحقيقة بالخيال والواقع بالاختلال .

اما الانظمة الاقتصادية التي طبقتها الحركات الاجتماعية فانها انطوت على اهتمام بتوزيع الثروة بين الجماهير المشاركة في ثوراتها . وحاولت الاستيلاء على الملكيات الكبيرة وتوزيعها بين الناس بالعدل والقسطاس (القرامطة ـ نظام الالفة) الزنج (التمرد على الاقطاعيين بالاستيلاء على اموالهم) ـ الشطار والعيارين (الاستيلاء على اموال التجار واقتسامها بالعدل) .

اما فكرة العمل الجبهوي فكانت ضعيفة لطبيعة الاحداث المتلاحقة وضعف الخبرة التنظيمية وبهاتة الاهداف السياسية خاصة في حركتي الزنج والشطار . ولكننا وجدنا من الوقائع ما يثبت ان تلك الحركات تعي ، على الاقل ، ذلك الاسلوب فقد سعى القرامطة الى عرض العون على قائد الزنج دون ان يؤدي ذلك اللقاء الى نتيجة . كما اننا نلاحظ في حركات الشطار والعيارين ممارسة فعلية لذلك الاسلوب عندما كانت تساند العامة في انتفاضاتها ببغداد او حينما كانت تدافع عن بغداد الى جانب الامين ، رغم قناعتها بأنه يمثل احد اعدائها الاستراتيجيين .

وكثيرا ما كانت تلك الحركات تحيد عن الطرق والبرامج التي ارتسمتها فكثير ما تبتعد عن هدفها الباحث عن المساواة والعدل والحرية ، فتقع هي نفسها في ممارسة الظلم

والاستغلال وتملك العبيد ووجدنا ان ذلك يرجع الى انحرافات القادة وتفردهم بالقيادة وسريان الجهل بين الاتباع وغلبة روات الفعل المنيفة على العمل السياسي المنظم . فحركة الزنج مثلا تنكرت للمبادئ التي طرحتها واخذت تستعمل اساليب السادة الذين وجهت الثورة ضدهم ، ويظهر ذلك في امتلاك قادة الزنج للعبيد وتحولهم الى ملاك كبار للارض.

واذا ربطنا ذلك بالحركات السياسية منذ نشأتها الاولى في المجتمع العربي الاسلامي ،فاننا نقول بأن هناك شبه قاعدة سياسية تمر بها معظم الحركات السياسية والاجتماعية التي تطمح الى تكوين نظام سياسي اجتماعي بديل . حيث ان المعارضة عندما تحقق اهدافها (او جزءا من اهدافها) ،في انتزاع السلطة ، وبناء الدولة ،لا تلبث ان تتشكل في احشائها معارضة جديدة ترفع مطالب سياسية واجتماعية جديدة ،او على الاقل في قالب جديد ،وعندما تنتصر تلك وتبني دولتها وتحصل على السلطة تنشأ منها معارضة جديدة وهكذا .

وقد تحقق ذلك بشكل واضح في الدولة العباسية عندما ثارت في وجه الامويين رافعة المطلب السياسي (السلطة الهاشمية) والمطلب الاجتماعي (المساواة بين المسلمين جميعا) . ثم ما لبثت ان تعرضت لمعارضة الشيعة التي رفعت ايضا المطلب السياسي (السلطة الامامية العلوية) والمطلب الاجتماعي نفسه . على ان فصلنا بين حركات الشيعة والخوارج وبين حركات القرامطة والزنج والشطار ،لا ينقص من الاهمية التطبيقية للحركات الاولى بل ان الحركات الاخيرة ما كان لها ان تقوم بمعزل عن الاولى لان القرامطة والزنج بشكل اساسي استندوا الى مبادئ الديمقراطية السياسية والاجتماعية التي ناضل اسلافهم في اطارها .

ومن جهة اخرى فان الحركات الاجتماعية تميزت على مستوى تركيبها الطبقي بوحدة اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية . كما انها كانت تتوجه الى خصوم طبقيين محددين

طبقة الاقطاع في الريف والسواد بالنسبة للقرامطة والزنج ، وطبقة التجار في المدن والموانى بالنسبة للشطار والعيارين . ذلك هو جوهر الخلاف بين الاحزاب (التقليدية) وبين الحركات الشعبية (الحديثة) ، رغم ان كلا الطرفين كانا معارضين ويواجهان السلطة السياسية بنفس الحزم كما يواجهان الايديولوجية السنية الرسمية .

وفي آخر هذا البحث لابدّ لنا من ذكر اشكاليتين هامتين اعترضتانا في هذا البحث وهما :

١ـ اصطدام الباحث بندرة الحقائق والمعلومات المتعلقة بالبنية الاجتماعية المفصلة لجماعات المعارضة . فقد لعبت هواجس السرية والاضطهاد والمحن السياسية وابادة جزء كبير من ادبيات المعارضة السياسية والايديولوجية ، وغيرها ، دورا هاما في تلك الندرة مما حدا بنا الى تنويع مصادرنا وتوسيع معارفنا فيما يتعلق بالبحث عن الاخبـــار ومقارنتها في مواطنها المختلفة .

٢ـ هناك اشكالية ، تدخل في اطار الدراسة السوسيولوجية التي تنطلق من التطابق بين الفكر والواقع ، او من الملاءمة بينهما ، فبالنسبة للمجتمعات الاسلامية ، توجد صعوبة في التعرف على الانتماءات الطبقية الحقيقية لممثلي الحركة الفكرية ، وذلك بسبب ندرة المعلومات الدقيقة بالنسبة لحياتهم واصولهم الطبقية ، ومن جهة اخرى بسبب احاطة آرائهم باشكال فن الغموض والرمز وقد عبرت عن ذلك ظاهرة " التقية " التي اعتمدها المفكرون المعاصرون خصوصا .

كما تتجسد تلك الاشكالية في بهاتة قانون التطابق (بين الفكر والواقع) عندما ننظر الى العلاقة بين نشاط الحركة الثقافية والفكرية وازدهارها خصوصا في القـــرن الرابع الهجري وبين ما كانت تشهده العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسيـــة من تدهور وانحطاط .

اما بالنسبة لمصادر البحث ومراجعه فقد اعتمـــدنا الرجوع الى المصادر الاصلية التي تعود للعصر العباسي (او القريبة منه) . واستفدنا من المراجع التاريخيـــة

والفلسفية التي تحض باتفاق في تناولها لجمل الاحداث والظواهر المعروفة .

وعدنا ايضا الى الدراسات العربية التي تتعلق بمنهج الدراسات التراثية والتي تدرس الحركات الاجتماعية والصراعات الاجتماعية والسياسية . ولم نغفل الطرف عن الاطلاع على ما توفر لنا من دراسات المستشرقين المتعلقة بموضوع دراستنا .

وقد انطلقنا منذ البداية من الاعتماد على اصول الاستقصاء التي يستخدمها المنهج العلمي . والتي اهمها التثبت من الحقائق وايجاد الصلات بين بعضها والبعض الاخر ، ثم التعليق عليها وتقدير قيمتها على اساس المعايير العلمية ، واخيرا النظر الى النتائج منها باعتبارها مقدمات لما تؤدي اليه من المعلولات والنتائج .

على اننا حاولنا قدر الامكان الابتعاد عن ابداء آراء قاطعة في القضايا التي لا تتطلب ذلك ، او القضايا التي لا نمتلك القدرة على الحسم فيها . وفي حالات الاختلاف حول مسألة ما عمدنا الرجوع الى النصوص الاصلية محاولين فهمها باجتهادنا مستفيدين من ربطها بسياقها التاريخي وعلاقتها بالاحداث او الظواهر المشابهة لها .

وهكذا فاننا حاولنا الاحاطة بجمل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التي كانت تكون الاطار الذي يجري فيه الصراع الاجتماعي . وتوصلنا الى ان هناك عوامل مختلفة اثرت في مجرى الصراع ، كالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية . وانتهينا الى ان الصراع الطبقي القائم على اساس الموقع من الملكية والانتاج اصبح يمثل جوهر الصراع الاجتماعي . فقمنا باستقراء الحركات الاجتماعية ودرسنا فعالياتها وبناها الداخلية وعلاقاتها بالدولة والنتائج التي ادت اليها .

ولعلنا بهذه الدراسة المتواضعة نكون قد اسهمنا في بحث التراث العربي ونبهنا الى اهمية الدراسات الاجتماعية التاريخية التي تتعلق بماضي الامة العربية وحاضرها ومستقبلها . فكما يقال " كلما اطلت بصرك امامنا في الماضي ازدادت بصيرتك خبرة بالمستقبل" ، فان معرفة تاريخنا الاجتماعي على حقيقته واستلهام تراثه يمكننا من فهم

حاضرنا وحل مشكلاته المنوعة (في هذا المجال)، فضلا عن الفائدة العلمية التي تؤدي اليها تلك الدراسات من خلال استخدامها لمختلف انجازات العلم الحديث وطرائقه وادواته .

على اننا لا ننفي ضرورة الاهتمام بدراسة الحركات الاجتماعية منفصلة ، فذلك ينير الطريق اكثر كلما ظهرت مادة تاريخية جديدة تتعلق بتاريخنا الاجتماعي ، ولكننا كما ذكرنا في البداية ، حاولنا دراسة الصراع الاجتماعي كمفهوم سوسيولوجي عام يشمل مرحلة كاملة من حياة مجتمع تاريخي كبير ، ونعرف ان تلك المهمة صعبة وشاقة ، ولكننا اجتهدنا ، فكان عملنا مجرد بداية نرجو لها الاستمرار والتوسع في اعمالنا القادمة ولسنا في دراستنا لجوانب الصراع والصدام في التاريخ الاجتماعي ، نغض الطرف عما كان في تاريخنا العريق من جوانب انسانية ظهرت في المجتمع العباسي وغيره ولكن دراسة تلك الجوانب يتطلب بحثا آخر لا يدخل في اطار دراستنا .

ولن ندعي اننا وفينا الموضوع حقه ، فهو موضوع واسع وشائك ، ولكننا لمّنا أطرافه ووضحنا سبله واشرنا الى مواطن القوة والضعف فيه ، وجعلنا لمن يريد الاستزادة سبيلا ممهدا واضح المعالم .

وفي ختام بحثنا لا بدّ لنا من التنبيه الى الدور الذي تحمله استاذنا الدكتور عبد الكريم اليافي في سبيل ان يخرج هذا البحث الى حيز الوجود والانجاز . بفضل اشرافه ورعايته لنا خلال عملنا في هذا البحث لمدة سنتين . ولا يفوتنا الاعتراف بفضل اساتذة قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في جامعة دمشق وبالاخص الدكتور خضر زكريا والدكتور غانم هنا والدكتور طيب التيزيني ، لما افادونا به من سداد الرأي ودقة الملاحظة خلال اختيارنا لموضوع رسالتنا وتحديدنا لمعالمه الاولى وليس غريبا منهم ذلك التعاون البناء الذي يميز علاقاتهم بطلاب القسم جميعا .

كما ارفق ذلك كله بامتناني وتقديري لزوجتي التي كان لها دور كبير في رعاية هذا البحث والاسراع في انجازه واستكماله .

وكذلك لصديقي السيد علي العرفاوي الذي ساعدنا في تبويب مراجع البحث وترتيب صفحاته .

فهرس الموضوعات

فهرس المصادر والمراجع والدوريات

المصادر :

١ـ ابن الاثير — الكامل في التاريخ ـ ادارة الطباعة المنيرية ـ مصر ط ١ ، ١٣٥٧ هـ

٢ـ ابن المعمار (ابو عبدالله البغدادي الحنبلي) ـ كتاب الفتوة تقديم مصطفى جواد مطبعة شفيق ـ بغداد ط ١ ، سنة ١٩٥٨

٣ـ ابن المقفع (عبدالله) كليلة ودمنة ـ دار العودة ، بيروت

٤ـ ابن حزم [الرسائل ـ تحقيق احسان عباس ـ ط ١ الموسسة العربية ـ بيروت ١٩٨١
الفصل في الملل ـ ط ١ ، القاهرة .

٥ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) ـ المقدمة ـ دار احياء التراث العربي ـ ط ٤
التاريخ ـ ج ٣ بدون تاريخ ، مكتبة جامعة دمشق

٦ـ ابن خلكان وفيات الاعيان ـ ط ١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨

٧ـ ابن عبد ربه (عمر احمد بن محمد) ـ العقد الفريد ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة ط ٢ ١٩٥٢

٨ـ ابن طباطبا (المعروف بابن الطقطقا) ـ الفخري ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦

٩ـ ابن كثير (اسماعيل) ـ البداية والنهاية ـ مطبعة السعادة ـ مصر

١٠ـ ابو يوسف ـ كتاب الخراج ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ ١٩٢٦

١١ـ اخوان الصفا رسائل اخوان الصفا تحقيق الزركلي ـ المطبعة العربية مصر ١٩٢٨

١٢ـ البلاذري (ابو العباس احمد) ـ فتوح البلدان ـ دار النشر للجامعيين ـ ١٩٥٧ بيروت

١٣ـ التوحيدي (ابو حيان) الامتاع والموانسة ـ تحقيق احمد امين والحمد الزين ، دار الحياة

١٤ـ الجاحظ ابوعثمان عمرو بن بحر) ـ كتاب البخلاء ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨ ١٩٣٨
الحيوان ـ مكتبة الحلبي واولاده ـ مصر تحقيق عبد السلام هارون
البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ ط ٢ القاهرة ١٩٦٠
الرسائل ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ١٩٦٤

١٥ـ الجهشيارى (الوزراء والكتاب ـ ط ١ ، القاهرة ١٩٣٨)

١٦ـ السيوطي تاريخ الخلفاء ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط ١ مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٥٢

١٧ـ الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ تحقيق عبد الرحمان خليفة ط ١ القاهرة ١٣٤٧ هـ

١٨ـ الشيباني (محمد بن الحسن ـ كتاب الكسب ـ تحقيق سهيل زكار نشر حرصوني دمشق ـ ط ١ ، ١٩٨٠

١٩ـ الصابئ (ابو الحسن هلال بن المحسن) ـ رسوم الخلافة ـ تحقيق ميخائيل عواد مطبعة العاني بغداد ١٩٦٤

٢٠ـ الطبري (ابو جعفر محمد) ـ تاريخ الرسل والملوك ـ دار المعارف مصر ١٩٦٦

٢١ـ الغزالي (ابو حامد
ـ احياء علوم الدين ـ مطبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٤٦ هـ
ـ فضائح الباطنية ـ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٤

٢٢ـ الفارابي (ابو نصر) ـ كتاب السياسة المدنية ـ المطبعة الكاثوليكية بيروت ط ١

٢٣ـ القلقشندى ـ كتاب صبح الاعشى ـ المطبعة الاميرية ـ القاهرة ١٩٠٦

٢٤ـ المبرد (محمد بن يزيد) ـ الكامل ـ مطبعة نهضة مصر القاهرة ١٩٣٦

٢٥ـ المسعودى ـ التنبيه والاشراف ـ مكتبة خياط ، بيروت ١٩٦٥
ـ مروج الذهب ـ مطبعة السعادة بمصر ط ٣ ، ١٩٦٢

٢٦ـ المعرى (ابو العلاء)
ـ اللزوميات ـ مجلد ١ ، دار صادر ودار بيروت ١٩٦١

٢٧ـ مسكويه (ابو علي احمد بن محمد) تجارب الامم ـ شركة التمدن الصناعي بمصر ١٩١٥

٢٨ـ اليعقوبي ـ التاريخ : Houtsma, M.T.H, 1883

٢٩ـ الاصفهاني (الراغب) ـ محاضرات الادباء دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦١

٣٠- الاصفهاني (ابو الفرج) - مقاتل الطالبين ، تقديم كاظم المظفر - المكتبة الحيدرية ، النجف العراق ط ٢ ، ١٩٦٥

- الاغاني ، الموسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ط ١ (لعدد من الكتاب)

٣١- اخبار القرامطة في الاحساء - الشام - العراق - اليمن جمع وتحقيق ودراسة سهيل زكار - نشر وتوزيع عبد الهادي حرصوني ط ١ ، ١٩٨٠ - دمشق

٣٢- مخطوطة " فصل في رسائل اخوان الصفا " رقم (٢٣٠٩) من فهرست دي سلان ، المكتبة الوطنية (باريس)

=====

٢- المراجع :

١- البيطار (امينة) تاريخ العصر العباسي - مطابع موسسة الوحدة - جامعة دمشق ١٩٨١

٢- التيزيني (طيب) - مشروع روية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ط ٥ دار دمشق

- من التراث الى الثورة - دار الجيل بيروت - دار دمشق - دمشق ط ٣ ، ١٩٧٩ ، وطبعة دار ابن خلدون ١٩٧٨

٣- الخربوطلي (علي حسني) - المهدي العباسي - الدار المصرية لتأليف والترجمة ، سلسلة اعلام العرب (٥)

- ١٠ ثورات في الاسلام - ط ١ ، دار الاداب ، بيروت ١٩٦٨

٤- الدوري (عبد العزيز) - الجذور التاريخية للشعوبية - بيروت ١٩٦٢

- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري - بغداد ط ١ ، ١٩٤٨

- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي - بيروت ١٩٦٨

- بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٠

٥- العزيز (حسين قاسم) - البابكية - ١٩٦٦ مكتبة النهضة ببغداد - دار الفارابي بيروت

٦- العش (يوسف) - تاريخ عصر الخلافة العباسية - دار الفكر - دمشق ط١ ١٩٨٢ ،

٧- العياش : (سامي) الاسماعيليون في المرحلة القرمطية - دار ابن خلدون بيروت

٨- السيخلي (صباح ابراهيم) - الاصناف في العصر العباسي) - ط١ وزارة الاعلام العراق ، ١٩٧٦

٩- المحاسني (زكي) - ابو العلاء المعري نا قد المجتمع - دار الفكر العربي ١٩٤٧

١٠- الطيباوي (عبد اللطيف) - تاريخ العرب والاسلام - دار الاندلس بيروت ٩٦٣

١١- النجار (محمد رجب) حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي سلسلة عالم المعرفة (٤٥) الكويت ١٩٨١

١٢- اليافي (عبد الكريم - معالم فكرية في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ط ١ الشركة المتحدة للتوزيع - دمشق ١٩٨٢

- تمهيد في علم الاجتماع ط٤ مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤

١٣- ادهم (علي) - ابو جعفر المنصور - سلسلة اعلام العرب (٨٢) دار الكتاب العربي بمصر ١٩٦٩

١٤- امين (احمد) - ضحى الاسلام - ط٥
- ظهر الاسلام ط١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥

١٥- اسماعيل (محمود) - الحركات السرية في الاسلام - دار القلم بيروت ط١ ١٩٧٣

١٦- حسن (حسن ابراهيم) - تاريخ الاسلام (العصر العباسي الاول) مكتبة النهضة ط ٧ ، ١٩٦٤

١٧- حمادة (محمد ماهر) - الوثائق السياسية والادارية (للعصر العباسي الاول) مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٦

١٨- دروبينيفا (ل . م) - السوسيولوجيا والتاريخ - ترجمة علي نمر ذياب دار الحداثة ط١ ، ١٩٨١

١٩- دي خويه (ميكال يان) - القرامطة " نشأتهم ، دولتهم ، وعلاقتهم بالفاطميين ، ترجمة وتحقيق حسني زينه - دار ابن خلدون ط٢ ، ١٩٨٠

٢٠- رودنسون (مكسيم) - التاريخ الاقتصادي وتاريخ الطبقات الاجتماعية في العالم الاسلامي
دار الفكر الجديد ، بيروت - ط٢ ، ١٩٨١

٢١- زكي (احمد كمال) - الاصمعي - سلسلة اعلام العرب (١٨)

٢٢- زيدان (جرجي) - تاريخ التمدن الاسلامي (ج ٢ ، ٥) مطبعة الهلال بمصر ١٩٢٢
١٩٣١

٢٣- سعد (احمد صادق) - تاريخ مصر الاجتماعي - الاقتصادي - دار ابن خلدون
بيروت ط ١ ، ١٩٧٩

٢٤- شريف (محمد بديع) - الصراع بين الموالي والعرب - دار الكتاب العربي مصر - ١٩٥٤

٢٥- ضيف (شوقي) - العصر العباسي الاول - دار المعارف بمصر ط٣ ، ١٩٦٦

٢٦- عمارة (محمد) - الاسلام وفلسفة الحكم - ط٢ القاهرة

٢٧- عمر (فاروق) - العباسيون الاوائل - (ج ١) دار الارشاد ، بيروت ١٩٧٠

٢٨- علبي (احمد) - ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد - ط١ مكتبة الحياة بيروت ١٩٦١

٢٩- غالب (مصطفى) - اعلام الاسماعيلية - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٦٤

٣٠- فلهاوزن (يوليوس) - الخوارج والشيعة - تقديم وترجمة عبد الرحمان بدوي - وكالة
المطبوعات ط٣ ، الكويت ١٩٧٨

٣١- فهد (بدري محمد) - العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ط١ بغداد ١٩٦٧

٣٢- لويس (برنارد) اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية - دار الحداثة بيروت
مراجعة وتقديم خليل احمد خليل ، ط ١ ١٩٨٠

٣٣- مروة (حسين) - النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية دار الفارابي ط٣ بيروت ٨٠
- دراسات في الاسلام (مع كتاب اخرين) - دار الفارابي ط٢ بيروت ١٩٨١

٣٤- متز (آدم) - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، مكتبة الخانجي القاهرة ط٤
دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧

٣٥- هنا (غانم) - بناء المجتمع - مطبعة الاتحاد - دمشق - ١٩٨١

٣٦- وقيدي (محمد) - ما هي الابستيمولوجيا - دار الحداثة بيروت ١٩٨٣

٣٧- (مجموعة كتاب) - الماركسية والتراث العربي الاسلامي
- مقال علي حرب - دار الحداثة - ط١ بيروت ١٩٨٠

المراجع باللغات الأجنبية :

- W. Heyd : « Histoire du commerce du levant au moyen-âge
Amsterdam, 1953 - Tome I

- Gilles - Gasten Granger : « Pensée Formelle et sciences de l'homme »
Aubitions Montaigne, 1967

- Encyclopaedia britanica, P: 375, Volume 21
First Published in 1768

- Revue Asiatique : Serie 9, Tome 11, Année 1898
Casanova = " Notice sur un manuscrit de la secte des Assassins » Page : 161

- ARABICA : Tome I, 1954
claude cahen : « Fiscalité, Propriété, Antagonisme sociaux en Haute-Mésopotamie Au temps des premiers Abbasides ». Page : 136 - 152

et le N° de Janviers 1959, P: 26
« Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie Musulmane du Moyen Âge »

الـدوريـات :

- الموسوعة الاقتصادية ـ تأليف مجموعة من الاقتصاديين ـ تعريب عادل عبد المهدي وحسن الهموندي . (مترجمة عن الفرنسية) دار ابن خلدون ٨=١٩٨٠
- التراث العربي ـ مقال " السيوف القلعية "،عبد الكريم اليافي العدد ١٠ دمشق ١٩٨٣
- فكر ـ مقال " ملامح الصراع السياسي في كتاب البخلاء " ـ محمد علي الخطيب العدد (٥٤) بيروت ١٩٨٢
- دراسات تاريخية ـ "مقال بعض ملامح الصراع الطبقي في التاريخ العربي" نبيه عاقل العدد ٣ ، ١٩٨٠ ـ جامعة دمشق .
- ـ دراسات عربية ـ مقال " ملامح التشكيلات الاجتماعية " فرج الله ديب العدد ١٠ ، ١٩٨٠
- دراسات عربية ـ مقال " رموز الوعي السياسي في كليلة ودمنة " خليل احمد خليل، تشرين ٢ ١٩٨١
- الفكر العربي ، مجلة الانماء العربي للعلوم الانسانية ـ العدد ٢٧ ، ١٩٨٢ " ما هو التاريخ " . كارل فابر
- العربي ـ مقال " ظاهرة الاصناف " محمد عيسى صالحية ايار ١٩٨٣
- الطريق ـ مقال " ثورة العبيد في البصرة " احمد علبي ـ فبراير ١٩٧٠
- الطريق ـ مقال " كليلة ودمنة تراث عربي اصيل" حسين مروة السنة ١٥ ، العددان ٧ و ٨ . بيروت ١٩٥٦

=============

=======

جدول في الأخطاء وتصويبها

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
[illegible]	١٣ و١٤	عليهم. التابع	عليهم، والتابع
[illegible]	أخير	نظرة الى	نظرة على
[illegible]	٨	المبادئ ء	مبادئه
[illegible]	٦	تلك " الروح	تلك الروح
[illegible]	١٨	لا نلاحق	نلاحق
[illegible]	٨ أخير	وأبدو من	وأبعده
[illegible]	٥	نحل	نجُلّ
[illegible]	٢ أخير	ومماثلتهم	ومخاتلتهم
[illegible]	[illegible]	اعداء "لمن	اعداء لمن ★
[illegible]	[illegible]	عن قتل	من قبل
[illegible]	[illegible]	. تدلانه على	لا تدلانه على
[illegible]	١٢	متهم	منهم
[illegible]	٣	نظام	نظامي
[illegible]	١	المحضوة	المحظوة
[illegible]	١٧	بدعوى التميز	بدعوى التمييز
[illegible]	١	تجاوزا	تجاوزوا
[illegible]	٧ أخير	مستفيدين	مستفيدينا
[illegible]	٣ أخير	فالمحضوة	فالمحظوة
[illegible]	أخير	الاجتماعي	(إضافة): والسلبي للدولة
[illegible]	٥	المحضوة	المحظوة
[illegible]	٤	وتجلي	وخاصة
[illegible]	٢	رغم أنه	رغم أننا
[illegible]	بيت ٧	وأم لاككم	وأم لاكم
[illegible]	٢ أخير	بالحروف "	بالحروب
[illegible]	٥ أخير	عن بعضها	عند بعضها
[illegible]	٦	المباشرة "	" المباشرة "
[illegible]	١٥	انشاء	بإنشاء
[illegible]	١١	(٤) .	(٤) "
[illegible]	الهامش	الحياشي	العياشي
[illegible]	٥ أخير	عن	من
[illegible]	١٣	الصغط	ضغط
[illegible]	١٦	الزيادة	الرّيادة
[illegible]	١	مجمع الألفة"	"مجتمع الألفة"
[illegible]	٣ أخير	ـ انتحاض الحنفا"	ـ انتفاض الحنفاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٩	أخير	المنوعات	الممنوعات
٢٠٧	٤	الايجاز ...	الايجاز للتعبير المتميز بالتكثيف بالكلام في إطار ...
٢٠٨	٢ أخير	علاقة واضحة	[illegible] في العلا
٢٣٩	ف ٥	ودفعهم الفرائب	ودفع الفلاحين الى
٢٤٠	١٢	القائلة بالابقاء	القائلة بوجوب الا
٢٤٤	١٠	إلا أنه	إلى أنْ
٢٤٥	٤	التي توصلت	حين توصلت
٢٤٦	٨	(صيغة الجمع تحول الى مثنى)	
٢٥٢	٥	اعتراضانا في هذا البحث وهما:	اعتراضانا وهما
٢٥٣	١	والفلسفية التي	والفلسفية والأزمة